# المنتقى الثمين

## من كتاب مدارج السالكين

اختيار الفقير إلى ربه

زامل بن صالح الزامل



بسم الله الرحمن الرحيم

# المنتقى الثمين

من كتاب مدارج السالكين

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م






المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب ١٨٤١٢
الرمز البريدي ٢١٤٦٥

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسـوله الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمـا بعد . . فهـذا منتقى من كتاب مـدارج السـالكين لـلإمـام ابن القيم رحمه الله تعالى، والذي دعاني إلى اختيار ما حررته هو ما رأيته بالكتاب من الفوائد فـاستعنت المولى سبحـانه وتعـالى وانتقيت ما تيسر. راجيـاً من الله سبحـانـه وتعـالى أن يجعل عملنـا خالصـاً لوجهـه الكريم وأن ينفـع به كـل من قرأه أو سمعه وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



# الجزء الأول

# بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بعد مقدمة كتاب مدارج السالكين:

ونحن بعون الله ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن. وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال وما تضمنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها ومواهبها وكسبياتها. وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن. فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها. ومدارها عليها وهي «الله، والرب، الرحمن» وبنيت السورة على الإلهية. والربوبية. والرحمن.

فـ ﴿**إياك نعبد**﴾ مبني على الإلهية و﴿**إياك نستعين**﴾ على الربوبية

وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلاهيته وربوبيته ورحمته، والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد. وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها وتفرُّد الربّ تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله ﴿**مالك يوم الدين**﴾.

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

**أحدها**: كونه رب العالمين فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملاً لا يُعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما فهذا هضم للربوبية ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

**الثاني**: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

**الموضع الثالث**: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل. وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب. فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح. لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الإسلام حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك.

**الموضع الرابع**: من ذكر ﴿**يوم الدين**﴾ فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصي والسيئآت وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه والحجة إنما قامت برسله وكتبه وبهم استحق الثواب والعقاب وبهم قام سوق يوم الدين وسيق الأبرار إلى النعيم والفجار إلى الجحيم.

**الموضع الخامس**: من قوله ﴿**إياك نعبد**﴾ فإن ما يعبد به الربّ تعالى لا

يكـون إلا على ما يحبـه ويرضـاه وعبادتـه وهي شكـره وحبـه وخشيتـه فـطري ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبـد به لا سبيـل إلى معرفتـه إلا بـرسله وبيانهم وفي هـذا بيان أن إرسـال الـرسـل أمـر مستقـر في العقـول يستحيل تعطيل العالم عنه كما يستحيل تعطيله عن الصانع فمن أنكر الرسـول فقد أنكر المرسِل ولم يؤمن به ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به.

**الموضع السادس**: من قوله: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ فالهدايـة هي البيان والدلالة. ثم التوفيق والإلهام. وهو بعد البيان والـدلالة. ولا سبيـل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل فإذا حصل البيان والدلالـة والتعريف تـرتب عليه هدايـة التوفيق وجعـلُ الإيمان في القلب وتحبيبـه إليه وتـزيينه في القلب وجعله مؤثراً له راضياً به راغباً فيه. وهما هدايتان مستقلتان لا يحصـل الفلاح إلا بهمـا وهمـا متضمنتـان تعـريف مـا لم نعلمـه من الحق تفصيـلاً وإجمـالاً وإلهامنا لـه وجعلنا مـريدين لاتبـاعه ظـاهراً وبـاطناً. ثم خَلْقُ القـدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنـا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الـدعوة فـوق كل ضـرورة. وبطلان قول من يقول إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية. فـإن المجهول لنـا من الحق أضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريـده أو أكثر منه أو دونه وما لا نقدر عليه مما نريده كـذلك. ومـا نعرف جملتـه ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر ونحن محتاجون إلى الهداية التامـة فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى، وهي آخر مراتبها، وهي الهـداية يـوم القيامـة إلى طريق الجنة وهو الصراط الموصل إليها فمن هُدي في هـذه الدار إلى صـراط الله المستقيم الـذي أرسل بـه رسله وأنزل بـه كتبه هُـدي هنـاك إلى الصـراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابـه وعلى قدر ثبـوت قدم العبـد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قـدمه على الصـراط المنصـوب على مَتْن جهنم. وعلى قدر سيـره على هذا الصـراط يكون سيـره

على ذاك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق. ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كالريح. ومنهم من يمر كشَدِّ الركاب. ومنهم من يسعى سعياً. ومنهم من يمشي مشياً. ومنهم من يحبو حَبْواً. ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردس في النار. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا. حَذْو القُذَّة بالقذة جزاء وفاقاً ﴿**هل تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾.

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾ فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر.

**الموضع السابع**: من معرفة نفس المسؤول وهو الصراط المستقيم ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة والإيصال إلى المقصود. والقرب. وسعته للمارين عليه. وتعينه طريقاً للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته. وإضافته إلى المنعم عليهم ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعيّنه طريقاً و﴿**الصراط**﴾ تارة يضاف إلى الله. إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله تعالى: [٦:١٥٣] ﴿**وأنّ هذا صراطي مستقيماً**﴾ وقوله: [٤٢:١٥٣] ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله**﴾ وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة لكونهم أهل سلوكه وهو المنسوب لهم. وهم المارون عليه.

**الموضع الثامن**: من ذكر المنعَم عليهم وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق أو جاهلاً به والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها ألبتة. فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه. وهو الذي زكّى نفسه بالعلم

النافع والعمل الصالح وهو المفلح [٩١ : ٩] **﴿قد أفلح من زكاها﴾** والعالم بـه المتبع هواه هـو المغضوب عليـه. والجاهـل بالحق هـو الضال. والمغضـوب عليه ضال عن هداية العمل والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل فكل منهما ضال مغضوب عليه ولكن تارك العمـل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به ومن هاهنا كان اليهود أحق بـه. وهو متغلظ في حقهم كقـولـه تعـالى في حقهم: [٢ : ٩٠] **﴿بئسمـا اشتـروا بـه أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بَغْياً أن ينـزل الله من فضله على من يشآء من عبـاده فباؤا بغضب على غضب﴾** وقـال تعالى: [٥ : ٦٠] **﴿قـل هل أنبئكم بشـر من ذلك مثوبة عند الله، مَنْ لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازيـر وعَبَدَ الطاغوت أولئك شر مكـانـاً وأضـل عن سوآء السبيـل﴾** والجاهـل بالحق أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به في قولـه تعالى: [٥ : ٧٧] **﴿قـل يـا أهل الكتـاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعـوا أهوآء قـوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سوآء السبيل﴾** فـالأولى في سياق الخـطاب مع اليهود. والثانية في سياقه مع النصارى. وفي التـرمذي وصحيـح ابن حبّان من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم. والنصـارى ضالـون» ففي ذكـر المنعَم عليهم، وهم من عـرف الحق واتبعـه. والمغضوب عليهم، وهم من عرفه واتبع هـواه. والضالين وهم من جهله. مـا يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة. لأن انقسام الناس إلى ذلك هـو الواقـع المشهود وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

وأضـاف النعمة إليـه وحذف فـاعل الغضب لـوجوه منهـا أن النعمة هي الخير والفضل. والغضب من باب الانتقام والعـدل. والرحمـة تغلب الغضب فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما. وهـذه طريقـة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه. وحذف الفاعل في مقـابلتهما كقـول مؤمني الجن [٧٢ : ١٠] **﴿وأنـا لا نـدري أشـر أريـد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾** ومنه قول الخضـر في شأن الجدار واليتيمين [١٨ : ٨٢] **﴿فـأراد ربك أن يبلغـا أشدّهمـا ويستخرجـا كنزهمـا﴾** وقـال في خـرق السفينـة [١٨ : ٧٩] **﴿فأردت أن أعيبها﴾** ثم قال بعد ذلـك: **﴿وما فعلتـه عن أمري﴾** وتـأمل قـوله

تعالى: [٢: ١٨٧] ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم**﴾ وقوله: [٥: ٣] ﴿**حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير**﴾ وقوله: [٤: ٢٣] ﴿**حرمت عليكم أمهاتكم**﴾ ثم قال: [٤: ٢٤] ﴿**وأحل لكم ما وراء ذلكم**﴾.

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر. فكل الخلق في نعمه وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافرين من نعمة أم لا؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر كما قال تعالى: [١٤: ٣٤] ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار**﴾.

والنعمة من جنس الإحسان بل هي الإحسان والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر والمؤمن والكافر.

وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

**الوجه الثاني**: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم [١٦: ٥٣] ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾ فأضيف إليه ما هو منفرد به. وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً ومجرىً للنعمة وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه فكان في لفظة ﴿**المغضوب عليهم**﴾ بموافقة أوليائه من الدلالة على تفرده بالأنعام وأن النعمة المطلقة منه وحده هو المنفرد بها ما ليس في لفظة ﴿**المنعم عليهم**﴾.

**الوجه الثالث**: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعمَ عليه والإشادة بذكره ورفع قدره ما ليس في حذفه فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ورفع قدره فقلت هذا الذي أكرمه السلطان وخلع عليه وأعطاه ما تمناه كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك هذا الذي أكرم وخُلع عليه وشرف وأعطي. وتأمل سراً بديعاً في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح وهي الهدى ودين الحق ويتضمن كمال الإنعام

بحسن الثواب والجزاء فهذا تمام النعمة ولفظ ﴿**أنعمت عليهم**﴾ يتضمن الأمرين وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام واقتضاه الحمل اقتضاء في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة مع ذكر الفاعل في أهل السعادة وحذفه في أهل الغضب وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال. وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة والغضب والضلال فذكر المغضوب عليهم والضالين في مقابلة المهتدين المنعم عليهم. وهذا كثير في القرآن يقرن بين الضلال والشقاء وبين الهدى والفلاح فالثاني كقوله: [٢ : ٤] ﴿**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾ وقوله: [٦ : ٨٢] ﴿**أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ والأول كقوله تعالى: [٥٤ : ٤٧] ﴿**إنّ المجرمين في ضلال وسُعُر**﴾ وقوله: [٢ : ٧] ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم**﴾ وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: [٢٠ : ١٢٣] ﴿**فإما يأتينكم منّي هدى فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى**﴾ فهذا الهدى والسعادة ثم قال: [٢٠ : ١٢٤] ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيمة أعمى. قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيها وكذلك اليوم تُنْسى**﴾ فذكر الضلال والشقاء فالهدى والسعادة متلازمان والضلال والشقاء متلازمان.

## فصل

وذكر ﴿**الصراط المستقيم**﴾ مفرداً معرفاً تعريفين تعريفاً باللام وتعريفاً بالإضافة وذلك يفيد تعينه واختصاصه وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها كقوله: [٦ : ١٥٣] ﴿**وأنّ هذا**

صراط مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ فوحد لفظ الصراط وسبيله وجمع السبل المخالفة له. وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطًّاً وقال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال: «هذه سُبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق ولو أتى الناسُ من كل طريق واستفتحوا من كل باب فالطرق عليهم مسدودة والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد فإنه متصل بالله موصل إلى الله قال الله تعالى: [١٥: ٤١] ﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾ قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم وهذا يحتمل أمرين أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض فقامت أداة: عليّ: مقام: إليّ: والثاني أنه أراد التفسير على المعنى وهو الأشبه بطريق السلف أي صراط موصل إليّ. وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يُعرج على شيء. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه وهو من أصح ما قيل في الآية. وقيل: عليّ: فيه للوجوب أي عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه والقولان نظير القولين في آية النحل وهي: [ :٩] ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر أن السبيل القاصد. وهو المستقيم المعتدل يرجع إلى الله ويوصل إليه. قال طُفَيل الغَنَوي:

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تَشَقَّلَب

أي ممرنا عليهم وإليهم وصولنا وقال الآخر:

فهن المنايا أيّ واد سلكته عليها طريقي أو عليّ طريقها

فإن قيل لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة: إلي: التي هي للانتهاء لا أداة: علي: التي هي للوجوب ألا ترى أن لما أراد الوصول قال: [٨٨: ٢٢، ٢٣] ﴿إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم﴾ وقال: [٣٠: ٢٣] ﴿إلينا مرجعهم﴾ وقال: [٦: ١٠٨] ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم﴾ وقال لما أراد

الـوجوب: [٢٦:٨٨] ﴿ثم إن علينـا حسابهم﴾ وقـال: [١٧:٧٥] ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ وقال: [٦:٣٨] ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ ونظائر ذلك قيل في أداة: عليّ: سر لطيف وهو الإشعار بكـون السالـك على هذا الصراط على هدىً وهو حق كمـا قال في حق المؤمنين [٢:٤] ﴿أولـئك على هـدى من ربهم﴾ وقال لـرسولـه ﷺ: [٢٧:٧٩] ﴿فتوكـل على الله إنك على الحق المبين﴾ والله عـز وجـل هـو الحق وصـراطـه حق ودينـه حق فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهـدى فكان في أداة: علي: على هـذا المعنى ما ليس في أداة: إلي: فتأمله فإنه سر بديع.

فـإن قلت فمـا الفـائـدة في ذكـر: علي: في ذلـك أيضـاً وكيف يكـون المؤمن مستعلياً على الحق وعلى الهدى: قلت: لمـا فيه من استعـلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه فكان في الإتيـان بأداة: علي: مـا يدل على علوه وثبوته واستقامتـه وهذا بخـلاف الضلال والـريب فإنـه يؤتى فيه بأداة: في: الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيـه كقولـه تعالى: [٩:٤٥] ﴿فهم في ريبهم يتردّدون﴾ وقوله: [٦:٣٩] ﴿والذين كذبوا بـآياتنـا صمّ وبكم في الـظلمـات﴾ وقـولـه: [٢٣:٢٤] ﴿فـذرهم في غمـرتهم حتى حين﴾ وقوله: [٤٢:١٤] ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ وتأمـل قولـه تعالى: [٣٤:٢٤] ﴿وإنـا أو إياكم لعلى هـدى أو في ضلال مبين﴾ فـإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل السافلين.

## فصل

والصراط المستقيم هو صـراط الله وهو يخبـر أن الصراط عليـه سبحانـه كما ذكرنـا ويخبر أنـه سبحانـه على الصراط المستقيم وهـذا في موضعين من القـرآن في هود والنحـل قال في هـود: [١١:٥٦] ﴿ما من دابـة إلا هو آخـذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ وقال في النحل: [١٦:٧٦] ﴿وضرب الله مثـلاً رجلين أحدهمـا أبكم لا يقدر على شيء وهـو كل على مـولاه أينمـا يـوجهه لا يـأتي بخير. هـل يستوي هـو ومن يأمـر بالعـدل وهـو على صـراط

مستقيم﴾ فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل وهي كلّ على عابدها يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده ويضعه ويقيمه ويخدمه فكيف يسوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد. وهو قادر متكلم غني وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله فقوله صدق ورشد ونصح وهدى. وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة. هذا أصح الأقوال في الآية وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره. ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال ثم حكاها بعده كما فعل البغوي. فإنه جزم به وجعله تفسير الآية. ثم قال: وقال الكلبي يدلكم على صراط مستقيم.

قلت: ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم فإن دلالته بفعله وقوله وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لا يناقض القول الأول فالله على الصراط المستقيم ورسوله عليه فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه وعلى هذا يكون المثل مضروباً لإمام الكفار وهاديهم. وهو الصنم الذي هو أبكم لا يقدر على هدى ولا خير. ولإمام الأبرار وهو رسول الله ﷺ الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

## فصل

ولما كان طالب الصراط المستقيم، طالبَ أمرٍ أكثر الناس ناكبون عنه مريداً لسلوك طريقٍ مرافقة فيها في غاية القلة والعزة والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الأنس بالرفيق. نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق وأنهم هم الذين **﴿أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾** فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له وهم الذين أنعم الله عليهم ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له فإنهم هم الأقلون قدراً

وإن كانوا الأكثرين عدداً كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين. وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق بهم وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتف إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين. فليكونا منك على بال:

**المثل الأول**: رجل خرج من بيته إلى الصلاة لا يريد غيرها فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس فألقى عليه كلاماً يؤذيه فوقف ورد عليه وتماسكا فربما كان شيطان الإنس أقوى منه فقهره ومنعه عن الوصول إلى المسجد حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول وكمال إدراك الجماعة فإن التفت إليه أطمعه في نفسه وربما فترت عزيمته فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجمز بقدر التفاته أو أكثر فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

**المثل الثاني**: الظبي أشد سعياً من الكلب ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيد فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت (اللهم اهدني فيمن هديت) أي أدخلني في هذه الزمرة واجعلني رفيقاً لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت وكان ذلك نعمة منك فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم وعلمني في جملة من علمته وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك.

## فصل

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ونيله أشرف المواهب علّم الله عباده كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم توسل إليه بأسمائه وصفاته. وتوسل إليهبعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يريد معهما الدعاء. ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد والترمذي.

أحدهما حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول: (اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد). فقال: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى» قال الترمذي: حديث صحيح فهذا توسل إلى الله بتوحيده وشهادة الداعي له بالوحدانية وثبوت صفاته المدلول عليها باسم الصمد وهو كما قال ابن عباس: العالم الذي كمل علمه القادر الذي كملت قدرته. وفي رواية عنه: هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد.

وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده. وقال سعيد بن جبير: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله.

وينفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة. والتوسل بالإيمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني حديث أنس: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض ذا

الجلال والإكرام يا حي يا قيوم. فقال: «لقد سأل الله باسمه الأعظم» فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده. والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب وهو الهداية بعد الوسيلتين فالداعي به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له ثم سأله المغفرة.

## فصل

مرتبة التحديث وهذه دون مرتبة الوحي الخاص وتكون دون مرتبة الصديقين كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه كما قال النبي ﷺ: «إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب».

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا وعلّق وجودهم في هذه الأمة بـ (إن) الشرطية مع أنها أفضل الأمم؛ لاحتياج الأمم قبلنا إليهم واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدَّث ولا ملهم ولا صاحب كشف ولا منام. فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدَّث هو الذي يحدَّث في سره وقلبه بالشيء فيكون كما يحدث به. قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث لأنه استغنى بكمال صديقيته

ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول فاستغنى به عما منه[1].

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول فإن وافقه قبله وإلا رده. فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأمّا ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: حدثني قلبي عن ربي. فصحيح أن قلبه حدثه ولكن عمّن: عن شيطانه أو عن ربه فإذا قال حدثني قلبي عن ربي: كان مسنداًالحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به وذلك كذب. قال ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ولا تفوّه به يوماً من الدهر وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يوماً (هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فقال: لا أمْحُه واكتب (هذا ما رأى عمر بن الخطاب فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمن عمر والله ورسوله منه بريء) وقال في الكلالة: (أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان) فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ. وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطاح والسماعي مجاهر بالقِحَة والفرية يقول (حدثني قلبي عن ربي). فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين وأعط كل ذي حق حقه ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً.

وأمّا ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع، فهو من أحد وجوه ثلاثة لا رابع لها. أعلاها أن يخاطبه الملك خطاباً جزئياً فإن هذا يقع لغير الأنبياء فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام فلما اكتوى تركت خطابه فلما ترك الكي عاد إليه خطاب ملكي. وهو نوعان أحدهما خطاب يسمعه بأذنه وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين.

والثاني خطاب يلقى في قلبه يخاطب به الملك روحه كما في الحديث المشهور: «إنّ للملك لمّة بقلب ابن آدم. وللشيطان لمّة. فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد» ثم قرأ:

(١) كذا في الأصل: ولعل الصواب (لرسالة الرسول فاستغنى بها عن التحديث).

[٢: ٢٦٨] ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً**﴾ وقال تعالى: [٨: ١٢] ﴿**إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا**﴾ قيل في تفسيرها قوّوا قلوبهم وبشروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم القتال والقولان حق فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم.

## فصل

النوع الثاني من الخطاب المسموع خطاب الهواتف من الجان وقد يكون المخاطب جنياً مؤمناً صالحاً وقد يكون شيطاناً وهذا أيضاً نوعان: أحدهما أن يخاطبه خطاباً يسمعه بأذنه.

والثاني: أن يلقي في قلبه عندما يلمّ به. ومنه وعده وتمنيته حين يَعِدُ الأنسي ويمنيه ويأمره وينهاه كما قال تعالى: [٤: ١٢] ﴿**يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ وقال: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾ وللقلب من هذا الخطاب نصيب وللأذن أيضاً منه نصيب والعصمة منتفية إلا عن الرسل ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحماني أو ملكي بأي برهان أو بأي دليل؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه ويلقي في السمع خطابه فيقول المغرور المخدوع: قيل لي وخوطبت: صدقت لكن الشأن في القائل لك والمخاطِب. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغيلان بن سلمة وهو من الصحابة لما طلق نسائه وقسم ماله بين بنيه: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك.

## فصل

النوع الثالث خطاب حالي تكون بدايته من النفس وعوده إليها فيتوهمه من خارج وإنما هو من نفسه منها بدأ وإليها يعود.

## فصل

في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين شفاء القلوب وشفاء الأبدان:

فأما اشتمالها على شفاء القلوب فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين فساد العلم وفساد القصد. ويترتب عليهما داءان قاتلان وهما الضلال والغضب فالضلال نتيجة فساد العلم. والغضب نتيجة فساد القصد. وهذا المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقيق بـ ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ علماً ومعرفة وعملاً وحالاً يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد فإنّ فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كِلا نوعي قصده فاسداً وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته من المشركين ومتبعي الشهوات الذين لا غاية لهم وراءها وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق وحادوا عنه إلى طريق أخرى وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة[1] وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا وأتوا إليه مذعنين لا لأنه حق بل لموافقته غرضهم وأهوائهم وانتصارهم به. [٢٤: ٤٨، ٥٠] ﴿**وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون**﴾.

والمقصود أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم وهؤلاء إذا بطلت

---

(١) السكة المراد منها الاسم والشعار يضرب على النقود ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء في وقته إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الصور أما الحكم النافذ في الأمور فلغيرهم.

الغـايـات التي طلبـوهـا واضمحلت وفنيت حصلوا على أعـظم الخسـران والحسـرات وهم أعظم النـاس ندامـة وتحسـراً إذا حقّ الحق وبـطل البـاطـل وتقـطعت بهم أسباب الـوصـل التي كـانت بينهم وتيقنـوا انقـطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة وهذا يظهر كثيراً في الدنيا ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيـل منها والقدوم على الله ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء إذا حقت الحقائق وفاز المحقون وخسر المبطلون وعلموا أنهم كانوا كاذبين وكانوا مخدوعين مغرورين فيا له هناك من علم لا ينفع عالمـه ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليـا والمطلب الأسمى ولكن لم يتـوسل إليـه بالوسيلة الموصلة له وإليـه بل تـوسل إليـه بوسيلة ظنهـا موصلة إليـه وهي من أعظم القواطع عنه فحاله أيضاً كحال هذا وكلاهما فاسد القصد ولا شفـاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ فـإن هذا الـدواء مركب من ستة أجزاء:

١ ـ عبودية الله لا غيره.

٢ ـ بأمره وشرعه.

٣ ـ لا بالهوى.

٤ ـ ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم.

٥ ـ بالاستعانة على عبوديته به.

٦ ـ لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿**إياك نعبد وإياك نستعبن**﴾ فإذا ركبهـا الطبيب اللطيف العـالم بالمـرض واستعملها المـريض حصل بهـا الشفـاء التـام ومـا نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد وهما الرياء والكبر فدواء الرياء بـ ﴿**إياك نعبد**﴾ ودواء الكبـر بـ ﴿**إيـاك نستعين**﴾ وكثيراً مـا كنت أسمع شيـخ الإسلام ابن تيميـة قـدس الله روحه يقول: ﴿**إياك نعبد**﴾ تدفع الرياء و﴿**إياك نستعين**﴾ تدفع الكبريـاء. فإذا

عوفي من مرض الرياء بـ ﴿**إياك نعبد**﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿**إياك نستعين**﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه ورفل في أثواب العافية وتمت عليه النعمة وكان من المنعم عليهم ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾ وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ﴿**والضّالين**﴾ وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفائين أن يُسْتَشْفَى بها من كل مرض ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفائين كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى كما سنبينه فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه وفهمت عنه فهماً خاصاً اختصها به من معاني هذه السورة وسنبين إن شاء الله تعالى تضمنها للرد على جميع أهل البدع أوضح البيان وأحسن الطرق.

## فصل

وأما تضمنها لشفاء الأبدان فنذكر منه ما جاءت به السنة وما شهدت به قواعد الطب ودلت عليه التجربة.

فأمّا ما دلت عليه السنة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي من العرب فلم يقروهم ولم يضيفوهم فلدغ سيد الحي فأتوهم فقالوا: هل عندكم من رقية أو هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: نعم ولكنكم لم تقرونا فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب فقام كأن لم يكن به قَلَبَة فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي ﷺ فأتيناه فذكرنا ذلك فقال: «ما يدريك أنها رقية كلوا واضربوا لي معكم بسهم». فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الدواء وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء[1] هذا

(١) لم نجد في الروايات الصحيحة أن أحد من الصحابة لا في عهد الرسول ﷺ ولا بعده فعل =

مع كون المحل غير قابل إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلاً.

## فصل

وأما شهادة قواعد الطب بذلك فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحُمات والسموم وهي ذوات الأنفس الخبيثة التي تتكيف بكيفية غضبية تثير فيها سُمية نارية يحصل بها اللدغ وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها فإذا تكيَّفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية تجد راحة ولذة في إلقائها إلى المحل القابل كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يوصله إليه وكثير من الناس لا يهنأ له عيش، في يوم لا يؤذي فيه أحداً من بني جنسه ويجد في نفسه تأذياً بحمل تلك السمية والشر الذي فيه حتى يفرغه في غيره فيبرد عند ذلك أنينه وتسكن نفسه ويصيبه في ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع فيسوء خلقه وتثقل نفسه حتى يقضي وطره. هذا في قوة الشهوة. وذاك في قوة الغضب.

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعاً لهذه النفوس الغضبية فلولا هو لفسدت الأرض وخربت [٢ : ٢٥١] ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾ وأباح الله بلطفه ورحمته لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدتها والمقصود أن هذه الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه ومنها ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له وإن لم يمسه فمنها ما يطمس البصر ويسقط الحبل ومن هذا نظر العاين فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت في نفسه كيفية سميّة أثرت في المعين بحسب عدم استعداده وكونه أعزل من السلاح[١] وبحسب قوة تلك

= مثل ذلك مرة ثانية ولعله والله أعلم كان هذا الحادث بصنع الله لأولئك الصحابة الذين كانوا في حاجة رسول الله ﷺ ومنعهم أهل الحي حقهم من الضيافة مع جوعهم وشدة حاجتهم فسلط الله الحشرة على رئيسهم فلدغته ليستخرج لهم بتلك اللدغة والرقية حقهم.

(١) أي من الأوراد.

النفس: وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وصف له فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به. ومنكر هذا ليس معدوداً من بني آدم إلا بالصورة والشكل فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها وما تضمنته من التوحيد والتوكل والثناء على الله وذكر أصول أسمائه الحسنى وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه ولا على خير إلا نماه وزاده دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية فحصل البرء فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده وحفظ الشيء بمثله فالصحة تحفظ بالمثل والمرض يدفع بالضد أسبابٌ ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقاً وأمراً ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة وقبول من الطبيعة المنفعلة فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية ولم تقو نفس الراقي على التأثير لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء. وبذل الطبيب له. وقبول طبيعة العليل. فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء. وإذا اجتمعت حصل الشفاء بإذن الله سبحانه وتعالى. ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقي وميز بين النافع منها وغيره ورقى الداء بما يناسبه من الرقي وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع وهذه إشارة مطلقة على ما وراءها لمن دق نظره وحسن تأمله والله أعلم.

وأمّا شهادة التجارب بذلك فهي أكثر من أن تذكر وذلك في كل زمان وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبة ولا سيما مدة المقام بمكة فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة مني وذلك في أثناء الطواف وغيره فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط جربت ذلك مراراً عديدة وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء والأمر أعظم من ذلك ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين والله المستعان.

## فصل

في بيان تضمنها للرد على الرافضة وذلك من قوله تعالى ﴿**إهدنا الصراط المستقيم**﴾ إلى آخرها. ووجه تضمنه إبطال قولهم أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام: منعم عليهم: وهم أهل الصراط المستقيم. الذين عرفوا الحق واتبعوه. ومغضوب عليهم: وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه. وضالون: وهم الذين جهلوه فأخطأوه. فكل من كان أعرف للحق وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم.

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم هم أولى بهذه الصفة من الروافض فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم جهلوا الحق وعرفه الروافض. أو رفضوه وتمسك به الروافض ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر وقلبوها بلاد إسلام وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان فإنه قط ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام وكم جَرُّوا على الإسلام وأهله من بلية وهل عاثت سيوف المشركين عباد الأصنام من عسكر هولاكو وذويه من التتار إلا من تحت رؤوسهم وهل عطلت المساجد وحرقت المصاحف وقتل سروات المسلمين وعلماءهم وعبادهم وخليفتهم إلا بسببهم ومن جرائهم، ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة وآثارهم في الدين معلومة. فأي الفريقين أحق بالصراط المستقيم وأيهم أحق بالغضب والضلال إن كنتم تعلمون؟

ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله: بأبي بكر وعمر وأصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم وهو كما فسروه فإنه صراطهم الذي كانوا عليه وهو عين صراط نبيهم وهم الذين أنعم الله عليهم وغضب على أعدائهم وحكم لأعدائهم بالضلال. وقال أبو العالية رفيع الرياحي والحسن البصري، وهما من أجلّ التابعين: الصراط المستقيم رسول الله ﷺ وصاحباه. وقال أبو العالية أيضاً في قوله تعالى: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ هم آل رسول

الله ﷺ[1] وأبو بكر وعمر وهذا حق فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة ولا خلاف بينهم وموالاة بعضهم بعضاً وثناؤهم عليهما ومحاربة من حاربا ومسالمة من سالما معلومة عند الأمة خاصها وعامها وقال زيد بن أسلم: الذين أنعم الله عليهم هم رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر. ولا ريب أن المنعم عليهم هم أتباعه والمغضوب عليهم هم الخارجون عن اتباعه وأتبع الأمة له وأطوعهم أصحابه وأهل بيته وأتبع الصحابة له السمع والبصر أبو بكر وعمر وأشد الأمة مخالفة له هم الرافضة فخلافهم له معلوم عند جميع فرق الأمة ولهذا يبغضون السنة وأهلها ويعادونها ويعادون أهلها فهم أعداء سنته ﷺ وأهل بيته وأتباعه من بينهم أكمل ميراثاً بل هم ورثته حقاً. فقد تبين أن الصراط المستقيم طريق أصحابه وأتباعه، وطريق أهل الغضب والضلال طريق الرافضة.

وبهذه الطريق بعينها يرد على الخوارج فإن معاداتهم الصحابة معروفة.

## فصل

وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين وعليهما مدار العبودية والتوحيد حتى قيل أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن وجمع معاني القرآن في المفصل وجمع معاني المفصل في الفاتحة ومعاني الفاتحة في ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين فنصفهما له تعالى وهو ﴿**إياك نعبد**﴾ ونصفهما لعبده وهو ﴿**إياك نستعين**﴾.

---

(١) الآل كل من يؤول إلى النبي ﷺ بأخص صفاته وأبرز مزاياه وليست الولادة البشرية من خصائص رسول الله بل هو فيها مثل غيره من البشر كما جاء صريحاً في كتاب الله وكما تقتضيه كلمات الله وإنما خصوصيته ﷺ هي الرسالة والهدى والعلم والحكمة التي أخرج الله بها من الظلمات إلى النور فآله هم أتباعه في هذه الرسالة وهداها بقطع النظر عن الزمن والبلد والأب والجد على علم وبصيرة من ربهم. كما أن آل فرعون هم أتباعه على ظلمه وبغيه وكفره في كل زمان ومكان وبأي اسم وقد صرح الله سبحانه بما يقتضي هذا جلياً في قوله: [٣٣: ٤٠] ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾.

## فصل

إذا عرفت هذا فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته وهو الذي علمه النبي ﷺ لِحبّه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «يا معاذ والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دُبُر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾**.

ومقابل هؤلاء القسم الثاني وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ومتعه بها ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطرده عنه وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عوناً على طاعته كان مبعداً له عن مرضاته قاطعاً له عنه ولا بد وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً لا بخلاً وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ويراه يقضي حوائج غيره فيسيء ظنه بربه وهذا حشو قلبه ولا يشعر به والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة وعلامة هذا حمله على الأقدار وعتابه الباطن لها كما قيل:

وعـاجـز الــرأي مضيـاع لفــرصتـه　　حتى إذا فــات أمـر عــاتب القـدرا

فوالله لو كـشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القـدر واتهامـه وأنه قـد كان ينبغي أن يكـون كذا وكـذا ولكن ما حيلتي والأمـر ليس إليّ والعاقـل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبـة عنك وإذا لم تجد من سؤاله بداً فعلقه على شـرط علمه تعـالى فيه الخيـرة وقدم بين يـدي سؤالك الاستخارة ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة لـه عليها ولا اهتـداء له إلى تفـاصيلها ولا يملك لنفسـه ضراً ولا نفعاً بل إن وُكِلَ إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعتـه وبلاغاً إلى مرضاته ولا يجعله قاطعاً لك عنـه ولا مبعداً عن مـرضاتـه ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبـده عليه ولا منعـه كل مـا يمنعه لهـوان عبده عليـه ولكن عطاؤه ومنعـه ابتلاء وامتحـان يمتحن بهما عبـاده قال الله تعـالى: [٨٩: ١٥ و١٦] **﴿فأما الإنسـان إذا ما ابتـلاه ربه فـأكرمـه ونعمه فيقـول ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقـه فيقول ربي أهـانن. كلا﴾** أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقـد أكرمتـه وما ذاك لكـرامته عليّ ولكنـه ابتلاء مني وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك أم يكفرني فأسلبـه إياه وأخـول فيه غيره،وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه عليّ ولكنه ابتلاء وامتحان مني له أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف مـا فاته من سعة الرزق أم يتسخط فيكون حظه السخط.

فـرد الله سبحانـه على من ظن أن سعة الـرزق إكرام وأن الفقـر إهـانـة فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليّ ولم أبتليه بالفقر لهوانـه عليّ فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الـرزق وتقديـره فإنـه سبحانـه يوسع على الكافر لا لكرامته ويُقَتِر على المؤمن لا لإهانته إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعتـه ويهين من يهينه بـالإعراض عنـه ومعصيته فله الحمـد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

## فصل

إذا عرف هذا فلا يكون العبد متحققاً ﴿**إياك نعبد**﴾ إلا بأصلين عظيمين:

**أحدهما**: متابعة الرسول ﷺ.

**والثاني**: الإخلاص للمعبود فهذا تحقيق ﴿**إيّاك نعبد**﴾ والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين إلى أربعة أقسام:

**أحدها**: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة وهم أهل ﴿**إياك نعبد**﴾ حقيقة فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً ولا ابتغاء الجاه عندهم ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ولا هرباً من ذمهم بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم ألبتة بل من جاهل بشأنهم وجاهل بربه فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ولما يحبه ويرضاه وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه وهو الذي بَلَا عباده بالموت والحياة لأجله قال الله تعالى: [٦٧: ٢] ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً

والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة وهذا هو المذكور في قوله تعالى: [١٨: ١١٠] **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾** وفي قوله: [٤: ١٢٥] **﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾** فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه على متابعة أمره وما عدا ذلك فهو مردود على عامله ويُرد عليه أحوج ما هو إليه هباء منثوراً، وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي ﷺ: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء.

## فصل

**الضرب الثاني**: من لا إخلاص له ولا متابعة فليس عمله موافقاً لشرع وليس خالصاً للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرآئين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله عز وجل ولهم أوفر نصيب من قوله: [٣: ١٨٨] **﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾** يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص. وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الإتباع والإخلاص والعلم فهم أهل الغضب والضلال.

## فصل

**الضرب الثالث**: من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر وكل من عبدالله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة وأنّ مواصلة صوم النهار بالليل قربة وأنّ صيام يوم فطر الناس كلهم قربة وأمثال ذلك.

## فصل

**الضـرب الرابـع**: من أعماه على متـابعة الأمـر لكنها لغيـر الله كـطاعـة المرائين وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة ويحج ليقال ويقـرأ القرآن ليقـال فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها لكنهـا غير صـالحة فـلا تقبل [٩٨: ٥] ﴿**وما أمروا إلا ليعبـدوا الله مخلصين له الـدين**﴾ فكل أحـد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمـر والإخلاص لـه في العبادة وهم أهـل ﴿**إياك نعبـد وإياك نستعين**﴾.

## فصل

ثم أهل مقام ﴿**إياك نعبد**﴾ أربعة أصناف نذكر الثالث والرابع.

**الصنف الثالث**: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها مـا كان فيـه نفع متعـد فـرأوه أفضل من ذي النفـع القاصـر فرأوا خـدمة الفقـراء والاشتغال بمصـالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعـدتهم بالمـال والجاه والنفـع أفضل فتصـدوا له وعملوا عليـه واحتجوا بقـول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيـال الله وأحبهم إليـه أنفعهم لعياله» رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفاع متعـد إلى الغير وأين أحدهما من الآخرة!.

قـالوا: ولهـذا كان فضـل العالم على العـابد كفضـل القمر على سـائر الكواكب. قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طـالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمـر النعم» وهذا التفضيـل إنما هو للنفع المتعدي واحتجوا بقوله ﷺ: «من دعـا إلى هدى كـان له من الأجـر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء» واحتجوا بقـوله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي النـاس الخير» وبقـوله ﷺ: «إنّ العـالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحـر والنملة في جحرها» واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله وصـاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم. لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله ونفع عباده والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

**الصنف الرابع**: قالوا: إنّ أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به. والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن. والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت والخروج إلى الجامع وإن بعد أفضل. والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك. والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأن الله تعالى يخاطبك به فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد لا سيما التكبير

والتهليل والتحميد فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

پوالأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه. والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه. واعتزالهم في الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه. وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته فهو يعبد الله على وجه واحد وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت فمدار تعبده عليها فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره فإن رأيت العلماء رأيته معهم. وإن رأيت العباد رأيته معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم. وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم. وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم ولم تقيده القيود ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه فهذا هو المتحقق بـ ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ حقاً القائم بهما صدقاً. ملبسه ما تهيأ ومأكله ما

تيسر. واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً لا تملكه إشارة ولا يتعبده قيد ولا يستولي عليه رسم. حرّ مجرد دائر مع الأمر حيث دار يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه ويدور معه حيث استقلت مضاربه. يأنس به كل محق ويستوحش منه كل مبطل كالغيث حيث وقع نفع وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله والغضب إذا انتهكت محارم الله فهو لله وبالله ومع الله قد صحب الله بلا خَلق وصحب الناس بلا نَفس بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين وتخلى عنهم وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها فواهاً له ما أغرَبه بين الناس وما أشد وحشته منهم. وما أعظم إنسه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه والله المستعان وعليه التكلان انتهى.

قال: واحتمال منة المخلوق إنما كانت نقصاً لأنه نظيره فإذا منّ عليه استعلى عليه ورأى الممنون عليه نفسه دونه هذا مع أنه ليس في كل مخلوق فلِرسول الله ﷺ المنة على أمته وكان أصحابه يقولون الله ورسوله أمنّ. ولا نقص في منة الوالد على ولده ولا عار عليه في احتمالها وكذلك السيد على عبده فكيف بربّ العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم ومحض صدقته عليهم بلا عوض منهم ألبتة. وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها وأعانهم عليها وكملها لهم وقبلها منهم على ما فيها وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله تعالى: ﴿**بما كنتم تعملون**﴾.

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: من كان يعبد وما يقول في رسول الله ﷺ. ويلتمسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود فيسجد المؤمنون ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

# فصل

في مراتب ﴿إياك نعبد﴾ علماً وعملاً.

للعبودية مراتب بحسب العلم والعمل فأما مراتبها العلمية فمرتبتان: إحداهما العلم بالله. والثانية العلم بدينه. فأما العلم به سبحانه فخمس مراتب العلم بذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه وتنزيهه عما لا يليق به. والعلم بدينه مرتبتان إحداهما دينه الأمري الشرعي وهو الصراط المستقيم الموصل إليه. والثانية: دينه الجزائي المتضمن ثوابه وعقابه وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العلمية فمرتبتان. مرتبة لأصحاب اليمين ومرتبة للسابقين المقربين. فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات وترك المحرمات مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات وترك بعض المستحبات. وأما مرتبة المقربين فالقيام بالواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم متورعين عما يخافون ضرره، وخاصتهم قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية. فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين بل كل أعمالهم راجحة ومَنْ دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله انتهى.

قال: والمقصود أن يكون ملك الأعضاء وهو القلب قائماً بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته وأما المحرمات التي عليه فالكبر والرياء والعجب والحسد والغفلة والنفاق وهي نوعان: كفر ومعصية. فالكفر كالشك والنفاق والشرك وتوابعها. والمعصية نوعان كبائر وصغائر فالكبائر كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله وتمني زوال ذلك عنهم وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها وإلا فهو

قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن. وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب وترك القيام بها فوظيفة ﴿إياك نعبد﴾ على القلب قبل الجوارح فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها. وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً شهوة المحرمات وتمنيها وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر بحسب تفاوت درجات المشتهي فشهوة الكفر والشرك كفر وشهوة البدعة فسق وشهوة الكبائر معصية فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: هذا القاتل يا رسول الله فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» فنزله منزلة القاتل لحرصه على قتل صاحبه في الإثم دون الحكم وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب. وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

## فصل

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها النطق بالشهادتين وتلاوته ما يلزمه تلاوته من القرآن وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود وأمر بقول (ربنا ولك الحمد) بعد الاعتدال وأمر بالتشهد وأمر بالتكبير ومن واجبه رد السلام وفي ابتدائه قولان. ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهل وإرشاد الضال وأداء الشهادة المتعينة وصدق الحديث. وأما مستحبه فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك.

وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها وكالقذف وسب المسلم وأذاه بكل قول والكذب وشهادة الزور والقول على الله بلا علم

وهو أشدها تحريماً. ومكروهه التكلم بما تركه خير من الكلام به مع عدم العقوبة عليه. انتهى.

فأول منازل العبودية: اليقظة: وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين ولله ما أنفع هذه الروعة وما أعظم قدرها وخطرها وما أشد إعانتها على السلوك فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح وإلا فهو في سكرات الغفلة فإذا انتبه شَمّر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى وأوطانه التي سُبي منها.

فحيّ على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيّم
ولكننا سبي العدو فهل تُرى نعود إلى أوطاننا ونسلم

فأخذ في أهبة السفر فانتقل إلى منزلة (العزم) وهو العقد الجازم على المسير ومفارقة كل قاطع ومُعوّق ومرافقة كل معين وموصل وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه وبحسب قوة عزمه يكون استعداده. فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة (الفكرة) وهي تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعدّ له مجملاً ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه. فإذا صحت فكرته أوجبت له (البصيرة) فهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار وما أعد الله في هذه لأوليائه وفي هذه لأعدائه فأبصر الناسَ وقد خرجوا من قبورهم مُهْطِعين لدعوة الحق وقد نزلت ملائكة السماوت فأحاطت بهم وقد جاء الله وقد نصب كرسيه لفصل القضاء وقد أشرقت الأرض بنوره ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقد نصب الميزان وتطايرت الصحف واجتمعت الخصوم وتعلّق كلُّ غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كَثَب وكثر العطاش وقل الوارد ونُصب الجسر للعبور ولزّ الناس إليه وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه والنار يَحْطِم بعضها بعضاً تحته والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين.

فينفتح في قلبه عين يرى بها ذلك ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها.

فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل

كأنه يشاهده رأي عين فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم وهذا معنى قول بعض العارفين البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به وقال بعضهم: البصيرة ما خلصك من الحيرة إما بإيمان وإما بعيان.

والبصيرة على ثلاث درجات من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات. وبصيرة في الأمروالنهي. وبصيرة في الوعد والوعيد انتهى.

وأما فراسة الصادقين العارفين بالله وأمره فإن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته ودعوة الخلق إليه على بصيرة كانت فراستهم متصلة بالله متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال وميزت بين الخبيث والطيب والمحق والمبطل والصادق والكاذب وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله فحملت كل إنسان على قدر استعداده علماً وإرادة وعملاً ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعرفها وتخليصها من بين سائر الطرق وبين كشف عيوب النفس وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

## فصل

فإذا انتبه وأبصر أخذ في القصد وصدق الإرادة، وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله وعلم وتيقن أنه لا بد له منه فأخذ في أهبة السفر وتعبئة الزاد ليوم المعاد والتجرد عن عوائق السفر وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج. انتهى.

فاعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة قلبه نائم وطرفه يقظان فصاح به الناصح وأسمعه داعي النجاح وأذن به مؤذن الرحمٰن حيّ على الفلاح فأول مراتب هذا النائم اليقظة والانتباه من النوم وقد ذكرنا أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه.

وصاحب المنازل يقول: هي القومة المذكورة في قوله تعالى: [٣٤ :٤٦] **﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾**، قال: (القومة لله هي اليقظة من سِنَةِ الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه وهي على ثلاثة أشياء لَحْظُ القلب إلى النعمة على اليأس من عدّها والوقوف على حدها والتفرغ إلى معرفة المنة بها والعلم بالتقصير في حقها).

وهذا الذي ذكره هو موجب اليقظة وأثرها فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبيه أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة وكلما حدق قلبه وطرفه فيها شاهد عظمتها وكثرتها فيئس من عدها والوقوف على حدها وفَرَّغَ قلبه لمشاهدة مِنّة الله عليه بها من غير استحقاق ولا استجلاب لها بثمن فتيقن حينئذ تقصيره في واجبها وهو القيام بشكرها فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية محبة المنعم واللهج بذكره وتذكر الله وخضوعه له وإزراءه على نفسه حيث عجز عن شكر نعمه فصار متحققاً بـ (أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) وعلم حينئذ أن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار وعلم حينئذ أن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم وعلم أن العبد دائماً سائر إلى الله بين مطالعة المنة ومشاهدة التقصير.

قال: (الثاني مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها والتشمير لتداركها والتخلص من رقها وطلب النجاة بتمحيصها).

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة ويعلم أنه على خطر عظيم فيها وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه وقد ذمّ الله تعالى في كتابه من نسي ما تُقَدم يداه فقال: [١٨ :٥٧] **﴿ومن أظلم ممن ذُكر بآيات ربه فأعرض عنها ونَسيَ ما قدمت يداه﴾** فإذا طالع جنايته شمّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل وتخلص من رقّ الجناية بالاستغفار والندم وطلب التمحيص وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية كتمحيص الذهب

والفضة وهو تخليصهما من خبثهما. ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب ولهذا تقول لهم الملائكة: [٣٩: ٧٣] ﴿**سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾ وقال تعالى: [١٦: ٣٢] ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون: سلام عليكم ادخلوا الجنة**﴾ فليس في الجنة ذرة خبث. وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. فإن محصته هذه الأربعة وخلصته كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يبشرونهم بالجنة وكان من الذين [٤١: ٣٠ ـ ٣٢] ﴿**تتنزل عليهم الملائكة**﴾ عند الموت ﴿**أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون. نزلاً من غفور رحيم**﴾ وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه فلم تكن التوبة نصوحاً وهي العامة الشاملة الصادقة. ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً وهو المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه وهذا هو الاستغفار النافع لا استغفار من في يده قدح السكر وهو يقول: أستغفر الله ثم يرفعه إلى فيه ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير ولا المصائب وهذا إما لعظم الجناية وإما لضعف الممحص وإما لهما ـ مُحّص في البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه واستغفارهم له وشفاعتهم فيه الثاني تمحيصه بفتنة القبر وروعة الفتان والعَصْرة والانتهار وتوابع ذلك. الثالث ما يُهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال من الصدقة عنه والحج والصيام عنه وقراءة القرآن عنه والصلاة وجعل ثوابه له وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء قال الإمام أحمد لا يختلفون في ذلك وما عداهما فيه اختلاف والأكثرون يقولون بوصول الحج وأبو حنيفة يقول إنما يصل إليه ثواب الإنفاق. وأحمد ومن وافقه مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب يقولون يصل إليه ثواب جميع القرب بَدَنيّها وماليها والجامع للأمرين واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لمن سأله يا رسول الله هل بقي من برّ أبوي شيء أبرهما به بعد مماتهما؟ قال: «نعم» فذكر الحديث وقد قال ﷺ: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه».

فإن لم تف هذه بالتمحيص مُحص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة، وشدة الموقف، وشفاعة الشفعاء، وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلا بد له من دخول الكِيْر رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار فتكون النار طهرة له وتمحيصاً لخبثه ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته وشدته وضعفه وتراكمه فإذا خرج خبثه وصفي ذهبه وصار خالصاً طيباً أخرج من النار وأدخل الجنة. انتهى.

قال: (فأما معرفة النعمة فإنها تصفو بثلاثة أشياء: بنور العقل. وشَيْم بروق المِنَّة. والاعتبار بأهل البلاء).

يعني أن حقيقة مشاهدة النعمة يصفو بهذه الثلاثة فهي النور الذي أوجب اليقظة فاستنار القلب به لرؤية التنبه وعلى حسبه قوة وضعفاً تصفو له مشاهدة النعمة فإن لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملبسه وعافية بدنه وقيام وجهه بين الناس فليس له نصيب من هذا النور ألبتة فنعمة الله بالإسلام والإيمان وجذب عبده إلى الإقبال عليه والتنعم بذكره والتلذذ بطاعته هو أعظم النعم وهذا إنما يدرك بنور العقل وهداية التوفيق.

وكذلك شَيمهُ بروق منن الله عليه وهو النظر إليها ومطالعتها من خلال سُحُب الطبع وظلمات النفس والنظر إلى أهل البلاء وهم أهل الغفلة عن الله والابتداع في دين الله فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقاً فإذا رآهم وعلم ما هم عليه عظمت نعمة الله عليه في قلبه وصفت له وعرف قدرها فالضد يُظْهِر حسنه الضد. وبضدها تتميز الأشياء حتى إن من تمام نعيم أهل الجنة: رؤية النار وما هم فيه من العذاب.

قال: (وأما مطالعة الجناية فإنها تصح بثلاثة أشياء: بتعظيم الحق ومعرفة النفس وتصديق الوعيد).

يعني أن من كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها

وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونَفَس وشدة حاجتها إليه عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس. وأيضاً فإذا عرف حقارتها مع عظم قدر من خالفه عظمت الجناية عنده فشمر في التخلص منها وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به.

ومدار السعادة وقطب رحاها على التصديق بالوعيد فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يرجى معه فلاح ألبتة والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد وخاف عذاب الآخرة فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار والمنتفعون بالآيات دون من عداهم قال الله تعالى: [١١: ١٠٣] ﴿**إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة**﴾ وقال: [٧٩: ٤٥] ﴿**إنما أنت منذر من يخشاها**﴾ وقال: [٥٠: ٤٥] ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ وأخبر تعالى أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد الخائفون منه فقال تعالى: [١٣: ١٤] ﴿**ولَنُسْكِنَنّكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد**﴾.

قال: (وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام فإنها تستقيم بثلاثة أشياء بسماع العلم وإجابة داعي الحرمة وصحبة الصالحين وملاك ذلك كله خلع العادات).

يعني أن السالك على حسب علمه بمراتب الأعمال ونفائس الكسب تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه وكذلك تَفَقُّد إجابة داعي تعظيم حرمات الله من قلبه هل هو سريع الإجابة لها أم هو بطيء عنها فبحسب إجابة الداعي سرعة وإبطاء تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبة أرباب العزائم المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى يعرف به ما معه من الزيادة والنقصان. والذي يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات وتوطين النفس على مفارقتها والغربة بين أهل الغفلة والإعراض وما على العبد أضر من ملك العادات له وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين فمن لم يوطن

نفسه على مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع وعن فلاحه وفوزه ممنوع [٩: ٤٦] **﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾** انتهى.

قال: والقصد أن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده وقع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ولا بد حتى في الأعمال من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده. فابْتُلِيَ بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك.

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتُلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بد.

وكذلك من رغب عن الهدى بالوحي ابتليَ بكناسة الآراء وزِبالة الأذهان ووسخ الأفكار فليتأمل من يريد نصح نفسه وسعادتها وفلاحها هذا الموضع في نفسه وفي غيره.

ولا ريب أن العامة مع غفلتهم وشهواتهم أصح إيماناً من هؤلاء إذا لم يعطلوا الأمر والنهي. فإن إيماناً مع تفرقة وغفلة خير من شهود وجمعية يصحبها فساد الإيمان والانسلاخ منه. انتهى.

قال: وأما سوء الظن بالنفس فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش ويلبس عليه فيرى المساوِىء محاسن والعيوب كمالاً فإن المحب يرى مساوىء محبوبه وعيوبه كذلك:

فعين الرضى عن كل عيب كليلة      كما أن عين السخط تبدي المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه: وأما تمييز النعمة من الفتنة فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية بين النعمة التي يرى بها الاستدراج فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر. مفتون بثناء الجهال

عليه مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه. وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح ذلك مبلغهم من العلم فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه يجمعه على الله فهو نعمة حقيقة وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة والمحنة في صورة المنحة فليحذر فإنما هو مستدرج ويميز بذلك أيضاً بين المنة والحجة فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى فإن العبد بين منة من الله عليه وحجة منه عليه ولا ينفك عنهما فالحكم الديني متضمن لمنته وحجته قال الله تعالى: [٣: ١٦٤] ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم**﴾ وقال: [٤٩: ١٧] ﴿**بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان**﴾ وقال: [٦: ١٤٩] ﴿**فلله الحجة البالغة**﴾ والحكم الكوني أيضاً متضمن لمنته وحجته فإذا حكم له كوناً حكماً مصحوباً باتصال الحكم الديني به فهو منة عليه وإن لم يصحبه الديني فهو حجة منه عليه وكذلك حكمه الديني إذا اتصل به حكمه الكوني فتوفيقه للقيام به منة منه عليه وإن تجرد عن حكمه الكوني صار حجة منه عليه فالمنة باقتران أحد الحكمين بصاحبه والحجة في تجرد أحدهما عن الآخر فكل علم صحبه عمل يرضي الله سبحانه فهو منة وإلا فهو حجة. وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة وإلا فهي حجة وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه والدعوة إليه فهو منة منه وإلا فهو حجة وكل ما اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور فهو منة من الله عليه وإلا فهو حجة. وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه وإلا فهو حجة وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوع للرب وذل وانكسار ومعرفة بعيب النفس والعمل وبذل النصيحة للخلق فهو منة وإلا فهو حجة. وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرة ومزيد في العقل ومعرفة في الإيمان فهي منة وإلا فهي حجة وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل به السير إلى الله وإيثار مراده على مراد العبد فهو منة من الله وإن صحبه الوقوف عنده والرضى به وإيثار مقتضاه من لذة النفس به وطمأنينتها إليه وركونها إليه فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ويميز بين مواقع المنن

والمحن والحجج والنعم فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك: [٢ :٢١٣] ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ انتهى.

قال: ومن أركان المحاسبة ما ذكره صاحب المنازل فقال: (الثالث أن تعرف أن كل طاعة رضيتَها منك فهي عليك. وكل معصية عيّرت بها أخاك فهي إليك).

رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه وجهله بحقوق العبودية وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به وحاصل ذلك أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به يتولد منهما رضاه بطاعته وإحسان ظنه بها ويتولد من ذلك من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف ونحوها فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها. وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات وهو أجل المواقف وأفضلها فقال: [٢ :١٩٨ - ١٩٩] **﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾** وقال تعالى: [٣ :١٧] **﴿والمستغفرين بالأسحار﴾** قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً ثم قال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها وقضاء فرض الحج واقتراب أجله فقال في آخر سورة أنزلت عليه: **﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾** ومن ههنا فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهم أن هذا أجل رسول الله ﷺ أعلمه به فأمره

أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه فكأنه إعلام بأنـك قد أديت مـا عليك ولم يبق عليك شيء فاجعل خاتمته الاستغفار كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيـام الليل وخاتمة الوضوء أيضاً أن يقول بعد فراغه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلـه إلا أنت أستغفرك وأتـوب إليك اللهم اجعلني من التـوابين واجعلني من المتـطهرين فهـذا شأن من عـرف مـا ينبغي لله ويليق بجـلالـه من حقـوق العبودية وشرائطها لا جهلُ أصحاب الدعاوي وشطحاتهم.

## فصل

وقوله: (وكل معصية عيَّرت بها أخاك فهي إليك).

يحتمل أن يريد به أنها صائرة إليك ولا بـد أن تعملها وهـذا مأخـوذ من الحديث الذي رواه الترمذي في جـامعه عن النبي ﷺ: «من عيّـر أخاه بـذنب لم يمت حتى يعمله» قـال الإمام أحمـد في تفسير هـذا الحديث من ذنب قـد تاب منه. وأيضاً ففي التعيير ضرب خفي من الشماتة بالمعيّـر. وفي الترمـذي أيضاً مرفوعاً «لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك».

ويحتمل أن يريد أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمـاً من ذنبه وأشـد من معصيته لما فيه من صَولة الطاعة وتزكية النفس وشكرها والمناداة عليها بالبراءة من الـذنب وأن أخاك بـاء به ولعـل كَسْرَتـه بذنبـه ومـا أحـدث لـه من الـذلـة والخضـوع والإزراء على نفسه والتخلص من مـرض الدعـوى والكبر والعجب ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس خاشع الطرف منكسـر القلب أنفع لـه وخير من صولة طـاعتك وتكثـرك بها والاعتـداد بها والمنـة على الله وخلقه بهـا فما أقرب هذا العـاصي من رحمة الله ومـا أقرب هـذا المُدِل من مقت الله فـذنب تذل به لديه أحب إليـه من طاعـة تدل بهـا عليه وإنـك أن تبيت نائمـاً وتصبح نادماً خيـر من أن تبيت قائمـاً وتصبح معجباً فإن المعجب لا يصعـد له عمـل وإنـك أن تضحك وأنت معتـرف خير من أن تبكي وأنت مـدلّ وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجـل المسبحين المدلّين ولعـل الله أسقاه بهـذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر. فلله في أهل طـاعته ومعصيتـه أسرار لا يعلمهـا إلا هو ولا يـطالعها إلا أهـل البصائـر فيعرفـون منها بقـدر ما تنـالـه

معارف البشر ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون وقد قال النبي ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولا يُثرِّبْ» أي لا يعير من قول يوسف عليه السلام لأخوته: [١٢: ٩٢] ﴿**لا تثريب عليكم اليوم**﴾ فإن الميزان بيد الله والحكم لله فالسوط الذي ضُربَ به هذا العاصي بيد مقلب القلوب والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب ولا يأمن كرّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به وأقربه إليه وسيلة: [١٧: ٧٤] ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كدتَ تركَنُ إليهم شيئاً قليلاً**﴾ وقال يوسف الصديق [١٢: ٣٣] ﴿**وإلاَّ تصرف عَنِّي كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين**﴾ وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ: «لا ومقلب القلوب» وقال: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمٰن عز وجل إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يُزيغه أزاغه» ثم قال: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

## فصل

فإذا صح هذا المقام ونزل العبد في هذه المنزلة أشرف منها على مقام التوبة لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الممات ومنزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به فالتوبة هي بداية العبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك وقد قال الله تعالى: [٢٤: ٣١] ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾ وهذه الآية في سورة مدنية وخاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه وأتى بأداة لعلَّ المشعرة بالترجي إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم. قال تعالى: [٤٩: ١١] ﴿**ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾ قسم العباد إلى تائب وظالم وما ثَمَّ قِسم ثالث ألبتة وأوقع اسم الظالم على من لم يَتُبْ ولا

أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ إلى آخرها إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» وصح عنه ﷺ أنه قال: «لن يُنْجِيَ أحداً منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» فصلوات الله وسلامه على أعظم الخلق بالله وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

## فصل

ولما كانت التوبة هي رجوع العبد إلى الله ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام وتضمنتها أبلغ تضمن فمن أعطى الفاتحة حقها علماً وشهوداً وحالاً ومعرفة علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ولا مع الإصرار عليها فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى والثاني غيٌّ ينافي قصده وإرادته فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب والاعتراف به وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً انتهى.

قال: فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان أن يكلك الله إلى نفسك ويخلي بينك وبينها. والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك وله سبحانه في هذه التخلية بينك وبين الذنب وخذلانك متى واقَعْتَه حكم وأسرار سنذكر بعضها.

قوله: «وفرحك عند الظفر به» الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها. والجهل بقدر من عصاه والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها. ففرحه بها

غطَّى عليه ذلك كله وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها. والمؤمن لا تتم له لذّة بمعصية أبداً ولا يكمل بها فرحه بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ولكن سُكر الشهوة يَحجبه عن الشعور به ومتى خَلِيَ قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه وليَبْكِ على موت قلبه فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه ولا يحس القلب بذلك فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام وهذه النكتة في الذنب قلّ من يهتدي إليها أو ينتبه لها وهي موضع مخوف جداً مترام إلى الهلاك إن لم يُتدارك بثلاثة أشياء خوف من الموافاة عليه قبل التوبة. وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره. وتشمير للجد في استدراكه.

قوله: (وقعودك على الإصرار عن تداركه).

الإصرار هو الاستقرار على المخالفة والعزم على المعاودة وذلك ذنب آخر لعله أعظم من الذنب الأول بكثير وهذا من عقوبة الذنب أنه يوجب ذنباً أكبر منه. ثم الثاني كذلك. ثم الثالث ذلك. حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار على المعصية معصية أخرى والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها وطمأنينة إليها وذلك علامة الهلاك. وأشد من هذا كله المجاهرة بالذنب مع تيقن نظرالرب جل جلاله من فوق عرشه إليه فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر. وانسلاخ من الإسلام بالكلية فهو دائر بين الأمرين بين قلة الحياء ومجاهرة نظر الله إليه وبين الكفر والانسلاخ من الدين فلذلك يشترط في صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظراً. ولا يزال. إليه مطلعاً عليه يراه جهرة عند مواقعة الذنب لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم إلا أن يكون كافراً بنظر الله إليه جاحداً له فتوبته دخوله في الإسلام وإقراره بصفات الرب جل جلاله.

قال: (وشرائط التوبة ثلاثة الندم والإقلاع والاعتذار).

فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي والإقلاع عنه في الحال والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم. فحينئذ يرجع إلى

العبودية التي خلق لها وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له فأما الندم فإنه لا تتحقق التوبة إلا به إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه وفي المسند (الندم توبة) وأما الإقلاع فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب. وأما الاعتذار ففيه إشكال فإن من الناس من يقول من تمام التوبة ترك الاعتذار فإن الاعتذار محاجة عن الجناية. وترك الاعتذار اعتراف بها ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف. فتمام الاعتراف ترك الاعتذار بأن يكون في قلبه ولسانه اللهم لا براءة لي من ذنب فأعتذر ولا قوة لي فأنتصر ولكني مذنب مستغفر اللهم لا عذر لي وإنما هو محض حقك ومحض جنايتي فإن عفوت وإلا فالحق لك.

وأما الاعتذار بالقدر فهو مخاصمة لله واحتجاج من العبد على الرب وحمل لذنبه على الأقدار وهذا فعل خصماء الله. انتهى.

قال صاحب المنازل: (وحقائق التوبة ثلاثة أشياء تعظيم الجناية واتهام التوبة وطلب أعذار الخليقة).

يريد بالحقائق ما يتحقق به الشيء وتتبين به صحته وثبوته كما قال النبي ﷺ لحارثة: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك» فأما تعظيم الجناية فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها فإن من استهان بإضاعة فلس، مثلاً، لم يندم على إضاعته فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه وعظمت إضاعته عنده. وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الأمر. وتعظيم الآمر. والتصديق بالجزاء.

وأما اتهام التوبة فلأنها حق عليه لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه الذي ينبغي له أن يؤديه عليه فيخاف أن ما وفاها حقها وأنها لم تقبل منه وأنه لم يبذل جهده في صحتها وأنها توبة عِلّة وهو لا يشعر بها كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس. أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال لا خوفاً من ذي الجلال أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد في تحصيل الذنب أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه أو لضعف داعي المعصية في قلبه وخمود نار شهوته أو لمنافاة

المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفاً من الله وتعظيماً له ولحرماته وإجلالاً له وخشية من سقوط المنزلة عنده وعن البعد والطرد عنه والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة فهذه التوبة لون وتوبة أصحاب العلل لون. ومن اتهام التوبة أيضاً ضعف العزيمة والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة وتذكر حلاوة مواقعته فربما تنفس وربما هاج هائجه. ومن اتهام التوبة طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب حتى كأنه قد أُعطي منشوراً بالأمان فهذا من علامات التهمة. ومن علاماتها جمود العين واستمرار الغفلة وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات. منها أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه [٤١ : ٣٠] ﴿**أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ فهناك يزول الخوف ومنها انخلاع قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً وهذا على قدر عظيم الجناية وصغرها وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: [٩: ١١٠] ﴿**لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم**﴾ قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه وهذا هو تقطعه وهذا حقيقة التوبة لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفاً من سوء عاقبته فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرّط حسرة وخوفاً تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد وإنما هي أمر وراء هذا كله تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة قد أحاطت به من جميع جهاته وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً كحال عبد جَان آبق من سيده فأخذ فأحضر بين يديه ولم يجد من ينجيه من سطوته ولم يجد منه بداً ولا عنه غناء ولا منه مهرباً وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه

ونجاحه في رضاه عنه وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده وذله وعز سيده. فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه وما أعظم جبره بها وما أقربه بها من سيده فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له فللّه ما أحلى قوله في هذه الحال أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني. أسألك بقوتك وضعفي وبغناك عني وفقري إليك هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك. عَبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك لا ملجأ ولا منجَى منك إلا إليك أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير سؤال من خضعت لك رقبته ورغمَ لك أنفه وفاضت لك عيناه وذلّ لك قلبه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة وما أسهلها باللسان والدعوى وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم وصولة طاعتهم ومنتهم على الخلق بلسان الحال واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعتهم اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ليكسر بها نفسه ويعرفه قدره ويذله بها ويخرج بها صَولة الطاعة من قلبه فهي رحمة في حقه كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح وإقبال بقلوبهم إليه فهو رحمة في حقهم وإلا فكلاهما على خطر. انتهى.

# فصل

قال صاحب المنازل: (ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء: أولها أن ينظر الجناية والقضية فيعرف مراد الله فيها. إذ خَلاَّك وإتيانها. فإن الله عز وجل إنما خلّى العبد والذنب لأجل معنيين أحدهما أن يعرف عِزّته في قضائه. وبرّه في ستره وحلمه في إمهال راكبه وكرمه في قبول العذر منه وفضله في مغفرته. الثاني: أن يقيم على عبده حجة عدله فيعاقبه على ذنبه بحجته).

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة والإقرار على نفسه بالذنب. الثاني أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيحدث له ذلك خوفاً وخشية تحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنه لو شاء لعصمه منها فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته ومغفرته وعفوه وحلمه وكرمه وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها ألبتة ويعلم ارتباط الخلق والأمر والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته وأن ذلك موجب الأسماء والصفات وأثرها في الوجود وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه متعلق به لا بد منه.

وهذا المشهد يُطْلِعه على رياض مونقة من المعارف والإيمان وأسرار القدر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم فمن بعضها ما ذكره الشيخ (أن يعرف العبد عزته في قضائه) وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه بأن قلّب قلبه وصرّف إرادته على ما يشاء وحال بين العبد وقلبه وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم وهذا من كمال العزة إذ لا يقدر على ذلك إلا الله وغاية المخلوق أن يتصرف في بدنك وظاهرك وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه وتمكن شهوده منه كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له لأنه يصير مع

الله لا مع نفسه. ومن معرفة عزته في قضائه أن يعرف أنه مدَبَّر مقهور ناصيته بيد غيره لا عصمة له إلا بعصمته ولا توفيق له إلا بمعونته فهو ذليل حقير في قبضة عزيز حميد. ومن شهود عزته أيضاً في قضائه أن يشهد أن الكمال والحمد والغنى التام والعزة كلها لله وأن العبد نفسَه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ازداد شهوده لعزة الله وكماله وحمده وغناه وكذلك بالعكس فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة. ومنها أن العبد لا يريد معصية مولاه من حيث هي معصية فإذا شهد جريان الحُكم وجعله فاعلاً لما هو غير مختار له مريد بإرادته ومشيئته واختياره فكأنه مختار غير مختار مريد غير مريد شاء غير شاء فهذا يشهد عزة الله وعظمته وكمال قدرته. ومنها أن يعرف برّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه وهذا من كمال بره ومن أسمائه (البَرّ) وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه وكمال فقر العبد إليه فيشتغل بمطالعة هذه المنة ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم فيذهل عن ذكر الخطيئة فيبقى مع الله سبحانه وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته وشهود ذل معصيته فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه هو المطلب الأعلى والمقصد الأسنى ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقاً بل في هذه الحال فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة وذكر الجناية ولكل وقت ومقام عبودية تليق به. ومنها أن أسماءه الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها فاسم السميع البصير يقتضي مسموعاً ومبصراً واسم الرزاق يقتضي مرزوقاً واسم الرحيم يقتضي مرحوماً وكذلك أسماء الغفور والعفو والتواب والحليم يقتضي من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه ويحلم. ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال ونعوت جلال وأفعال حكمة وإحسان وجود فلا بد من ظهور آثارها في العالم وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم» وأنت إذا فرضت الحيوان بجملته معدوماً فمن يرزق الرزاق سبحانه وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم فلمن يغفر وعمن

يعفو وعلى من يتوب ويحلم وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدّت والعبيد أغنياء معـافون فـأين السؤال والتضـرع والابتهـال والإجـابـة وشهـود الفضـل والمنـة والتخصيص بـالإنعام والإكـرام. فسبحان من تعـرف إلى خلقه بجميـع أنـواع التعرفات ودلّهم عليه بأنواع الدلالات وفتح لهم إليه جميع الطرقـات ثم نصب إليه الصراط المستقيم وعرفهم به ودلّهم عليه [٨: ٤٢] **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾**.

## فصل

ومنها السر الأعظم الذي لا تقتحمه العبارة ولا تجسـر عليه الإشـارة ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد بل شهدته قلوب خواص العباد فازدادت به معرفة لربها ومحبة له وطمأنينة به وشوقاً إليه ولهجاً بذكـره وشهوداً لبره ولطفه وكرمه وإحسانه ومطالعة لسر العبـودية وإشـرافاً على حقيقـة الإلهية وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «لله أفرح بتـوبة عبـده حين يتوب إليـه من أحدكم كـان على راحلة بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامـه وشرابـه فأيس منهـا فأتى شجـرة فاضطجع في ظلها قد يئس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنـده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح» هذا لفظ مسلم.

وفي الحديث من قواعد العلم أن اللفظ الذي يجـري على لسان العبـد خطأ من فرح شديد أو غيظ شديد ونحوه لا يؤاخذ به ولهذا لم يكن هذا كافراً بقوله: (أنت عبدي وأنا ربك).

ومعلوم أن تأثير الغضب في عدم القصد يصل إلى هذه الحـال أو أعظم منها فلا ينبغي مؤاخذة الغضبان بمـا صدر منـه في حال شـدة غضبه من نحـو هذا الكلام ولا يقع طلاقه بذلـك ولا رِدته وقـد نص الإمام أحمـد على تفسير الإغلاق في قوله ﷺ: «لا طلاق في إغلاق» بأنه الغضب وفسره به غير واحـد من الأئمة. وفسروه بالإكراه والجنون.

قال شيخنا: وهو يعم هذا كله وهو من الغَلَق لانغلاق قصد المتكلم عليه

فكأنه لم ينفتح قلبه لمعنى ما قاله. والقصد أن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته وما يليق بعز جلاله وقد كان الأولى بنا طي الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم ونهاية أقدامهم من المعرفة وضعف عقولهم عن احتماله. غير أنا نعلم أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تجارها ومن هو عارف بقدرها وإن وقعت في الطريق بيد من ليس عارفاً بها فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. انتهى.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين أنه حصل له شرود وإباق من سيده فرأى في بعض السكك باباً قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي وأمه خلفه تطرده حتى خرج فأغلقت الباب في وجهه ودخلت فذهب غير بعيد ثم وقف مفكراً فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه ولا من يؤيه غير والدته فرجع مكسور القلب حزيناً فوجد الباب مرتجاً فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام فخرجت أمه فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه والتزمته تقبله وتبكي وتقول: ياولدي أين تذهب عني ومن يؤيك سواي ألم أقل لك لا تخالفني ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادتي الخير لك ثم أخذته ودخلت. فتأمل قول الأم لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة. وتأمل قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها» وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء.

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى من صرف تلك الرحمة عنه فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة بعد اليأس منها ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة وتدق عن إدراكه الأذهان. انتهى.

## فصل

قوله: (الثاني أن يقيم على عبده حجة عدله فيعاقبه على ذنبه بحجته)

اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان أطاع أم عصى فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وبلوغ ذلك إليه وتمكنه من العلم به سواء علم أو جهل فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه فقصر عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه قال الله تعالى: [١٧ : ١٥] ﴿**وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ وقال: [٦٧ : ٨ و٩] ﴿**كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير. قالوا بلى قد جاءنا فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء**﴾ وقال: [١١ :١١٧] ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾ وفي الآية قولان: أحدهما ما كان ليهلكها بظلم منهم الثاني ما كان ليهلكها بظلم منه. والمعنى على القول الأول ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم وهم مصلحون الآن أي إنهم بعد أن أصلحوا وتابوا لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم. وعلى القول الثاني إن لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون وإنما أهلكهم وهم ظالمون فهم الظالمون لمخالفتهم وهو العادل في إهلاكهم. انتهى.

## فصل

قد ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهي. ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محل الجناية ومصدرها وهو النفس الأمارة بالسوء ويفيده نظره إليها أموراً. منها أن يعرف أنها جاهلة ظالمة وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح وَمَنْ وصفهُ الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله ألبتة فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيه شرها وأن يؤتيها تقواها ويزكيها فهو خير من زكاها فإنه ربها ومولاها وأن لا يَكِلَه إليها طرفة عين فإنه إن وكَلَه إليها هلك فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه. وقال النبي

ﷺ لحصين بن المنـذر: «قـل اللهم ألهمني رُشْـدِي وقني شـر نفسي» وفي خطبة الحاجة «الحمد لله نحمده ونستعينـه ونستهديـه ونستغفره ونعـوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا» وقد قال تعالى: [٦٤: ١٧] ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ وقال: [١٢: ٥٣] ﴿**إن النفس لأمارة بالسوء**﴾.

فمن عرف حقيقة نفسـه وما طبعت عليـه علم أنها مَنْبع كل شـر ومأوى كل سوء وأن كل خير فيهـا ففضل من الله مَنَّ بـه عليها لم يكن منهـا كما قـال تعـالى: [٢٤: ٢١] ﴿**ولولا فضـل الله عليكم ورحمته مـا زكى منكم من أحد أبـداً**﴾ وقـال تعـالى: [٤٩: ٧] ﴿**ولكن الله حبب إليكم الإيمـان وزيّنـه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسـوق والعصيان أولئـك هم الراشـدون**﴾ فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها ولكن هـو الله الذي منّ بهمـا فجعل العبد بسببهمـا من الراشـدين ﴿**فضلاً من الله ونعمـة والله عليم حكيم**﴾ عليم بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه ويثمر عنده حكيم فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

ومنها ما ذكره صاحب المنـازل فقال: (اللطيفـة الثانيـة أن يعلم أن نظر البصير الصادق في سيئته لم يبق له حسنة بحال لأنـه يسير بين مشـاهدة المِنَّـة وتطلب عيب النفس والعمل).

يريد أن من له بصيرة بنفسه وبصيرة بحقوق الله وهو صادق في طلبه لم يبقِ له نظره في سيئاته حسنة ألبتة فـلا يلقى الله إلا بالإفـلاس المحض والفقر الصرف لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله وأن تلك البضاعة لا تشترى بها النجاة من عذاب الله فضلاً عن الفوز بعظيم ثواب الله فإن خلص له عملٌ وحال مع الله وصفا له معه وقت شاهد منة الله عليه بـه ومجرد فضله وأنه ليس من نفسه ولا هي أهل لذاك فهو دائماً مشاهـد لمنة الله عليه ولعيوب نفسه وعمله لأنه متى تطلبها رآها وهذا من أجـلّ أنواع المعـارف وأنفعهـا للعبد ولـذلك كـان سيـد الاستغفـار (اللهم أنت ربي لا إلـه إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استـطعت أعوذ بـك من شر مـا صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بـذنبي فاغفـر لي إنه لا يغفـر الذنـوب إلا أنت). فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلهيته وتـوحيده

والاعتـراف بأنـه خالقـه العالم بـه إذ أنشأه نشـأة تستلزم عجـزه عن أداء حقـه وتقصيره فيه والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته لا مهرب له منه ولا وليَّ له سواه ثم التزام الدخول تحت عهده وهو أمره ونهيه الذي عهده إليه على لسان رسوله وأن ذلك بحسب استطاعتي. لا بحسب أداء حقك فإنه غير مقدور للبشر وإنما هو جهد المقل وقدر الطاقة ومع ذلـك فأنـا مصدق بـوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بـالثواب ولأهـل معصيتك بـالعقاب فـأنا مقيم على عهـدك مصدق بـوعدك. ثم افـزع إلى الاستعاذة والاعتصـام بـك من شـر مـا فـرطت فيه من أمـرك ونهيك فـإنـك إن لم تعـذني من شـره وإلا أحـاطت بي الهلكة فإن إضاعة حقك سبب الهلاك وأنـا أقر لـك وألتَزِم بنعمتـك عليّ وأقر وألتزم وأبْخَعُ بـذنبي فمنك النعمـة والإحسان والفضـل ومني الذنب والإسـاءة فأسألـك أن تغفر لي بمحـو ذنبي وأن تعفيني من شره إنـه لا يغفر الـذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار وهو متضمن لمحض العبودية فأي حسنة تبقى للبصير الصادق مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ومنة الله عليه فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه.

## فصل

النـظر الرابـع نظره إلى الآمـر به بـالمعصية المـزين لـه فعلهـا الحـاضّ لـه عليها وهو شيطانه الموكل به فيفيده النظر إليه وملاحظته اتخاذَه عـدواً. وكمال الاحتراز منه. والتحفظ واليقظة والانتباه لما يريد منه عـدوه وهو لا يشعـر فإنـه يريد أن يظفر بـه في عَقَبة من سبـع عقبات بعضهـا أصعب من بعض لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبَة الأولى، عَقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه وبصفات كماله وبما أخبرت به رسله عنه فـإنه إن ظفـر به في هـذه العقبة بـردت نار عـداوته واستـراح فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية وسلم معه نـور الإيمان طلبـه على العقبة الثانية وهي عقبة البـدعة إمـا باعتقـاد خلاف الحق الـذي أرسل الله بـه رسله وأنزل به كتبـه وإما بـالتعبد بمـا لم يأذن بـه الله؛ من الأوضاع والـرسوم

المحدثة في الدين التي لا يقبل الله منها شيئاً والبدعتان في الغالب متلازمتان قلّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى كما قال بعضهم: تزوجت بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال فاشتغل الزوجان بالعرس فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيشون في بلاد الإسلام تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى. وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة فتولّد بينهما خسران الدنيا والآخرة. فإن قطع هذه العقبة وخلص منها بنور السنة واعتصم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب فإن سمحت به نَصَب له أهل البدع الحبائل وبغوه الغوائل وقالوا: مبتدع محدث. فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على:

العقبة الثالثة وهي عقبة الكبائر فإن ظفر به فيها زيّنها له وحسنها في عينه وسوّف به وفتح له باب الإرجاء وقال له: الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال[1] وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق وهي قوله: لا يَضُرُّ مع التوحيد ذنب. كما لا ينفع مع الشرك حسنه والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين ودفعها لما بعث الله به رسوله وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها بل يدعو الخلق إليها ولتضمنها القول على الله بلا علم. ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها والاجتهاد على إطفاء نور السنة وتولية من عَزَله الله ورسوله وعزل من ولّاه الله ورسوله واعتبار ما رده الله ورسوله ورد ما اعتبره. وموالاة من عاداه ومعاداة من والاه وإثبات ما نفاه ونفي ما أثبته وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب ومعارضة الحق بالباطل وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقاً والإلحاد في دين الله وتعمية الحق على القلوب وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم وفتح باب تبديل الدين جملة فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتى ينسلخ صاحبها من الدين كما تنسل الشعرة من العجين فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر

(١) يعني أعمال الفسوق والعصيان والمعنى المراد أن الشيطان يقول له عند فتح باب الإرجاء إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي وهذا وما بعده هو معنى الإرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين.

والعميان ضالون في ظلمة العمى [٢٤ : ٤٠] **﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾** فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله أو بتوبة نصوح تنجيه منها طلبه على :

العقبة الرابعة : وهي عقبة الصغائر فكال له منها بالقُفْزان وقال ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم أَوَ ما علمت بأنها تكفّر باجتناب الكبائر وبالحسنات ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصرّ عليها فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه فالإصرار على الذنب أقبح منه . ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار وقد قال ﷺ : «إياكم ومحقرات الذنوب» ثم ضرب لذلك مثلاً بقوم نزلوا بفلاة من الأرض فأعوزهم الحطب فجعل هذا يجيء بعود وهذا بعود حتى جمعوا حطباً كثيراً فأوقدوا ناراً وأنضجوا خبزتهم فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه . فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ودوام التوبة والاستغفار واتبع السيئة الحسنة طلبه على :

العقبة الخامسة : وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات وأقل ما ينال منه تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئاً من القربات ولكنه جاهل بالسعر فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هادٍ ومعرفةٍ بقدر الطاعات والاستكثار منها وقلة المقام على الميناء وخطر التجارة وكرم المشتري وقدر ما يعوض به التجار فبخل بأوقاته وضن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح طلبه العدو على :

العقبة السادسة : وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات فأمره بها وحسنها في عينه وزينها له وأراه ما فيها من الفضل والربح ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم كسباً وربحاً لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسيره كماله وفضله ودرجاته العالية فشغله بالمفضول عن الفاضل . وبالمرجوح عن الراجح وبالمحبوب لله عن الأحب إليه وبالمرضي عن الأرضى له . ولكن أين أصحاب هذه العقبة فهم الأفراد في العالم والأكثرون

قد ظفر بهم في العقبات الأول. فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله ومنازلها في الفضل ومعرفة مقاديرها والتمييز بين عاليها وسافلها ومفضولها وفاضلها ورئيسها ومرؤوسها وسيدها ومسودها فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً ورئيساً ومرؤوساً وذروة وما دونها كما في الحديث الصحيح سيد الاستغفار أن يقول العبد (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت) الحديث وفي الحديث الآخر: (الجهاد ذروة سنام الأمر) وفي الأثر الآخر (إن الأعمال تفاخرت فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن) ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم السائرين على جادة التوفيق قد أنزلوا الأعمال منازلها وأعطوا كل ذي حق حقه. فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى باليد واللسان والقلب على حسب مرتبته في الخير فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله وظاهر عليه بجنده وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منهما فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام له بأمره جد العدو في إغراء السفهاء به فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب وأخذ في محاربة العدو لله وبالله فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين وهي تسمى عبودية المراغمة ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه أحدها قوله: [٤ : ١٠٠] **﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة﴾** سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته كما قال تعالى :[٩ : ١٢٠] **﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يَطَئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** وقال تعالى في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: [٤٨ : ٢٩] **﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾** فمغايظة

الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له فموافقته فيها من كمال العبودية وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين وقال: «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان» وفي رواية «ترغيماً للشيطان» وسماهما المرغمتين. فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين والخيلاء والتبختر عند صدقة السر حيث لا يراه إلا الله لما في ذلك من إرغام العدو وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ولاحظه في الذنب راغمه بالتوبة النصوح فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله. انتهى.

قيل لبعض الأعراب وقد أسلم لما عرف دعوته ﷺ عن أي شيء أسلمت وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله قال: ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به. ولا أحل شيئاً فقال العقل ليته حرمه. ولا حرم شيئاً فقال العقل ليته أباحه. فانظر إلى هذا الأعرابي وصحة عقله وفطرته وقوة إيمانه واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه ولو كان جهة الحسن والقبح والطيب والخبث مجرد تعلق الأمر والنهي والإباحة والتحريم به لم يحسن منه هذا الجواب ولكان بمنزلة أن يقول وجدته يأمر وينهى ويبيح ويحرم وأي دليل في هذا. انتهى.

قوله تعالى: [٣٩: ٢٩] **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾** احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئوا الملكة وحال عبد يملكه سيد واحد قد سَلِمَ كله له فهل يصح في العقول استواء حال العبدين فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإله الحق لا يستويان وكذلك قوله تعالى ممثلاً لقبح

الرياء المبطل للعمل والمنّ والأذى المبطل للصدقات بـ «صفوان» وهو الحجر الأملس «عليه تراب» غبار قد لصق به «فأصابه وابل» مطر شديد فأزال ما عليه من التراب «فتركه صلداً» أملس لا شيء عليه وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه فـ «الصفوان» وهو الحجر كقلب المرائي والمانّ والمؤذي و«التراب» الذي لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدقته و«الوابل» المطر الذي به حياة الأرض فإذا صادفها لينة قابلة نبت فيها الكلأ وإذا صادف الصخور والحجارة الصمّ لم ينبت فيها شيئاً فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر فصادفه رقيقاً فأزاله فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات وهذا يدل على أن قبح المنّ والأذى والرياء مستقر في العقول فلذلك نبهها على شَبهه ومثاله. وعكس ذلك قوله تعالى: [٢ : ٦٥] **﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ والله بما تعملون بصير﴾** فإن كانت هذه الجنة التي بموضع عال حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح وقد أصابها مطر شديد فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يخرج غيرها إن كانت مستحسنة في العقل والحس فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله لا لجزاء من الخلق ولا لشكور بل بثبات من نفسه وقوة على الإنفاق لا يخرج النفقة وقلبه يرجف على خروجها ويداه ترتعشان ويضعف قلبه ويخور عند الإنفاق بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة. ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت كمثل الوابل ومثل نفقة الآخر كمثل الطل وهو المطر الضعيف فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه أفلا تراه سبحانه نَبَّه العقول على ما فيها من استحسان هذا واستقباح فعل الأول. وكذلك قوله تعالى: [٢ : ٢٦٦] **﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنةَ من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾** فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة التي تحبط ثواب الحسنات وشبهها بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء بحيث يخشى عليهم الضيعة وعلى نفسه وله بستان هو مادة عيشه

وعيش ذريته فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات فأرجى وأفقر ما هو له. وأشر ما كان به إذ أصابه نار شديدة فأحرقته فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال وبهذا فسرها عمر وابن عباس رضي الله عنهم؛ لرجل غني عمل بطاعة الله زماناً فبعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله ذكره البخاري في صحيحه انتهى.

قال: والناس في الأسباب والقوى والطبائع ثلاثة أقسام منهم من بالغ في نفيها وإنكارها فأضحك العقلاء على عقله وزعم أنه بذلك ينصر الشرع فجنى على العقل والشرع وسلط خصمه عليه.

ومنهم من ربط العالم العلوي والسفلي بها بدون ارتباطها بمشيئة فاعل مختار ومدبر لها يصرفها كيف أراد فيسلب قوة هذا ويقيم لقوة هذا قوة تعارضه ويكف قوة هذا عن التأثير مع بقائها ويتصرف فيها كما يشاء ويختار وهذان طرفان جائران عن الصواب.

ومنهم من أثبتها خلقاً وأمراً قدراً وشرعاً وأنزلها بالمحل الذي أنزلها الله به من كونها تحت تدبيره ومشيئته وهي طوع المشيئة والإرادة ومحل جريان حكمها عليها فيقوِّي سبحانه بعضها ببعض ويبطل إن شاء بعضها ببعض ويسلب بعضها قوته وسببيته ويعريها منها ويمنعه من موجبها مع بقائها عليه ليعلم خلقه أنه الفعال لما يريد وأنه لا مستقل بالفعل والتأثير غير مشيئته وأن التعلق بالسبب دونه كالتعلق ببيت العنكبوت مع كونه سبباً وهذا باب عظيم نافع في التوحيد وإثبات الحِكَم يوجب للعبد إذا تبصر فيه الصعود من الأسباب إلى مسببها والتعلق به دونها وأنها لا تضر ولا تنفع إلا بإذنه وأنه إذا شاء جعل نافعها ضاراً وضارها نافعاً ودواءها داء وداءها دواء فالالتفات إليها بالكلية شرك مناف للتوحيد وإنكار أن تكون أسباباً بالكلية قدح في الشرع والحكمة والإعراض عنها مع العلم بكونها أسباباً نقصان في العقل. وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض وتسليط بعضها على بعض وشهود الجمع في تفرقها والقيام بها هو محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة والله أعلم. انتهى.

قال: ولا ريب أن من أظهر الاستغناء عن الله وطاعاته وتوثب عليه وأورثته الطاعات جبروتاً وحجباً عن رؤيته عيوب نفسه وعمله وكثّرت حسناته في عينه فهو أبغض الخلق إلى الله تعالى وأبعدهم عن العبودية وأقربهم إلى الهلاك. لا من استكثر من الباقيات الصالحات ومن مثل ما وصى به النبي ﷺ من سأله مرافقته في الجنة فقال: «أعنّي على نفسك بكثرة السجود» ومن قوله تعالى: [٥١: ١٧ و١٨] ﴿**كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون**﴾ قال الحسن: مدّوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون. وقال النبي ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكِيرُ خبث الحديد» وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبث به: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» والدين كله استكثار من الطاعات وأحب خلق الله إليه أعظمهم استكثاراً منها وفي الحديث الصحيح الإلهي: (ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه» فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته. وقال ﷺ لآخر: «عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطَّ عنك بها خطيئة» انتهى.

## فصل

قال: (وتوبة الأوساط من استقلال العبد المعصية وهو عين الجرأة والمبارزة).

يريد أن استقلال المعصية ذنب. كما أن استكثار الطاعة ذنب والعارف من صغرت حسناته في عينه وعظمت ذنوبه عنده وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلّت وصغرت عند الله وسيئاتك بالعكس ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية تلاشت حسناته عنده وصغرت جداً في عينه وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه

وأن الـذي يليق بعزتـه ويصلح له من العبـودية أمـر آخر. وكلمـا استكثر منهـا استقلهـا واستصغرهـا لأنه كلمـا استكثر منهـا فتحت له أبـواب المعرفـة بـالله والقرب منه فشاهد قلبـه من عظمتـه سبحانـه وجلالـه ما يستصغـر معه جميـع أعمـاله ولـو كانت أعمـال الثقلين وإذا كثرت في عينـه وعـظمت دلّ على أنـه محجوب عن الله غير عارف به ومما ينبغي له وبحسب هـذه المعرفـة ومعرفتـه بنفسه يستكثر ذنوبه وتعـظم في عينه لمشـاهدتـه الحق ومستحقه وتقصيـره في القيام به وإيقاعه على الوجه الـلائق الموافق لمـا يحبه الـرب ويرضـاه من كل وجـه، إذا عرف هـذا فاستقـلال العبد المعصيـة عين الجرأة على الله وجهـل بقـدر من عصاه وبقـدر حقـه وإنمـا كـان مبـارزة لأنـه إذا استصغـر المعصيـة واستقلها هان عليه أمرها وخفت على قلبه وذلك نوع مبارزة انتهى.

## فصل

قال: (وتوبة الخواص من تضييع الوقت).

ليس مـراده بتضييع الـوقت إضـاعتـه في الاشتغـال بمعصيـة أو لغـو أو الإعـراض عن واجبه وفـرضه فـإنهم لو أضـاعوه بهـذا المعنى لم يكـونـوا من الخواص. وربما يمـر بك إشبـاع القول في الـوقت والفرق بين الصحيـح منه والفاسد فيما بعد إن شاء الله تعالى والقصد أن إضاعة الوقت الصحيـح يدعـو إلى درك النقيصة إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال فإذا أضاعـه لم يقف موضعه بل ينزل إلى درجات من النقص فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد فالعبد سـائر لا واقف فإما إلى فوق وإمـا إلى أسفل إمـا إلى أمام وإمـا إلى وراء وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف ألبتة ما هو إلا مراحل تطوى أسـرع طيّ إلى الجنة أو إلى النـار فمسرع ومبـطىء ومتقدم ومتـأخر وليس في الـطريق واقف ألبتة وإنمـا يتخـالفـون في جهـة السيـر وفي السـرعــة والبطء **﴿إنها لإحدى الكبر. نذيراً للبشر. لمن شـاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾** [٧٤: ٣٥ - ٣٧] ولـم يذكر واقفاً إذ منزل بين الجنة والنار ولا طريق لسالـك إلى غير الدارين ألبتة فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصـالحة فهـو متأخـر إلى تلك بالأعمال السيئـة فإن قلت كـل مجد في طلب شيء لا بـد أن يعرض لـه وقفة

وفتور ثم ينهض إلى طلبه. قلتُ لا بد من ذلك ولكن صاحب الوقفة له حالان إما أن يقف ليجِمّ نفسه ويعدها للسير فهذا وقفته سير ولا تضره الوقفة فإن (لكل عمل شرّة ولكل شرّة فترة) وإما أن يقفو لداع دعاه من ورائه وجاذب جذبه من خلفه فإن أجابه أخره ولا بد. فإن تداركه الله برحمته وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع ووثب وجمز واشتد سعياً ليلحق الركب وإن استمر مع داعي التأخر وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة وإجابة داعي الهوى حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركاً وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض فإنها أخطر منه وأصعب وبالجملة فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه وتخليصه وإلا فهو في تأخر إلى الممات راجع القهقرى ناكص على عقبيه أو مول ظهره ولا قوة إلا بالله والمعصوم من عصمه الله.

وقوله (ويطفىء نور المراقبة) يعني أن المراقبة تعطي نوراً كاشفاً لحقائق المعرفة والعبودية: وإضاعة الوقت تغطي ذلك النور وتكدر عين الصحبة مع الله فإن صاحب الوقت مع صحبة الله وله مع الله معية خاصة بحسب حفظه وقته مع الله فإن كان مع الله كان الله معه فإذا أضاع وقته كدّر عين هذه المعية الخاصة وتعرض لقطع هذه الصحبة فلا شيء أضر على العارف بالله من إضاعة وقته مع الله ويخشى عليه إن لم يتداركه بالرجوع أن تستمر الإضاعة إلى يوم القيامة فتكون حسرته وندامته أعظم من حسرة غيره وندامته وحجابه عن الله أشد من حجاب من سواه ويكون حاله شبيهاً بحال قوم يؤمر بهم إلى الجنة حتى إذا عاينوها وشاهدوا ما فيها صرفت وجوههم عنها إلى النار. فإذن توبة الخواص تكون من تضييع أوقاتهم مع الله التي تدعو إلى هذه الأمور. انتهى.

قال: وليس في مجرد الفناء والاستغراق في شهود القيومية وإسقاط الأسباب والعلل والحكم والوسائط كثير علم ولا معرفة ولا عبودية وهل المعرفة كل المعرفة والعبودية إلا شهود الأشياء على ما هي عليه والقرآن كله مملوء من دعاء العباد إلى التفكر في الآيات والنظر في أحوال المخلوقات

ونظر الإنسان في نفسه وتفاصيل أحواله وأخص من ذلك نـظره فيما قـدَّم لغده ومطالعته لنعم الله عليـه بالإيمـان والتوفيق والهـداية وتـذكر ذلـك والتفكر فيـه وحمد الله وشكره عليه وهذا لا يحصل مع الفناء حتى عن رؤية الرؤية وشهـود الشهود ثم إن هذا غيـر ممكن ألبتة فـإنكم إذا جعلتم رؤيته لتـوبته علة يتـوب منها فإن رؤيته لتلك الرؤيـة أيضاً علة تـوجب عليه تـوبة وهلم جـرا فلا ينتهي الأمر إلا بسقوط التميز جملة والسكر والـطمس المنافي للعبـودية. فضـلاً عن أن يكون غاية للعبودية.

فتأمل الآن تفاصيل عبودية الصـلاة كيف لا تتم إلا بشهود فعلك الـذي متى غبت عنه كان ذلـك نقصاً في العبـودية فـإذا قال المصلي (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً) فعبودية هـذا القول أن يشهد وجهـه وهو قصـده وإرادتـه وأن يشهـد حقيقتـه وهي إقبـالـه على الله. ثم إذا قـــال: (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) فعبودية هذا القول أن يشهد الصـلاة والنسك المضـافين إليه لله ولـو غاب عنهمـا كان قـد أضـاف إلى الله بلسانه مـا هو غـائب عن استحضاره بقلبـه فكيف يكون هـذا أكمل وأعلى من حال من استحضر فعله وعبوديته وأضافهما إلى الله وشهد مع ذلك كونهما به. فأين هذا من حال المستغرق الفاني المصطلم الذي قد غاب بمعبوده عن حقه وقد أخذ منه وغيب عنه: نعم غاية هذا أن يكون معـذوراً أما أن يكـون مقامـه أعلى مقام وأجله فكلا.

وكـذلك إذا قـال في قراءتـه ﴿**إياك نعبـد وإياك نستعين**﴾ فعبـودية هـذا القول فهم معنى العبادة والاستعانة واستحضارهما وتخصيصهمـا بالله ونفيهمـا عن غيره فهذا أكمل من قول ذلك بمجرد اللسـان وكذلـك إذا قال في ركـوعه (اللهم لـك ركعت وبك آمنت ولـك أسلمت خشع لـك سمعي وبصير ومخي وعظيم وما استقلت بـه قَدَمي) فكيف يؤدي عبـودية هـذه الكلمات غـائب عن فعله مستغرق في فنائه وهل يبقى غير أصوات جـارية على لسـانه ولـولا العذر لم تكن هذه عبودية. نعم رؤية هذه الأفعال والوقـوف عندهـا والاحتجاب بهـا عن المنعم بهـا الموفق لهـا المانّ بهـا من أعظم العلل القـواطع قـال تعالى: [٤٩: ١٧] ﴿**يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنـوا عليّ إسلامكم بـل الله يمنّ**

**عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾** فالعارف غائب بمنة الله عليه في طاعته مع شهودها ورؤيتها. والجاهل غائب بها عن رؤية منة الله. والفاني غائب باستغراقه في الفناء وشهود القيومية عن شهودها وهو ناقص وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

## فصل

ونذكر نبذاً تتعلق بأحكام التوبة تشتد الحاجة إليها ولا يليق بالعبد جهلها منها أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصى بالتأخير فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى وهي توبته من تأخير التوبة. وَقَلَّ أن تخطر هذه ببال التائب بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم فإنه عاص بترك العلم والعمل فالمعصية في حقه أشد. وفي صحيح ابن حبان أن النبي ﷺ قال: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل» فقال أبو بكر فكيف الخلاص منه يارسول الله؟ قال: «أن تقول اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم» فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ولا يعلمه العبد وفي الصحيح عنه ﷺ أنه كان يدعو في صلاته (اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جِدّي وهزلي وخطأي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت إلٰهي لا إله إلا أنت) وفي الحديث الآخر (اللهم اغفر لي ذنبي كله دِقَّهُ وجِلَّه خطأه وعمده سره وعلانيته أوله وآخره) فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتيَ التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه. انتهى.

إن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة من كثير من الطاعات وهذا معنى قول بعض السلف قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الطاعة فيدخل بها النار قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب

فلا يزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى ذكر ذنبه فيحدث له انكساراً وتوبة واستغفاراً وندماً فيكون ذلك سبب نجاته. ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومنّة فتكون سبب هلاكه فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات ومعاملات قلبية من خوف الله والحياء منه والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً باكياً نادماً مستقيلاً ربه وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة وكبراً وازدراء بالناس ورؤيتهم بعين الاحتقار ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله وأقرب إلى النجاة والفوز، من هذا المعجب بطاعته الصائل بها المانّ بها وبحاله على الله عز وجل وعباده وإن قال بلسانه خلاف ذلك فالله شهيد على ما في قلبه ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ويخضعوا له ويجد في قلبه بُغضة لمن لم يفعل به ذلك ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه ويعرف له حقه متطلباً لعيبه في قالب حمية لله وغضب له وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا فتح له باب المعاذير والرجاء وأغمض عنه عينيه وسمعه وكفّ لسانه وقلبه. وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنب يكسره به ويعرفه قدره ويكفي به عباده شره وينكس به رأسه ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال كما قيل بلسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه.

يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كَيَسِك فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به وأُلبست بها حلة العبودية.

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

يا آدم إنما ابتليتك بالذنب لأني أحب أن أظهر فضلي وجودي وكرمي على من عصاني «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

يا آدم كنت تدخل عليّ دخول الملوك على الملوك واليوم تدخل عليّ دخول العبيد على الملوك.

يا آدم إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب فعلى من أجود بحلمي وعلى من أجود بعفوي ومغفرتي وتوبتي وأنا التواب الرحيم.

يا آدم لا تجزع من قولي لك (اخرج منها) فلك خلقتها ولكن اهبط إلى دار المجاهدة وابذر بذر التقوى وامطر عليه سحائب الجفون فإذا اشتد الحب واستغلظ واستوى على سوقه فتعال فاحصده.

يا آدم ما أهبطتك من الجنة إلا لتوسل إليَّ في الصعود وما أخرجتك منها نفياً لك عنها ما أخرجتك منها إلا لتعود.

يا آدم ذنب تذل به لدينا أحب إلينا من طاعة تُدِلُّ بها علينا.

يا آدم أنين المذنبين أحب إلينا من تسبيح المدّلين (يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك يا بن آدم لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة يا بن آدم إذا آمنت بي ولم تشرك بي شيئاً أقمت حملة عرشي ومَنْ حوله يسبحون بحمدي ويستغفرون لك وأنت على فراشك) وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي) [٣٩ : ٥٣] **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾** (يا عبدي لا تعجز فمنك الدعاء وعليّ الإجابة ومنك الاستغفار وعليّ المغفرة ومنك التوبة وعليّ تبديل سيئاتك حسنات) يوضحه قوله تعالى: [٢٥ : ٧٠] **﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾** وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح وهو حقيقة التوبة قال ابن عباس رضي الله عنهما ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت وفرحه بنزول [٤٨ : ١] **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما**

تأخر﴾ واختلفوا في صفة هذا التبديل وهل هو في الدنيا أو في الآخرة على قولين فقال ابن عباس وأصحابه هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها فبدلهم بالشرك إيماناً وبالزنا عفة وإحصاناً وبالكذب صدقاً وبالخيانة أمانة. فعلى هذا معنى الآية أن صفاتهم القبيحة وأعمالهم السيئة بدلوا عوضها صفات جميلة وأعمالاً صالحة كما يبدل المريض بالمرض صحة والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة انتهى.

فإذاً التوبة هي حقيقة دين الإسلام والدين كله داخل في مسمى التوبة وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهيَ عنه.

فإذاً التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان وتتناول جميع المقامات ولهذا كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر وخاتمته كما تقدم وهي الغاية التي وُجد لأجلها الخلق والأمر والتوحيد جزء منها بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها انتهى.

قال: ولفظ: المغفرة: أكمل من لفظ: التكفير: ولهذا كان مع الكبائر والتكفير مع الصغائر فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ ولفظ التكفير يتضمن الستر والإزالة وعند الإفراد يدخل كل منهما في الآخر كما تقدم فقوله تعالى: ﴿**كفر عنهم سيئاتهم**﴾ يتناول صغائرها وكبائرها ومحوها ووقاية شرها بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال كما قال تعالى: [٣٥ : ٣٠] ﴿**ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا**﴾ وإذا فهم هذا فهم السر في الوعد على المصائب

والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة كقوله في الحديث الصحيح: «ما يصيب المؤمن من همّ ولا غمّ ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه» فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب فهي كالبحر لا يتغير بالجيف. وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث. فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا فإن لم تف بطهرهم طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة. نهر التوبة النصوح. ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها. ونهر المصائب العظيمة المكفرة فإذا أراد الله بعبده خيراً أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة فورد القيامة طيباً طاهراً فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

## فصل

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها وتوبة منه بعدها فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً فتاب العبد فتاب الله عليه ثانياً قبولاً وإثابة قال الله سبحانه وتعالى: [٩: ١١٧ و١١٨] **﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾** فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التي جعلتهم تائبين فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم والحكم ينتفي لانتفاء علته. ونظير هذا هدايته لعبده قبل الاهتداء فيهتدي بهدايته فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته فإن من ثواب الهدى الهدى بعده كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها قال الله تعالى: [٤٧: ١٧] **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾** فهداهم أولاً فاهتدوا فزادهم هدى ثانياً وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى: [٦١: ٥] **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾** فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم. وهذا القدر من سر اسميه: الأول والآخر: فهو

المعد وهو الممد ومنه السبب والمسبب وهـو الذي يعيـذ من نفسه بنفسـه كما قال أعرف الخلق بـه (وأعوذ بـك منك) والعبـد تواب والله تـواب فتوبـة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق. وتوبة الله نوعان إذن وتوفيق وقبول وإمداد.

## فصل

والتـوبة لهـا مبتدأ ومنتهى فمبـدؤهـا الـرجـوع إلى الله بسلوك صـراطـه المستقيم الذي نصبه لعباده موصلاً إلى رضوانه وأمرهم بسلوكه بقولـه تعالى: [٦: ١٥٣] ﴿**وأن هذا صراطي مستقيمـاً فاتبعـوه ولا تتبعوا السبـل**﴾ وبقولـه: [٤٢: ٥٢ و٥٣] ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الـذي له مـا في السموات وما في الأرض**﴾ وبقوله: [٢٢: ٢٤] ﴿**وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد**﴾. ونهايتها الرجوع إليه في المعـاد وسلوك صراطـه الذي نصبه موصلاً إلى جنته فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: [٢٥: ٧١] ﴿**ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً**﴾ قال البغـوي وغيره يتـوب إلى الله متاباً يعود إليه بعـد الموت متـاباً حسنـاً يفضل على غيـره فالتـوبة الأولى وهي قوله: ومن تاب: رجوع عن الشرك والثانية رجوع إلى الله للجزاء والمكافـأة. انتهى.

وأما من قال: (ما يستصغره العباد فهو كبائر وما يستكبرونه فهو صغـائر) فإن أراد أن الفرق راجـع إلى استكبارهم واستصغـارهم فهو بـاطل فـإن العبد يستصغر النظرة ويستكبر الفاحشة. وإن أراد أن استصغارهم للذنب يكبره عند الله واستعظامهم له يصغره عند الله فهذا صحيح فإن العبد كلما صغرت ذنـوبه عنده كبرت عند الله وكلمـا كبرت عنـده صغرت عنـد الله والحديث إنمـا يدل على هذا المعنى فإن الصحـابة لعلو مـرتبتهم عند الله وكمـالهم كانـوا يعدون تلك الأعمال موبقـات: ومن بعدهم لنقصـان مرتبتهم عنهم وتفـاوت ما بينهم صارت تلك الأعمال في أعينهم أدق من الشعر وإذا أردت فهم هذا فانظر هـل كان في الصحابة من إذا سمع نص رسول الله ﷺ عارضـه بقياسـه. أو ذوقه. أو وجده. أو عقله. أو سياسته وهل كان قط أحد منهم يقـدم على نص رسول

الله ﷺ عقلاً أو قياساً أو ذوقاً أو سياسة أو تقليد مقلد فلقد أكرم الله أعينهم وصانها أن تنظر إلى وجه مَنْ هذا حاله أو يكون في زمانهم ولقد حكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه على من قدم حكمه على نص الرسول بالسيف وقال: هذا حكمي فيه فيالله كيف لو رأى ما رأينا وشاهد ما بلينا به من تقديم رأي كل فلان وفلان على قول المعصوم ﷺ ومعاداة من اطرح آراءهم وقدم عليها قول المعصوم فالله المستعان وهو الموعد وإليه المرجع انتهى.

واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله ورجائه لغير الله وحبه لغير الله وذله لغير الله وتوكله على غير الله ما يصير به منغمساً في بحار الشرك والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه إن كان له عقل فإن ذلّ المعصية لا بد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفاً من غير الله وذلك شرك ويورثه محبة لغير الله واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلى غرضه فيكون عمله لا بالله ولا لله وهذا حقيقة الشرك انتهى.

## فصل

وههنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر بل يجعلها في أعلى رتبها وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره انتهى.

وفي المسند عنه ﷺ أنه قال: «إن ما تذكرون من جلال الله من التسبيح والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهن دويّ كدويّ النحل يذكِّرن بصاحبهن أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يذكر به» ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب ووهبت له سيئاته لأجل حسناته ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له ويسامحه ما لا يسامح به المشرك وكلما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله له أتم فمن لقيه لا يشرك به شيئاً ألبتة غفر له ذنوبه كلها كائنة ما كانت ولم يعذب بها. ولسنا نقول أنه لا يدخل النار أحد

من أهل التوحيد بل كثير منهم يدخل بذنوبه ويعذب على مقدار جرمه ثم يخرج منها ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه.

ونريد ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه إعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه فلها نور وتفاوت أهلها في ذلك النور قوة وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس. ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم. وآخر كالسراج المضيء وآخر كالسراج الضعيف ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً ومعرفة وحالاً. وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنباً إلا أحرقه وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشكر بالله شيئاً فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته فلا ينال منها السارق إلا على غرّة وغفلة لا بد منها للبشر فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه أو حصل أضعافه بكسبه فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس ليس كمن فتح لهم خزانته وولّى الباب ظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله وأن الله ربّ كل شيء ومليكه كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل له وكمال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له وإرادة وجهه الأعلى بجيمع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» وقوله: «لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله» وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار وأوّل بعضهم الدخول

بالخلود وقال: المعنى لا يدخلها خالداً ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة.

والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان قط فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار فلا بد من قول القلب وقول اللسان وقول القلب يتضمن من معرفتها والتصديق بها ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات ومعرفة حقيقة الإلّهية المنفية عن غير الله المختصة به التي يستحيل ثبوتها لغيره وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفة ويقيناً وحالاً ما يوجب تحريم قائلها على النار وكل قول رتَّبَ الشارع ما رتب عليه من الثواب فإنما هو القول التام كقوله ﷺ: «من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حُطَّت عنه خطاياه أو غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» وليس هذا مرتباً على مجرد قول اللسان: نعم من قالها بلسانه غافلاً عن معناها معرضاً عن تدبرها ولم يواطىء قلبه لسانه ولا عرف قدرها وحقيقتها راجياً مع ذلك ثوابها حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه. فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب فتكون صورة العملين واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض والرجلان يكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مدُّ البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب. ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه ولكن السر الذي ثقّل بطاقة ذلك الرجل وطاشت لأجله السجلات لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات انفردت بطاقته بالثقل والرزانة. وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى فانظر إلى ذلك من قلبه ملآن بمحبتك وذكر من هو معرض عنك غافل ساه مشغول بغيرك قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك وإيثاره عليك هل يكون ذكرهما واحداً أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة أو عبداك أو زوجتاك عندك سواء. وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره ويعالج سكرات الموت فهذا أمر آخر وإيمان آخر ولا

جرم أن أُلحق بالقرية الصالحة وجُعل من أهلها.

وقريب من هذا ما قام بقلب البَغيّ التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآله وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خُفها ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحَمْلِها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرُّقِيُّ من البئر ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها. فهكذا الأعمال والعمال عند الله والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي الذي وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً والله المستعان. انتهى.

## فصل

وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[1] وقول الرجل للرجل ما شاء الله وشئت وهذا من الله ومنك. وأنا بالله وبك. ومالي إلا الله وأنت. وأنا متوكل على الله وعليك. ولولا أنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له ما شاء الله وشئت: «أجعلتني لله نداً، قل ما شاء الله وحده» وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ فإن شرك من الساجد والمسجود له والعجب أنهم يقولون ليس هذا سجود وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراماً وتواضعاً فيقال لهؤلاء ولو سميتموه ما سميتموه فحقيقة السجود وضع

---

(١) إنما كان الحلف بغير الله شركاً عظيماً لأن حقيقة اليمين ومقتضاه أن الحالف يؤكد صدق خبره بأنه لو كان كاذباً ينتقم منه المحلوف به انتقاماً لا يقدر هو ولا أحد من البشر أن يدفعه لأن المحلوف به يقدر أن يوصل انتقامه وبطشه من طريق فوق قدرة البشر وطاقتهم وهذا لا يكون إلا لله القوي المتين ذو البطش الشديد الفعال لما يريد.

الرأس لمن يسجد له. وكذلك السجود للصنم وللشمس وللنجم وللحجر كله وضع الرأس قدامه. ومن أنواعه ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة وهذا سجود في اللغة وبه فُسر قوله تعالى: [٢ : ٥٨] ﴿**ادخلوا الباب سجداً**﴾ أي مُنْحَنِين وإلا فلا يمكن الدخول بالجبهة على الأرض ومنه قول العرب سجدت الأشجار إذا أمالتها الريح. ومن أنواعه حلق الرأس للشيخ فإن تَعَبُّد لغير الله ولا يتعبد لحلق الرأس إلا في النسك لله خاصة. ومن أنواعه التوبة للشيخ فإنها شرك عظيم فإن التوبة لا تكون إلا لله كالصلاة والصيام والحج والنسك فهي خالص حق الله وفي المسند أن رسول الله ﷺ أتي بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال رسول الله ﷺ: «عرف الحق لأهله» فالتوبة عبادة لا تنبغي إلا لله كالسجود والصيام ومن أنواعه النذر لغير الله فإنه شرك وهو أعظم من الحلف بغير الله فإذا كان (من حلف بغير الله فقد أشرك) فكيف بمن نذر لغير الله مع أن في السنن من حديث عقبة بن عامر عنه ﷺ: «النذر حِلفة» ومن أنواعه الخوف من غير الله والتوكل على غير الله والعمل لغير الله والإنابة والخضوع والذل لغير الله وابتغاء الرزق من عند غيره وحمد غيره على ما أعطى والغُنْية بذلك عن حمده سبحانه والذم والسخط على ما لم يقسمه ولم يجربه القدر وإضافة نعمه إلى غيره واعتقاد أن يكون في الكون ما لم يشاؤه انتهى.

قال: تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين لعلمهم بدقه وجله وتفاصيله وجمله ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: يا حذيفة نشدتك بالله هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم قال: لا ولا أزكي بعدك أحداً وقال ابن أبي مليكة أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل ذكره البخاري وذكر عن الحسن البصري: ما أمنه إلا منافق وما خافه إلا مؤمن ولقد ذكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق: قيل وما خشوع النفاق قال: أن يُرى البدن خاشعاً والقلب ليس بخاشع.

تـالله لقد ملئت قلوب القـوم إيمانـاً ويقينـاً وخـوفُهم من النفـاق شـديـد وهَمُهم لـذلك ثقيـل. وسواهم كثيـر منهم لا يجاوز إيمـانهم حنـاجـرهم وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

زَرْع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب وساقية الرياء ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة وعين ضعف العزيمـة فإذا تمت هـذه الأركان الأربع استحكم نبات النفـاق وبنيانـه. ولكنه بمـدارج السيول على شفـا جُرُف هار فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلى السرائـر وكشف المستور وبعثـر ما في القبـور وحصـل مـا في الصـدور تبين حينئـذ لمن كـانت بضـاعتـه النفـاق أن حواصله التي حَصَّلها كانت كالسـراب [٢٤ : ٣٩] **﴿يحسبه الـظمآن مـاء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنـده فوفـاه حسابـه والله سريـع الحساب﴾** انتهى.

## فصل

وأما الإثم والعدوان فهما قرينان قال الله تعالى: [٥ : ٢] **﴿وتعاونوا على البـر والتقوى ولا تعـاونوا على الإثم والعـدوان﴾** وكل منهمـا إذا أفرد تضمن الآخر فكل إثم عـدوان إذ هو فعـل ما نهى الله عنـه أو ترك مـا أمر الله بـه فهو عـدوان على أمره ونهيـه وكل عـدوان إثم فـإنـه يـأثم بـه صـاحبـه ولكن عنـد اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما فالإثم ما كـان محرم الجنس كـالكذب والـزنا وشـرب الخمر ونحـو ذلك، والعـدوان ما كـان محـرم القـدر والزيادة.

فالعدوان تعدي ما أبيـح منه إلى القـدر المحرم والـزيادة كـالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه إما بأن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضه فإذا غصبـه خشبة لم يرض عوضها إلا داره. وإذا أتلف عليه شيئاً أتلف عليـه أضعافـه وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافهـا فهذا كله عـدوان وتعدٍّ للعـدل. وهذا العـدوان نوعان: عدوان في حق الله وعدوان في حق العبد، فالعـدوان في حق الله كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلى ما حرم الله عليـه من سواهمـا كما قـال تعالى: [٥٣ : ٥ ـ ٧] **﴿والـذين هم لفروجهم**

**حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾** وكذلك تعدي ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حرم عليه منها كوطئها في حيضها أو نفاسها أو في غير موضع الحرث أو في إحرام أحدهما أو صيامه الواجب ونحو ذلك. وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين فتعداه إلى أكثر منه فهو من العدوان كمن أبيح له إساغة الغصة بجرعة من خمر فتناول الكأس كلها. أو أبيح له نَظْرة الخِطبة والسوم والشهادة والمعاملة والمداواة فأطلق عنان طرفه في ميادين محاسن المنظور وأسام طرف ناظره في تلك الرياض والزهور فتعدى المباح إلى القدر المحظور وحام حول الحمى المحوط المحجور فصار ذا بصر حائر وقلب عن مكانه طائر أرسل طرفه رائداً يأتيه بالخبر فخامر عليه وأقام في تلك الخيام فبعث القلب في آثاره فلم يشعر إلا وهو أسير يحجل في قيوده بين تلك الخيام فما أقلعت لحظات ناظره حتى تَشَحّطَ بينهن قتيلاً وما برحت تنوشه سيوف تلك الجفون حتى جندلته تجديلاً هذا خطر العدوان وما أمامه أعظم وأخطر وهذا فوت الحرمان وما حرمه من فوات ثواب من غضّ طرفه لله عز وجل أجل وأكبر سافر الطرف في مفاوز محاسن المنظور إليه فلم يربح إلا أذى السفر وغرر بنفسه في ركوب تلك البيداء وما عرف أن راكبها على أعظم الخطر يا لها من سفرة لم تبلغ المسافر منها ما نواه ولم يضع فيها عن عاتقه عصاه حتى قطع عليه فيها الطريق وقعد له فيها الرصد على كل نقب ومضيق لا يستطيع الرجوع إلى وطنه والإياب ولا له سبيل إلى المرور والذهاب يرى هجير الهاجرة من بعيد فيظنه برد الشراب [٢٤ : ٣٩] **﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾** وتيقن أنه كان مغروراً بلامع السراب تالله ما استوت هذه الذلة وتلك اللذة في القيمة فيشتريها بها العارف الخبير ولا تقاربا في المنفعة فيتحير بينهما البصير ولكن على العيون غشوة فلا تفرق بين مواطن السلامة ومواضع العثور والقلوب تحت أغطية الغفلات راقدة فوق فرش الغرور [٢٢ : ٤٦] **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** ومن أمثلة العدوان تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة إلى ما لم يبح منها.

بأن يشبع وإنما أبيح له سد الرمق على أحد القولين في مذهب أحمد والشافعي وأبي حنيفة. انتهى.

## فصل

وأما الفحشاء والمنكر فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة وهي الفعلة الفحشاء والخصلة الفحشاء وهي ما ظهر قبحها لكل أحد واستفحشه كل ذي عقل سليم ولهذا فسرت بالزنا واللواط وسماهما الله فاحشة لتناهي قبحهما. وكذلك القبيح من القول يسمى فحشاً وهو ما ظهر قبحه جداً من السَّبِّ القبيح والقذف ونحوه.

وأما المنكر فصفة لموصوف محذوف أيضاً أي الفعل المنكر وهو الذي تستنكره العقول والفطر ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين والطعم المستكره إلى الذوق والصوت المستنكر إلى الأذن فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة كما فَحُش إنكار الحواس له من هذه المدركات. فالمنكر لها ما لم تعرفه ولم تألفه والقبيح المستكره لها الذي تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة ولذلك قال ابن عباس الفاحشة الزنا والمنكر ما لم يعرف في شريعة ولا سنة فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حسنه ولم يؤلف وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول.

## فصل

وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريماً وأعظمها إثماً ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان ولا تباح بحال بل لا تكون إلا محرمة وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذي يباح في حال دون حال فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال. ومحرم تحريماً عارضاً في وقت دون وقت قال الله تعالى في المحرم لذاته [٧: ٣٣] **﴿قل إنما حرم ربيَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾** ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: **﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾** ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: **﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به**

**سلطاناً﴾** ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به وتغيير دينه وتبديله ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه وعداوة من والاه وموالاة من عاداه وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثماً وهو أصل الشرك والكفر وعليه أسست البدع والضلالات فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم. ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض وحذروا فتنتهم أشد التحذير وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله فقال: [١٦ : ١١٦] **﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتَفْتَروا على الله الكذب﴾** الآية فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه. قال بعض السلف لِيَحْذَرْ أحدكم أن يقول أحلّ الله كذا وحرم الله كذا فيقولَ الله كذبتَ لم أحل هذا ولم أحرم هذا: يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله يقربه إلى الله ويشفع له عنده ويقضي حاجته بواسطته كما تكون الوسائط عند الملوك فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله فهو أعم من الشرك والشرك فرد من أفراده. ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجباً لدخول النار واتخاذ منزلة منها مُبَوّأ وهو المنزل اللازم الذي لا يفارقه صاحبه لأنه متضمن للقول على الله بلا علم كصريح الكذب عليه لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسِل والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾** فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من

البدع وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة أو يظنها سنة فهو يدعو إليها ويحض عليها فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة وكثرة اطلاعه عليها ودوام البحث عنها والتفتيش عليها ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً. فإن السنة بالذات تمحق البدعة ولا تقوم لها وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة وأزالت ظلمة كل ضلالة إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة إلا المتابعة والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص وصدق اللجأ إلى الله والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة والله المستعان.

## فصل

ومن أحكام التوبة أن من تعذر عليه أداء الحق الذي فرط فيه ولم يمكن تداركه ثم تاب فكيف حكم توبته وهذا يتصور في حق الله سبحانه وحقوق عباده فأما في حق الله فكمن ترك الصلاة عمداً من غير عذر مع علمه بوجوبها وفرضها ثم تاب وندم. فاختلف السلف في هذه المسألة فقالت طائفة توبته بالندم والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة وقضاء الفرائض المتروكة وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم.

وقالت طائفة توبته باستئناف العمل في المستقبل ولا ينفعه تدارك ما مضى بالقضاء ولا يقبل منه فلا يجب عليه وهـا قول أهل الظاهر وهو مروي عن جماعة من السلف.

فإذا كانت توبة تارك الإسلام مقبولة صحيحة لا يشترط في صحتها إعادة ما فاته في حال إسلامه أصلياً كان أو مرتداً كما أجمع عليه الصحابة فيترك أمر المرتدين لما رجعوا إلى الإسلام بالقضاء فقبول توبة تارك الصلاة وعدم توقفها على القضاء أولى والله أعلم.

# فصل

وأما في حقوق العباد فيتصور في مسائل إحداها من غصب أموالاً ثم تاب وتعذر عليه ردها إلى أصحابها أو إلى ورثتهم لجهله بهم أو لانقراضهم أو لغير ذلك فاختلف في توبة مثل هذا فقالت طائفة: لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها فإذا كان ذلك قد تعذر عليه فقد تعذرت عليه التوبة والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا.

وقالت طائفة: يدفعها إلى الإمام أو نائبه لأنه وكيل أربابها فيحفظها لهم ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة. صح.

وقالت طائفة أخرى: بل باب التوبة مفتوح لهذا ولم يغلقه الله عنه ولا عن مذنب وتوبته أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها فإذا كان يوم استيفاء الحقوق كان لهم الخيار بين أن يجيزوا ما فعل وتكون أجورها لهم وبين أن لا يجيزوا ويأخذوامن حسناته بقدر أموالهم ويكون ثواب تلك الصدقة له إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض فيغرمه إياها ويجعل أجرها لهم وقد غرم من حسناته بقدرها. وهذا مذهب جماعة من الصحابة كما هو مروي عن ابن مسعود ومعاوية وحجاج بن الشاعر فقد روي أن ابن مسعود اشترى من رجل جارية ودخل يزن له الثمن فذهب رب الجارية فانتظره حتى يئس من عودة فتصدق بالثمن وقال: اللهم هذا عن رب الجارية فإن رضي فالأجر له وإن أبى فالأجر لي وله من حسناتي بقدره. وغلّ رجل من الغنيمة ثم تاب فجاء بما غلّه إلى أمير الجيش فأبى أن يقبله منه وقال كيف لي بإيصاله إلى الجيش وقد تفرقوا فأتى حجاج بن الشاعر فقال: يا هذا إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم فادفع خمسه إلى صاحب الخمس وتصدق بالباقي عنهم فإن الله يوصل ذلك إليهم أو كما قال ففعل فلما أخبر معاوية قال: لأن أكون أفتيتك بذلك أحب إليّ من نصف ملكي.

قالوا: وكذلك اللقطة إذا لم يجد رَبَّها بعد تعريفها ولم يرد أن يتملكها تصدق بها عنه فإن ظهر مالكها خَيَّره بين الأجر والضمان. انتهى.

## فصل

قال: مشهد التوفيق والخذلان أجمع العارفون بالله أن التـوفيق هو أن لا يكلك الله إلى نفسـك وأن الخذلان هـو أن يخلي بينك وبين نفسـك فالعبيـد متقلبون بين توفيقه وخذلانه بل العبد في الساعة الواحـدة ينال نصيبـه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه لـه ثم يعصيه ويخـالفه ويسخـطه ويغفل عنه بخذلانه له فهو دائر بين توفيقه وخذلانـه فإن وفقـه فبفضله ورحمته وإن خذله فبعـدلـه وحكمته وهو المحمود على هذا وهذا له أتم حمد وأكمله. ولم يمنع العبد شيئاً هو لـه وإنما منعـه ما هـو مجرد فضله وعـطائه وهـو أعلم حيث يضعه وأين يجعله فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقـه علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كلِّ نَفَس وكل لحظة وطـرفة عين وأن إيمـانه وتوحيده بيده تعالى لو تخلى عنه طرفة عين لثُلَّ عرش توحيده ولخـرت سماء إيمانه على الأرض وأن الممسك له هو من يمسـك السماء أن تقـع على الأرض إلا بإذنه فهجّيرى قلبه ودأب لسانه «يـا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك يـا مصرف القلوب صرّف قلبي إلى طـاعتك» ودعـواه: «يا حي يـا قيـوم يـا بـديـع السمـاوات والأرض يا ذا الجـلال والإكرام لا إلـه إلا أنت بـرحمتـك أستغيث أصلح لي شأنه كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحـد من خلقك» ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه كمـا يشهد ربـوبيته وخلقـه فيسألـه توفيقه مسألة المضطر ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف ويلقي نفسه بين يديه طريحاً ببابه مستسلماً له ناكس الرأس بين يديه خاضعاً ذليلاً مستكيناً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً انتهى.

## فصل

مشهد الرحمة فإن العبد إذا وقع في الـذنب خرج من قلبـه تلك الغلظة والقسوة والكيفية الغضبيـة التي كانت عنـده لمن صدر منـه ذنب حتى لو قـدر عليه لأهلكه وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه غضبـاً منه لله وحـرصاً على أن لا يعصى فلا يجد في قلبـه رحمة للمـذنبين الخاطئين ولا يـراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء ولا يذكرهـم إلا بلسان الطعن فيهم والعيب لهم والذم. فإذا

جرت عليه المقادير وخُلي ونفسه استغاث الله والتجأ إليه وتململ بين يديه تململ السليم ودعاه دعاء المضطر فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة وتلك القساوة على الخاطئين رحمة وليناً مع قيامه بحدود الله وتَبَدَّلَ دعاؤه عليهم دعاء لهم وجعل لهم وظيفة من عمره يسأل الله أن يغفر لهم فما أنفعه له من مشهد وما أعظم جدواه عليه والله أعلم.

## فصل

فيورثه ذلك مشهد العجز والضعف وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه فيشهد قلبَه كريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح يميناً وشمالاً ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج ترفعها تارة وتخفضها تارة أخرى. تجري عليه أحكام القدر وهو كالآلة طريحاً بين يدي وليه ملقى ببابه واضعاً خده على ثرى أعتابه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما فالهلاك أدنى إليه من شراك نعله كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع لا يردها عنها إلا الراعي فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاء وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن فإن حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا إليه سبيلاً وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم بل هو نصيب من ظفر به منهم.

## فصل

فإذا استبصر في هذا المشهد وتمكن من قلبه وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقى منه إلى المشهد الذي هو الغاية التي شمر إليها السالكون وأمها القاصدون ولحظ إليها العاملون وهو مشهد العبودية والمحبة والشوق إلى لقائه والابتهاج به والفرح والسرور به فتقر به عينه ويسكن إليه قلبه وتطمئن إليه جوارحه ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية. وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادات معاصيه ومساخطه وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي قد

امتلأ قلبه من محبته ولهج لسانه بذكره وانقادت الجوارح لطاعته فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية. وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية ولا حجاب أغلظ من الدعوى ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة يعني بعد فعل الفرائض[1] انتهى.

والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر قال الله تعالى: [٣٠: ٣٣] ﴿**وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين إليه**﴾ فهذا عامّ في حق كل داع أصابه ضر كما هو الواقع وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالى في حق هؤلاء: [٣٠: ٣٣ و٣٤] ﴿**ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم**﴾ فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه وهي إنابة الإلٰهية إنابة عبودية ومحبة وهي تتضمن أربعة أمور: محبته. والخضوع له. والإقبال عليه. والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم. والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه، انتهى.

---

(١) وأساس الذل والانكسار والعبودية هو أداء ما افترض الله على العبد وقد بين ذلك الرسول ﷺ في قوله فيما روى البخاري عن ربه عز وجل: (ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه) الحديث. ومن زعم أن هناك ذلاً وانكساراً مع إضاعة الفرائض وإهمال الحقوق والواجبات فهو أضل من البهائم.

## فصل

قال: (وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء بالخروج من التبعات. والتوجُّع للعثرات. واستدراك الفائتات). والخروج من التبعات هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله وأداء الحقوق التي عليه للخلق. والتوجع للعثرات يحتمل شيئين أحدهما أن يتوجع لعثرته إذا عثر فيتوجع قلبه وينصدع وهذا دليل على إنابته إلى الله بخلاف من لا يتألم قلبه ولا ينصدع من عثرته فإنه دليل على فساد قلبه وموته. الثاني أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر حتى كأنه هو الذي عثر بها ولا يشمت به فهو دليل على رقة قلبه وإنابته واستدراك الفائتات. هو استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها أو خير منها ولا سيما في بقية عمره عند قرب رحيله إلى الله فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها يستدرك بها ما فات ويُحيي بها ما أمات. انتهى.

## فصل

ومن علامات الإنابة ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك فترجو لنفسك الرحمة وتخشى على أهل الغفلة النقمة· ولكن أُرجُ لهم الرحمة واخش على نفسك النقمة فإن كنت لا بد مستهيناً بهم ماقتاً لهم لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله فإن من شهد حقيقة الخلق وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله وإقبالهم على غيره وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني لم يجد بداً من مقتهم ولا يمكنه غير ذلك ألبتة ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره وكان على بصيرة من ذلك؛ كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس وتمييز حق الرب منها من حظ النفس ولعل أكثرها أو كلها أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر. فلا إله إلا الله كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة وأن تصل إليه وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبتة وهو غير خالص لله ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً وهو خالص لوجه الله ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطاع تمنع وصول العمل إلى القلب فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه وبين الحق والباطل ولا قوة في أمره فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق ورأى الحق والباطل وميّز بين أولياء الله وأعدائه وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال، ثم بين القلب وبين الرب مسافة وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه من كبر وإعجاب وإدلال ورؤية العمل ونسيان المنة وعلل خفية لو استقصي في طلبها لرأى العجب ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها من اليأس والقنوط والاستحسار وترك العمل وخمود العزم وفتور الهمة انتهى.

فالتبصرة آلة البصر والتذكرة آلة الذكر وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر فاستدل بها على ما هي آيات له فزال عنه الإعراض بالإنابة. والعمى بالتبصرة والغفلة بالتذكرة لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. وقال تعالى في آياته المشهودة [٥٠ : ٣٦ و٣٧] ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قَرن هم أشَدُّ منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾.

والناس ثلاثة رجل قلبه ميت فذلك الذي لا قلب له فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه. الثاني رجل له قلب حيّ مستعد لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة إما لعدم ورودها أو

لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها فهو غائب القلب ليس حاضراً فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه. والثالث رجل حيّ القلب مستعد تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع وأصغى قلبه ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه فهو شاهد القلب ملق السمع فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة المشهودة. فالأول بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر. والثاني بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه فكلاهما لا يراه. والثالث بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلى جهة المنظور وأتبعه بصره وقابله على توسط من البعد والقرب فهذا هو الذي يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور.

فإن قيل: فما وقع (أو) من هذا النظم على ما قررت: قيل فيها سر لطيف ولسنا نقول إنها بمعنى الواو كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وَقّاد مليء باستخراج العبر واستنباط الحكم فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور وهؤلاء أكمل خلق الله وأعظمهم إيماناً وبصيرة حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم. لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه حتى قيل إن مثل حال الصديق مع النبي ﷺ كمثل رجلين دخلا داراً فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته والآخر وقعت يده على ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته لكن علم أن فيها أموراً عظيمة لم يدرك بصره تفاصيلها ثم خرجا فسأله عما رأى في الدار فجعل كلما أخبره بشيء صدقه لما عنده من شواهده وهذه أعلى درجات الصديقية ولا تستبعد أن يمنّ الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان. فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نوراً إلى نوره فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضاً [٢ : ٢٦٥] ﴿**فإن لم يصبها وابل فَطَلٌّ**﴾ والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها وموجباتها. وأهل الجنة سابقون ومقربون وأصحاب يمين وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما حتى إن شراب أحد النوعين الصّرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجاً قال الله تعالى: [٣٤:٦] ﴿**ويرى**

**الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾** فكل مؤمن يرى هذا ولكن رؤية أهل العلم له لون ورؤية غيرهم له لون آخر. انتهى.

قال صاحب المنازل (أبنية التذكر ثلاثة الانتفاع بالعظة والاستبصار بالعبرة والظفر بثمرة الفكرة).

الانتفاع بالعظة هو أن يقدح في القلب قادح الخوف والرجاء فيتحرك للعمل طلباً للخلاص من الخوف ورغبة في حصول المرجو والعظة هي الأمر والنهي المعروف بالترغيب والترهيب والعظة نوعان عظة بالمسموع وعظة بالمشهود فالعظة بالمسموع الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد والنصائح التي جاءت على لسان الرسل وما أوحي إليهم وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا والعظة بالمشهود الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر وأحكام القدر ومجاريه وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله وأما استبصار العبرة فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في منزل التفكر بقوة الاستحضار لأن التذكر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكر في مواقع الآيات والعبر فهو يظفر بها بالتفكر وتنصقل له وتنجلي بالتذكر فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور فكلما قوي الشعور بالمحبوب اشتد سفر القلب إليه وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه والتذكر له. وأما الظفر بثمرة الفكرة فهذا موضع لطيف وللفكرة ثمرتان حصول المطلوب تاماً بحسب الإمكان والعمل بموجبه رعاية لحقه فإن القلب حال التفكر كان قد كلّ بأعماله في تحصيل المطلوب فلما حصلت له المعاني وتخمرت في القلب واستراح العقل عاد فتذكر ما كان حصله وطالعه فابتهج به وفرح به وصحح في هذا المنزل ما كان فاته في منزل التفكر لأنه قد أشرف عليه في مقام التذكر الذي هو أعلى منه فأخذ حينئذ في الثمرة المقصودة وهي العمل بموجبه مراعاة لحقه فإن العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع الذي هو ثمرة التفكر. وإذا أردت فهم هذا بمثال حسي فطالبُ المال ما دام جاداً في طلبه فهو في كلال وتعب حتى إذا ظفر به استراح من كَدِّ الطلب

وقَدِمَ من سفر التجارة فطالع ما حصله وأبصره وصحح في هذا الحال ما عساه غلط فيه في حال اشتغاله بالطلب فإذا صح له وبردت غنيمته له أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه والله أعلم.

والعظة يراد بها أمران الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة ونفس الرغبة والرهبة فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهي والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله تعالى: [١٦ : ١٢٥] ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة إذ كلها حسنة ووصف الحسن لها ذاتي. وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان إذ ليس كل موعظة حسنة. وكذلك الجدال قد يكون بالتي هي أحسن وقد يكون بغير ذلك وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته ولينه وحدته ورفقه فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه وأدله على المقصود وأوصله إلى المطلوب والتحقيق أن الآية تتناول النوعين انتهى.

قال: (وإنما تُسْتَبْصَر العبرة بثلاثة أشياء بحياة العقل ومعرفة الأيام والسلامة من الأغراض).

إنما تتميز العبرة وترى وتتحقق بحياة العقل والعبرة هي الاعتبار وحقيقتها العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله فإذا رأى من قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه وحياة العقل هي صحة الإدراك وقوّة الفهم وجودته وتحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه ووجوده وعدمه يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين.

ومن تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة أن من أدمن (يا

حي يا قيوم لا إله إلا أنت) أورثه ذلك حياة القلب والعقل وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه شديد اللهج بها جداً وقال لي يوماً لهذين الاسمين وهما: الحي القيوم: تأثير عظيم في حياة القلب وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم. وسمعته يقول: من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر (يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث) حصلت له حياة القلب ولم يمت قلبه.

ومن علم عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها وسِرَّ ارتباطها بالخلق والأمر وبمطالب العبد وحاجاته عرف ذلك وتحققه فإن كل مطلوب يسأل بالمناسب له فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك وأما معرفة الأيام فيحتمل أن يريد به أيامه التي تخصه وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان ويعلم قصرها وأنها أنفاس معدودة منصرمة كل نَفَس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء والعبد منساق زمنه وفي مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع فما أولاه أن لا يصرف منها نفساً إلا في أحب الأمور إلى الله فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطاً فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه. فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه فالله المستعان ولا قوة إلا به.

ويحتمل أن يريد بالأيام أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها كما قال تعالى: [١٤ : ٥] ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكّرهم بأيام الله**﴾ وقد فسرت أيام الله بنعمه وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد. والثاني تفسير مقاتل والصواب أن أيامه تعم النوعين وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه ونعمه التي ساقها إلى أوليائه وسميت هذه النعم والنقم الكبائر المتحدث بها: أياماً: لأنها ظرف لها. تقول العرب فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته قال الله تعالى: [١٢ : ١١١] ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ ولا يتم

ذلك إلا بالسلامة من الأغراض وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل ويعمي بصيرة القلب ويصد عن اتباع الحق ويضل عن الطريق المستقيم فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره فأَرَتْه نفسه الحسنَ في صورة القبيح والقبيح في صورة الحسن فالتبس عليه الحق بالباطل فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكر أو بالعظة.

## فصل

قال: (وإنما تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء بقصر الأمل والتأمل في القرآن. وقلة الخلطة. والتمني. والتعلق بغير الله والشبع والمنام).

يعني أن في منزل التذكر تجتنى ثمرة الفكرة لأنه أعلى منها وكل مقام تجتنى ثمرته في الذي هو أعلى منه ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنى بثلاثة أشياء أحدها قصر الأمل. والثاني: تدبر القرآن والثالث: تجنب مفسدات القلب الخمسة. فأما قصر الأمل فهو العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدة الحياة وهو من أنفع الأمور للقلب فإنه يبعثه على معافصة الأيام وانتهاز الفرص التي تمر مرّ السحاب ومبادرة طي صحائف الأعمال ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء ويحثه على قضاء جهاز سفره وتدارك الفارط ويزهده في الدنيا ويرغبه في الآخرة فيقوم بقلبه إذا داوم مطالعة قصر الأمل شاهدٌ من شواهد اليقين يريد فناء الدنيا وسرعة انقضائها وقلة ما بقي منها وأنها قد ترحلت مُدبِرة ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال ويريه بقاء الآخرة ودوامها وأنها قد ترحلت مقبلة وقد جاء أشراطُها وعلاماتها وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه فكل منهما يسير إلى الآخر فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: [٢٦: ٢٠٥ ـ ٢٠٧] **﴿أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾** وقوله تعالى: [١٠: ٤٥] **﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾** وقوله تعالى: [٧٩: ٤٦] **﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا**

عشية أو ضحاها﴾ وقوله تعالى: [٢٣ : ١١٣ و١١٤] قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين، قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ وقوله تعالى: [٤٦ : ٣٥] ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ وقوله تعالى: [٢٠ : ١٠٣ و١٠٤] ﴿يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾ وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال: «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه» ومرَّ رسول الله ﷺ ببعض أصحابه وهم يعالجون خِصاً لهم قد وهى فهم يصلحونه فقال: «ما هذا» قالوا: خصٌّ لنا قد وهى فنحن نعالجه فقال: «ما أرى الأمر إلا أعجل من هذا» وقصر الأمل بناؤه على أمرين تيقن زوال الدنيا ومفارقتها وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار.

## فصل

وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبره وتعقله وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر قال الله تعالى: [٣٨ : ٢٩] ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك لِيدَّبَّروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ وقال تعالى: [٤٧ : ٢٤] ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ وقال تعالى: [٢٣ : ٦٩] ﴿أفلم يدبروا القول﴾ وقال تعالى: [٤٣ : ٣] ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً. فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته؛ من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع فيه الفكر على معاني آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما وتَتُلّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه وتُحْضِره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتبصره مواقع العبر وتشهده عدل الله وفضله وتعرفه ذاته وأسماءه

وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه. وصراطه الموصل إليه وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه. وقواطع الطريق وآفاتها وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها. وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه. وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه وطريق الوصول إليه وماله من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى ما يدعو إليه الشيطان والطريق الموصلة إليه وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه. فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم فتريه الحق حقاً والباطل باطلاً وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال والغي والرشاد وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً فيصير في شأن والناس في شأن آخر. فإن معاني القرآني دائرة على التوحيد وبراهينه والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص. وعلى الإيمان بالرسل وذكر براهين صدقهم وأدلة صحة نبوتهم والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم. وعلى الإيمان بملائكته وهم رسله في خلقه وأمره وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي وما يختص بالنوع الإنساني منهم من حيث يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه. وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعدَّ الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص وما أعدّ لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه. وعلى تفاصيل الأمر والنهي والشرع والقدر والحلال والحرام والمواعظ والعبر والقصص والأمثال والأسباب والحكم والمبادي والغايات في خلقه وأمره فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعثه على الازدياد

من النعم بشكر ببه الجليل وتبصره بحدود الحلال والحرام وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل وتناديه كلما فترت عزماته وونَى في سيره تقدم الركب وفاتك الدليل فاللحاق اللحاق والرحيل الرحيل وتَحْدو به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو أو قاطع من قطاع الطريق نادته الحذر الحذر فاعتصم بالله واستعن به وقل حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد وبالجملة فهو أعظم الكنوز طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه.

## فصل

وأما مفسدات القلب الخمسة فهي التي أشار إليها من كثرة الخلطة والتمني والتعلق بغير الله والشبع والمنام فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب فنذكر آثارها التي اشتركت فيها وما تميز به كل واحد منها.

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل والدار الآخرة ويكشف عن طريق الحق ونهجه وآفات النفس والعمل وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته وصحته وعزمه وسلامة سمعه وبصره وغيبة الشواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تطفىء نوره وتعور عين بصيرته وتثقل سمعه إن لم تصمه وتبكمه وتضعف قواه كلها وتوهن صحته وتفتر عزيمته وتوقف همته وتنكسه إلى ورائه ومن لا شعور له بهذا فميت القلب وما لجرح بميت إيلام فهي عائقة له عن نيل كماله قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه فإنه لا نعيم له ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته والطمأنينة بذكره والفرح والابتهاج بقربه والشوق إلى لقائه فهذه جنته العاجلة كما أنه لا نعيم له في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها قالوا وما أطيب ما فيها قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والإقبال عليه والإعراض عما سواه أو نحو هذا من الكلام. وكل من له قلب حيّ يشهد هذا ويعرفه ذوقاً.

وهذه الأشياء الخمسة قاطعة عن هذا حائلة بين القلب وبينه عائقة له عن سيرة ومحدثة له أمراضاً وعللاً إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة فامتلأ القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود ويوجب له تشتتاً وتفرقاً وهماً وغماً وضعفاً وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم وَتَقَسُّم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة. هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة ودفعت من نعمة وأنزلت من محنة وعطلت من منحة وأحلت من رزية وأوقعت في بلية وهل آفة الناس إلا الناس وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضر من قرناء السوء لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقّت الحقائق عداوة ويعض المخلط عليها يديه ندماً كما قال تعالى: [٢٥: ٢٧ - ٢٩] ﴿**ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً. لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني**﴾ وقال تعالى: [٤٣: ٦٧] ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾ وقال خليله إبراهيم لقومه: [٢٩: ٢٥] ﴿**إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين**﴾ وهذا شأن كل مشتركين في غرض يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزناً وألماً وانقلبت تلك المودة بغضاً

ولعنة وذماً من بعضهم لبعض لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذاباً كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزية إذا أخذوا وعوقبوا فكل متساعدين على باطل متوادين عليه لا بد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة. ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات فإن دعت الحاجة إلى خلطهم في الشر ولم يمكنه اعتزالهم فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين وموافقتهم يعقبها ذُلّ وبغض له ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلاً وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه ويشجع نفسه ويقوي قلبه ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك ونحو ذلك فليحاربه وليستعن بالله ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه فإن أعجزته المقادير عن ذلك فَلْيَسُلّ قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين وليكن فيهم حاضراً غائباً قريباً بعيداً نائماً يقظاناً ينظر إليهم ولا يبصرهم ويسمع كلامهم ولا يعيه لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ورقي به إلى الملأ الأعلى يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية وما أصعب هذا وأشقه على النفوس وإنه ليسير على من يسره الله عليه فبين العبد وبينه أن يَصْدُق الله تبارك وتعالى ويديم اللجأ إليه ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة والذكر الدائم بالقلب واللسان وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل وعزيمة صادقة وفراغ من التعلق بغير الله تعالى والله تعالى أعلم.

## فصل

المفسد الثاني من مفسدات القلب ركوبه بحر التمني وهو بحر لا ساحل له وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم كما قيل: إن المنى رأس

أموال المفاليس: وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان وخيالات المحال والبهتان فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطنة تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية بل اعتاضت عنها بالأماني الذهنية وكل بحسب حاله من متمن للقدرة والسلطان وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان أو للأموال والأثمان أو للنسوان والمردان فيمثل المتمني صورة مطلوبة في نفسه وقد فاز بوصولها والتَذّ بالظفر بها فبينا هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير. وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذي يقربه إلى الله ويدنيه من جواره فأماني هذا إيمان ونور وحكمة وأماني أولئك خدع وغرور وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله كالقائل لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويخرج منه حقه وقال: «هما في الأجر سواء» وتمنى ﷺ في حجة الوداع أنه لو كان تمتع وحلّ ولم يسِقِ الهدي وكان قد قرن فأعطاه الله ثواب القِران بفعله وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته فجمع له بين الأجرين.

## فصل

المفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تعالى وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق فليس عليه أضر من ذلك ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به وخذله من جهة ما تعلق به وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه فلا على نصيبه من الله حصل ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل قال الله تعالى: [١٩: ٨١ و٨٢] **﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾** وقال تعالى: [٣٦: ٧٥] **﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾** فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به وهو معرض للزوال

والفوات ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت. وبالجملة فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها التعلق بغير الله ولصاحبه الذم والخذلان كما قال تعالى: [١٧ :٢٢] ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾ مذموماً لا حامد لك مخذولاً لا ناصر لك إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قهر بباطل وقد يكون مذموماً منصوراً كالذي قهر وتسلط عليه بباطل وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة لا محمود ولا منصور.

## فصل

المفسد الرابع من مفسدات القلب الطعام والمفسد له من ذلك نوعان أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات وهي نوعان محرمات لحق الله كالميتة والدم ولحم الخنزير وذي الناب من السباع والمخلب من الطير. ومحرمات لحق العباد كالمسروق والمغصوب والمنهوب وما أخذ بغير رضى صاحبه إما قهراً وإما حياءً وتذمماً والثاني ما يفسده بقدره وتعدي حده كالإسراف في الحلال والشبع المفرط فإنه يثقله عن الطاعات ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتى يظفر بها فإذا أظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها والتأذي بثقلها وقوى عليه مواد الشهوة وطرق مجاري الشيطان ووسعها فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه والشبع يطرقها ويوسعها ومن أكل كثيراً شرب كثيراً فنام كثيراً فخسر كثيراً وفي الحديث المشهور «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» ويحكى أن إبليس لعنه الله عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال له يحيى: هل نلت مني شيئاً قط قال: لا إلا أنه قُدِّم إليك الطعام ليلة فشهيته إليك حتى شبعت منه فنمت عن وردك. فقال يحيى: لله عليّ أن لا أشبع من طعام أبداً فقال إبليس وأنا لله عليّ أن لا أنصح آدمياً أبداً.

## فصل

المفسد الخامس كثرة النوم فإنه يميت القلب ويثقل البدن ويضيع الوقت ويورث كثرة الغفلة والكسل ومنه المكروه جداً ومنه الضار غير النافع للبدن وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه وكثر ضرره ولا سيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران. ومن المكروه عندهم النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس فإنه وقت غنيمة وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس فإنه أول النهار ومفتاحه ووقت نزول الأرزاق وحصول القسم وحلول البركة ومنه ينشأ النهار وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير وهو مقدار ثمان ساعات وهذا أعدل النوم عند الأطباء وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه ومن النوم الذي لا ينفع أيضاً النوم أول الليل عقيب غروب الشمس حتى تذهب فحمة العشاء وكان رسول الله ﷺ يكرهه فهو مكروه شرعاً وطبعاً. وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرى عظام من سوء المزاج ويبسه وانحراف النفس وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل ويورث أمراضاً متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها وما قام الوجود إلا بالعدل فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير وبالله المتسعان.

## فصل

منزل الاعتصام وهو نوعان اعتصام بالله واعتصام بحبل الله قال الله تعالى: [٣:١٠٣] **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾** وقال تعالى: [٢٢:٧٨] **﴿واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾** والاعتصام افتعال من العصمة وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف فالعصمة الحمية والاعتصام الاحتماء ومنه سميت القلاع

العواصم لمنعها وحمايتها. ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة والاعتصام به يعصم من الهلكة فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله. وقال ابن مسعود: هو الجماعة وقال عليكم بالجماعة فإنه حبل الله الذي أمر به وأن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة. وقال مجاهد وعطاء بعهد الله. وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير هو القرآن قال ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع وعصمة من تمسك به ونجاة من تبعه» وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ في القرآن: (هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تختلف به الألسن ولا يَخْلُق على كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء) وفي الموطأ من حديث مالك عن سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال» رواه مسلم في الصحيح.

فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل والله أعلم.

## فصل

وأما الاعتصام به فهو التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به وسؤاله أن

يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه فإن ثمرة الاعتصام به هو الدفع عن العبد والله يدافع عن الذين آمنوا فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب ويحميه منه فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها ويدفع عنه قَدَره بقدره وإرادته بإرادته ويعيذه به منه انتهى.

قال: الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع وعدم العمل بموجبه ومقتضاه فكلاهما جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة قال موسى عليه الصلاة والسلام: [٢: ٦٧] ﴿**أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**﴾ لما قال له قومه: ﴿**أتتخذنا هزواً**﴾ أي من المستهزئين وقال يوسف الصديق: [١٢: ٣٣] ﴿**وإلا تصرف عني كيْدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين**﴾ أي من مرتكبي ما حرمت عليهم وقال تعالى: [٤: ١٧] ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة**﴾ قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عصي الله به فهو جهالة وقال غيره أجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل.

قوله: (ومن الكسل إلى التشمير جداً وعزماً) أي يفرّ من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشمير بالجد والاجتهاد والجد ههنا هو صدق العمل وإخلاصه من شوائب الفتور ووعود التسويف والتهاون وهو تحت السين وسوف وعسى ولعل فهي أضر شيء على العبد وهي شجرة ثمرها الخسران والندامات. والفرق بين الجد والعزم أن العزم صدق الإرادة واستجماعها والجد صدق العمل وبذل الجهد فيه وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد فقال: [٢: ٦٣] ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة**﴾ وقال تعالى: [٧: ١٤٥] ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة**﴾ وقال تعالى: [١٩: ١٢] ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة**﴾ أي بجد واجتهاد وعزم لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور. وقوله: (ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء) يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه ومصالح من يتعلق به وما يتعلق بماله

وبدنه وأهله وعدوه يهرب من ضيق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى وصدق التوكل عليه وحسن الرجاء لجميل صنعه به وتوقع المرجو من لطفه ومن أحسن كلام العامة قولهم لا هَمَّ مع الله. قال الله تعالى: [٦٥: ٢ و٣] ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ قال الربيع بن خيثم يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية مخرجاً من كل شدة وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ومضائق الدنيا والآخرة فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً وقال الحسن مخرجاً مما نهاه عنه [٦٥: ٣] ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته يكفيه كل ما أهمه. والحسب: الكافي [٩: ٥٩] ﴿**حسبنا الله**﴾ كافينا وكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل ولا يضيع عمل عامل وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة فإنه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به. انتهى.

## فصل

قوله (ومن الحظوظ إلى التجريد) يريد الفرار من حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها فإنه لا يعرفها إلا المعتنون بمعرفة الله ومراده وحقه على عبده ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهما. ورُبّ مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها ويفرون إليه منها يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم. وبالجملة فالحظ ما سوى مراد الله الديني منك كائناً ما كان وهو ما يبرح حظ محرم إلى مكروه إلى مباح إلى مستحب غيره أحب إلى الله منه ولا يتميز هذا إلا في مقام الرسوخ في العلم بالله وأمره وبالنفس وصفاتها وأحوالها فهناك تتبين الحظوظ من الحقوق ويفر من الحظ إلى التجريد وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا لأنهم إنما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه وأما تجريد عبادته على مراده من عبده:

فتلك منزلة لم يعطها أحد ... سوى نبي وصديق من البشر

والزهد زهدك فيها ليس زهدك في ... ما قد أبيح لنا في محكم السور
والصدق صدقك في تجريدها وكذا الـ ... إخلاص تخليصها إن كنت ذا بصر
كذا توكل أرباب البصائر في ... تجريد أعمالهم من ذلك الكدر
كذاك توبتهم منها فهم أبداً ... في توبة أو يصيروا داخل الحفر

وبالجملة فصاحب هذا التجريد لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله ولا يفرح بما حصل له دون الله ولا يأسى على ما فاته سوى الله ولا يستغني برتبة شريفة وإن عظمت عنده أو عند الناس فلا يستغني إلا بالله ولا يفتقر إلا إلى الله ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله ولا يحزن إلا على ما فاته من الله ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله واحتجاب الله عنه فكله بالله وكله لله وكله مع الله وسيره دائماً إلى الله قد رفع له علمه فشمر إليه وتجرد له مطلوبه فعمل عليه تناديه الحظوظ إليّ وهو يقول: إنما أريد من إذا حصل لي حصل لي كل شيء وإذا فاتني فاتني كل شيء فهو مع الله مجرد عن خلقه ومع خلقه مجرد عن نفسه ومع الأمر مجرد عن حظه أعني الحظ المزاحم للأمر وأما الحظ المعين على الأمر فإنه لا يحطه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربه وهذا موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ فظنوا أن إرادة الحظ نقص في الإرادة والتحقيق فيه أن الحظ نوعان حظ يزاحم الأمر وحظ يؤازر الأمر فينفذه فالأول هو المذموم والثاني ممدوح وتناوله من تمام العبودية فهذا لون وهذا لون.

## فصل

منزلة السماع وهو اسم مصدر كالنبات وقد أمر الله به في كتابه وأثنى على أهله وأخبر أن البشرى لهم فقال تعالى: [٥:١٠٨] **﴿واتقوا الله واسمعوا﴾** وقال تعالى: [٦٤:١٦] **﴿واسمعوا وأطيعوا﴾** وقال تعالى: [٤:٤٦] **﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم﴾** وقال تعالى: [٣٩:١٧ و١٨] **﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾** وقال تعالى: [٧:٢٠٤] **﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾** وقال تعالى:

[٥: ٨٣] **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾** وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم فقال تعالى: [٨: ٢٣] **﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾** وأخبر عن أعدائه أنهم هجروا السماع ونهوا عنه فقال تعالى: [٤١: ٢٢] **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه﴾** فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه وكم في القرآن من قوله تعالى: **﴿أفلا يسمعون﴾** وقال تعالى: [٢٢: ٤٦] **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾** الآية فالسماع أصل العقل وأساس الإيمان الذي انبنى عليه وهو رائده وجليسه ووزيره ولكن الشأن كل الشأن في المسموع وفيه وقع خبط الناس واختلافهم وغلط منهم من غلط وحقيقة السماع تنبيه القلب على معاني المسموع وتحريكه عنها طلباً وهرباً وحباً وبغضاً فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه وأصحاب السماع منهم من يسمع بطبعه ونفسه وهواه فهذا حظه من مسموعه ما وافق طبعه. ومنهم من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته ومنهم من يسمع بالله لا يسمع بغيره كما في الحديث الإلهي الصحيح (فبي يسمع وبي يبصر) وهذا أعلى سماعاً وأصح من كل أحد. والكلام في السماع مدحاً وذماً يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع وحقيقته وسببه والباعث عليه وثمرته وغايته فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر السماع ويتميز النافع منه والضار والحق والباطل والممدوح والمذموم فأما المسموع فصلى ثلاثة أضرب أحدها مسموع يحبه الله ويرضاه وأمر به عباده وأثنى على أهله ورضي عنهم به الثاني مسموع يبغضه ويكرهه ونهى عنه ومدح المعرضين عنه. الثالث مسموع مباح مأذون فيه لا يحبه ولا يبغضه ولا مدح صاحبه ولا ذمه فحكمه حكم سائر المباحات من المناظر والمشام والمطعومات والملبوسات المباحة فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم وحرم ما أحل الله ومن جعله ديناً وقُربة يُتقرب به إلى الله فقد كذب على الله وشرع ديناً لم يأذن به الله وضاهأ بذلك المشركين.

## فصل

فأما النوع الأول فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه وأمر به وأثنى على أصحابه وذم المعرضين عنه ولعنهم وجعلهم أضل من الأنعام سبيلاً وهم القائلون في النار: [٦٧: ١٠] ﴿**لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه وهو على ثلاثة أنواع سماع إدراك بحاسة الأذن. وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابة وقبول والثلاثة في القرآن. فأما سماع الإدراك ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم: [٧٢: ١] ﴿**إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به**﴾ وقوله تعالى: [٤٦: ٣٠] ﴿**يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى**﴾ الآية فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة وأما سماع الفهم فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: [٣٠: ٥٢] ﴿**فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصُّم الدعاء**﴾ وقوله تعالى: [٣٥: ٢٢] ﴿**إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور**﴾ فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة لا تخصيص فيه ومنه قوله تعالى: [٨: ٢٣] ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم وإلا فهم قد سمعوا سمعَ الإدراك ﴿**ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا لأن في قلوبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه. وأما سماع القبول والإجابة ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين أنهم قالوا: [٢٤: ٥١] ﴿**سمعنا وأطعنا**﴾ فإن هذا سمع قبول وإجابة مثمر للطاعة والتحقيق أنه متضمن للأنواع الثلاثة وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه واستجابوا له. ومن سمع القبول قوله تعالى: [٩: ٤٧] ﴿**وفيكم سماعون لهم**﴾ أي قابلون منهم مستجيبون لهم هذا أصح القولين في الآية. انتهى.

والمقصود أن سماع خاصة الخاصة المقربين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة إدراكاً وفهماً وتدبراً وإجابة وكل سماع في القرآن مدحَ الله

أصحابه وأثنى عليهم وأمر به أولياءه فهو هذا السماع. وهو سماع الآيات لا سماع الأبيات وسماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان وسماع كلام ربّ الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء. وسماع المراشد لا سماع القصائد وسماع الأنبياء والمرسلين لا سماع المغنين والمطربين فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب إلى جوار علام الغيوب وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات. ومناد ينادي للإيمان ودليل يسير بالركب في طريق الجنان وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح من قِبل فالق الإصباحِ حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح: فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة وتبصرة لعبرة وتذكرة لمعرفة وفكرة في آية ودلالة على رشد ورداً على ضلالة وإرشاداً من غيّ وبصيرة من عمى وأمراً بمصلحة ونهياً عن مضرة ومفسدة وهداية إلى نور وإخراجاً من ظلمة وزجراً عن هوى وحثاً على تقى وجلاء لبصيرة وحياة لقلب وغذاء ودواء وشفاء وعصمة ونجاة وكشف شبهة وإيضاح برهان وتحقيق حق وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدى وشفاء ونوراً وحياة: هل وجدوا ذلك أو شيئاً منه في الدف والمزمار ونغمة الشادن ومطربات الألحان والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمٰن ومحب الأوطان. ومحب الإخوان ومحب العلم والعرفان ومحب الأموال والأثمان ومحب النسوان والمردان ومحب الصلبان فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشيء ساكنه ويزعج قاطنه فيثور وجده ويبدو شوقه فيتحرك على حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائناً ما كان ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقاً في السماع وحالاً ووجداً وبكاء.

ويا لله العجب أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله ويعاقب عليه. من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى فإن غالب التغزل والتشبيب إنما هو في الصور المحرمة. ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه في امرأته وأمته وأم ولده. مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء في

جلد الثور الأسود فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب: أن يتقرب إلى الله ويزداد إيماناً وقرباً منه وكرامة عليه بالتذاذه بما هو بغيض إليه مقيت عنده يمقت قائله والراضي به وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع وسنة نبيه ﷺ يا لله إن هذا القلب مخسوف به ممكور به منكوس لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه ومطالعة أسراره فبلاه بقرآن الشيطان كما في معجم الطبراني وغيره مرفوعاً وموقوفاً «إن الشيطان قال يا ربِّ اجعل لي قرآناً قال قرآنك الشعر. قال اجعل لي كتاباً قال كتابك الوشم قال اجعل لي مؤذناً قال مؤذنك المزمار قال اجعل لي بيتاً قال بيتك الحمام قال اجعل لي مصائد قال مصائدك النساء قال اجعل لي طعاماً قال طعامك ما لم يذكر عليه اسمي» والله سبحانه وتعالى أعلم.

## فصل

القسم الثاني من السماع ما يبغضه الله ويكرهه ويمدح المعرض عنه وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه كسماع الباطل كله إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقَصَدَ أن يعلم به حسن ضده فإن الضد يظهر حسنه الضد كما قيل:

وإذا سمعتُ إلى حديثك زادني    حباً له سمعي حديث سواكا

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه والمعرضين عنه بقوله تعالى: [٢٨ : ٥٥] **﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾** وقوله تعالى: [٢٥ : ٧٢] **﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾** قال محمد بن الحنفية هو الغناء. وقال الحسن أو غيره أكرموا نفوسهم عن سماعه. قال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل. وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه وتَبَرّمهم به وصياحهم بالقارىء إذا طول عليهم وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه فلا تتحرك ولا تطرب ولا تهيج منها بواعث الطلب فإذا جاء قرآن

الشيطان فلا إلـه إلا الله كيف تخشع منهم الأصـوات وتهدأ الحـركات وتسكن القلوب وتـطمئن ويقع البكـاء والوجـد والحركـة الظاهـرة والباطنـة والسماحـة بالأثمان والثياب وطيب السهر وتمني طـول الليل فـإن لم يكن هذا نفـاقاً فهـو آخِيّة النفاق وأساسه. انتهى.

وأمـا قـولكم لم يقم دليـل على تحـريم السمـاع: فيقـال لـك: أي السمـاعات تعني وأي المسمـوعات تـريد فـالسماعـات والمسموعـات: منهـا المحرم والمكروه والمباح. والواجب والمستحب فعين نـوعاً يقـع الكلام فيـه نفياً وإثباتاً فإن قلت سماع القصائد قيل لك أي القصائد تعني. ما مدح به الله ورسـوله ودينـه وكتابـه وهجي به أعـداؤه فهـذه لم يـزل المسلمـون يـروونهـا ويسمعـونها ويتـدارسونهـا وهي التي سمعها رسـول الله ﷺ وأصحابـه وأثـاب عليها وحرض حساناً عليها وهي التي غَرَّت أصحاب السماع الشيطاني فقالوا: تلك قصائد وسماعنا قصائد فنعم إذن. والسنة كلام. والبدعة كلام. والتسبيح كلام والغيبة كلام. والدعاء كلام والقـذف كلام. ولكن هـل سمع رسـول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطاني المشتمل على أكثـر من مفسدة مـذكورة في غير هذا الموضع[1] وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها. ونظير هذا ما غـرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن وأَذَنه لـه وإذنه فيـه ومحبة الله لـه. فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم بـالغناء المقـرون بالمعازف والشاهد وذكر القَدِّ والنهد والخصر ووصف العيون وفعلها. والشعـر الأسـود ومحاسن الشبـاب. وتوريـد الخـدود وذكر الـوصـل والصـد والتجني والهجـران والعتاب والاستعـطاف والاشتيـاق والقلق والفـراق ومـا جـرى هـذا المجرى مما هـو أفسد للقلب من شـرب الخمر بمـا لا نسبة بينهمـا وأي نسبة سكـر يوم ونحـوه إلى سكـرة العشق التي لا يستفيق الـدهـر صـاحبهـا إلا في عسكر الهالكين سليباً حريبـاً أسيراً قتيـلاً. وهل تقـاس سكرة الشـراب بسكرة الأرواح بالسماع وهل يظن بحكيم أن يحـرم سكر المفسـدة فيه معلومة ويبيح سكراً مفسدته أضعاف أضعـاف مفسدة الشـراب حاشـا أحكم الحاكمين فـإن

(١) في كتابه (إغاثة اللهفان عن مصائـد الشيطان) فقـد أطال القـول هناك، ووفـاه بما لا يـدع مجالاً لقائل ولا اعتذاراً لمعتذر.

نازعوا في سكر السماع وتأثيره في العقول والأرواح خرجوا عن الذوق والحس وظهرت مكابرة القوم. فكيف يحمي الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ويبيح له ما فيه أعظم السقم والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب وسقمها بسكر السماع. وكلامنا مع واجد لا فاقد فهو المقصود بالخطاب. وأعجب من هذا استدلالكم على إباحة السماع المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية بغناء بنتين صغيرتين دون البلوغ عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح بأبيات من أبيات العرب في وصف الشجاعة والحروب ومكارم الأخلاق والشيم فأين هذا من هذا. والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم فإن الصديق الأكبر رضي الله عنه سمى ذلك مزموراً من مزامير الشيطان. وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين ولا مفسدة في إنشادهما ولا استماعهما. أفيدلّ هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى. فيا سبحان الله كيف ضلت العقول والأفهام وأعجب من هذا كله الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد وهل حرم أحد مطلق الشعر؟.

وأعجب من هذا الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا: [٢ : ٢٧٥] ﴿**إنما البيع مثل الربا**﴾ وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان. والأوتار والعيدان وأصوات أشباه النساء من المردان والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب. وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القِمْري والبلبل والهزار ونحوها. بل نقول لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور ومعاذ الله أن يكونا سواء.

والذي يفصل النزاع في حكم هذه المسألة ثلاث قواعد من أهم قواعد الإيمان والسلوك فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جرف هار.

القاعدة الأولى: أن الذوق والحال والوجد، هل هو حاكم أو محكوم

عليه فيحكم عليه بحاكم آخر ويتحاكم إليه. فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة حيث جعلوه حاكماً فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع وفيما هو صحيح وفاسد وجعلوه محكاً للحق والباطل فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص وحكموا فيها الأذواق والأحوال والمواجيد فعظم الأمر وتفاقم الفساد والشر وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم وانعكس السير. وكان إلى الله فصيروه إلى النفوس فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله وهؤلاء يعبدون نفوسهم.

القاعدة الثانية: أنه إذا أوقع النزاع في حكم فعل من الأفعال أو حال من الأحوال أو ذوق من الأذواق هل هو صحيح أو فاسد وحق أو باطل وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين وهي وحيه الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه وتعرض عليه وتوزن به فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول وما أبطله ورده فهو الباطل المردود ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله فليس على شيء من الدين وإن وإن وإنما معه خدع وغرور [٢٤ : ٣٩] ﴿**كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب**﴾.

القاعدة الثالثة: إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء هل هو الإباحة أو التحريم فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي ولا سيما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يغضب الله ورسوله موصلاً إليه عن قرب وهو رُقْية له ورائد وبريد فهذا لا يشك في تحريمه أولو البصائر فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر لأنه يسوق النفس إلى السكر الذي يسوقها إلى المحرمات. ثم يبيح ما هو أعظم منه سَوْقاً للنفوس إلى الحرام بكثير فإن الغناء كما قال ابن مسعود رضي الله عنه هو (رقية الزنا) وقد شاهد الناس أنه ما عاناه صبي إلا فسد. ولا امرأة إلا وبغت ولا شاب إلا وإلا ولا شيخ إلا وإلا والعيان من ذلك يغني عن البرهان ولا سيما إذا جمع هيئة تحدو النفوس أعظم حَدْوٍ إلى المعصية

والفجور بأن يكون على الوجه الذي ينبغي لأهله من المكان والإمكان والعُشراء والإخوان وآلات المعازف من اليراع والدُّف والأوتار والعيدان.

## فصل

وإذا لم يكن بدّ من المحاكمة إلى الذوق فهلم نحاكمك إلى ذوق لا ننكره نحن ولا أنت غير هذه الأذواق التي ذكرناها. فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود وحالة فرح ورضى بموجود وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان. وله بمقتضى الحالة الأولى عبودية الرضاء وهي للسابقين والصبر وهي لأصحاب اليمين. وله بمقتضى الحالة الثانية عبودية الشكر والشاكرون فيها أيضاً نوعان: سابقون وأصحاب يمين فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين بصوتين أحمقين فاجرين هما للشيطان لا للرحمٰن صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه في حديث أنس رضي الله عنه: «إنما نهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين صوت وَيْلٍ عند مصيبة وصوت مزمار عند نعمة» ووافق ذلك راحة من النفس وشهوة ولذة وَسَرَت فيها تلك الرقائق حتى تعبّد بها من قلّ نصيبه من النور النبوي. وقلّ مشربه من العين المحمدية وانضاف ذلك إلى صدق وطلب وإرادة مضادة لشهوات أهل الغي وأهل البطالة ورأوا قساوة قلوب المنكرين لطريقتهم وكثافة حجبهم وغلظة طباعهم وثقل أرواحهم وصادف ذلك تحريكاً لسواكنهم وانقياداً للواعج الحب وإزعاجاً للنفوس إلى أوطانها الأولى[1] ومعاهدها التي سبيت منها والنفوس الطالبة المرتاضة السائرة لا بد لها من محرك يحركها وحادٍ يحدوها وليس لها من حادي القرآن عوض عن حادي السماع. فتركب من هذه الأمور إيثار منهم للسماع ومحبة صادقة له تزول الجبال عن أماكنها ولا

---

(١) إن الذي يتحرك عند سماع الغناء والموسيقى ويطرب ويستيقظ ويتلذذ هو النفس البهيمية لا النفس الإنسانية ولذلك استدلوا عليه بما تجده البهائم والطيور والوحوش عند سماعها للغناء والموسيقى والحداء فهي تتحرك حركة بهمية لا تجد من الإنسانية الكريمة المفكرة المميزة يقظة ورشداً تكبح به جماحها.

تفارق قلوبهم إذ هو مثير عزماتهم ومحرك سواكنهم ومزعج بواطنهم. فدواء صاحب مثل هذا الحال أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة مع الإمعان في تفهم معانيه وتدبر خطابه قليلاً قليلاً إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات ويلبس محبة سماع الآيات ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه فحينئذ يعلم هو من نفسه أنه لم يكن على شيء ويتمثل حينئذ بقول القائل:

وكنت أرى أن قد تناهى بي الهوى إلى غاية ما فوقها لي مطلب
فلما تلاقينا وعاينت حسنها تيقنت أني إنما كنت ألعب

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر أمر معلوم بالضرورة من الدين لا يمتري فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر الذي هو للشيطان وكذلك النوح ضد الصبر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النائحة وقد ضربها حتى بدا شعرها وقال: لا حرمة لها إنها تأمر بالجزع وقد نهى الله عنه وتنهى عن الصبر وقد أمر الله به وتفتن الحي وتؤذي الميت وتبيع عبرتها وتبكي شَجْو غيرها. ومعلوم عند الخاصة والعامة أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير والذي شاهدناه نحن وغيرنا وعرفناه بالتجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط الله عليهم العدو وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر والله المستعان.

وأما السماع منه فإنما يتصور بواسطة فهو سماع مقيد وأما المطلق فلا مطمع فيه في عالم الغناء إلا لمن اختصه الله برسالاته وبكلامه ولكن السماع لكلامه كالسماع منه فإنه كلامه الذي تكلم به حقاً فمن سمعه فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله هذا هو السماع من الله لا سماع أرباب الخيال ودعوى المحال القائل أحدهم ناداني في سري وخاطبني وقال لي: يا ليت شعري من المنادي لك ومن المخاطِب يا مخدوع يا مغرور فما يدريك. أنداء شيطاني أم رحماني وما البرهان على أن المخاطِب لك هو الرحمٰن. نعم نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث وإنما الشأن في المنادي المخاطِب المحدث فها هنا تسكب العبرات.

وبالجملة فمن قرىء عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به فإذا حصل له مع ذلك السماع به وله وفيه ازدحمت معاني المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه وازدلفت إليه بأيهما يبدأ فما شئت من علم وحكمة وتعرف وبصيرة وهداية وعبرة. وأما الوقوف على الغاية في كل حين فهو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة بالمسموع الذي جعل وسيلة إليها وهو الحق سبحانه فإنه غاية كل مطلب [٥٣ : ٤٢] ﴿**وأَنَّ إلى ربك المنتهى**﴾ وليس وراء الله مرمى ولا دونه مستقر ولا تقر العين بغيره ألبتة وكل مطلوب سواه فظل زائل وخيال مفارق مائل وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور.

## فصل

منزلة الحزن. وليست من المنازل المطلوبة ولا المأمور بنزولها وإن كان لا بد للسالك من نزولها ولم يأت الحزن في القرآن إلا منهياً عنه أو منفياً فالمنهي عنه كقوله تعالى: [٣ : ١٣٩] ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا**﴾ وقوله تعالى: [١٦ : ١٢٧] ﴿**ولا تحزن عليهم**﴾ في غير موضع وقوله تعالى: [٩ : ٤٠] ﴿**لا تحزن إن الله معنا**﴾ والمنفي كقوله تعالى: [٢ : ٣٨] ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ وسر ذلك أن الحزن موقف غير مُسَيِّر ولا مصلحة فيه للقلب وأحب شيء إلى الشيطان أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ويوقفه عن سلوكه قال الله تعالى: [٥٨ : ١٠] ﴿**إنما النجوى من الشيطان لِيَحْزُنَ الذين آمنوا**﴾ ونهى النبي ﷺ الثلاثة أن يتناجىٰ اثنان منهم دون الثالث لأن ذلك يحزنه فالحزن ليس بمطلوب ولا مقصود ولا فيه فائدة وقد استعاذ منه النبي ﷺ فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن» فهو قرين الهم والفرق بينهما أن المكروه الذي يرد على القلب إن كان لما يستقبل أورثه الهم وإن كان لما مضى أورثه الحزن وكلاهما مضعف للقلب عن السير مفتر للعزم وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «ما يصيب المؤمن من هَمّ ولا نصب ولا حَزَنٍ إلا كفر الله به من خطاياه» فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد يكفر بها من سيئاته لا يدل على أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه وأما حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ أنه كان متواصل الأحزان فحديث لا يثبت وفي إسناده

من لا يعرف وكيف يكون متواصل الأحزان وقد صانه الله عن الحزن على الدنيا وأسبابها ونهاه عن الحزن على الكفار وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فمن أي يأتيه الحزن بل كان دائم البشر ضحوك السن كما في صفته الضحوك القتّال صلوات الله وسلامه عليه وأما الخبر المروي «إن الله يحب كل قلب حزين» فلا يعرف إسناده ولا من رواه ولا تعلم صحته وعلى تقدير صحته فالحزن مصيبة من المصائب التي يبتلي الله بها عبده فإذا ابتلي به العبد فصبر عليه أحب صبره على بلائه. وأما الأثر الآخر: «إذا أحب الله عبداً نصب في قلبه نائحة وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مزماراً» فآثر إسرائيلي قيل إنه في التوراة وله معنى صحيح فإن المؤمن حزين على ذنوبه. والفاجر لاهٍ لاعب مترنم فرح وأما قوله تعالى عن نبيه إسرائيل [١٢ : ٨٤] ﴿**وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم**﴾ فهو إخبار عن حاله بمصابه بفقد ولده وحبيبه وأنه ابتلاه بذلك كما ابتلاه بالتفريق بينه وبينه. انتهى.

## فصل

منزلة الخوف وهي من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب وهي فرض على كل أحد قال الله تعالى: [٣ : ١٧٥] ﴿**فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾ وقال تعالى: [٢ : ٤٠] ﴿**فإياي فارهبون**﴾ وقال تعالى: [٥ : ٤٤] ﴿**فلا تخشوا الناس واخشون**﴾ ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: [٢٣ : ٥٧ ـ ٦١] ﴿**إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ـ** إلى قوله ـ **أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**﴾ وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله قول الله تعالى: ﴿**والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة**﴾ أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: «لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه» قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم إن المؤمن جمع إحساناً وخشية والمنافق جمع إساءة وأمناً. والوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو حفص الخوف سوط الله يُقَوِّم به الشاردين عن بابه. وقال: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير

والشر وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه فالخائف هارب من ربه إلى ربه. قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا أزال عنهم الخوف ضلوا الطريق. والخوف ليس مقصوداً لذاته بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل ولهذا يزول بزوال المخوف فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والخوف يتعلق بالأفعال. والمحبة تتعلق بالذات والصفات ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم ولا يلحقهم فيها خوف ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه. والخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. قال أبو عثمان: صِدقُ الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية خوف المكر في جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظة المشوبة بالحلاوة) يريد أن من حصلت له اليقظة بلا غفلة واستغرقت أنفاسه فيها استحلى ذلك فإنه لا أحلى من الحضور في اليقظة فإنه ينبغي أن يخاف المكر وأن يسلب هذا الحضور واليقظة والحلاوة فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين على الشمال بينما بَدْرُ أحواله مستنيراً في ليالي التمام إذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام فبُدِّل بالإنس وحشة وبالحضور غيبة وبالإقبال إعراضاً وبالتقريب إبعاداً وبالجمع تفرقة.

## فصل

القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ومتى قطع

الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائـد وكاسـر. ولكن السلف استحبوا أن يقوي في الصحة جناح الخـوف على جناح الـرجاء وعنـد الخـروج من الدنيـا يقوي جنـاح الرجـاء على جناح الخـوف هذه طـريقة أبي سليمـان وغيره قـال: ينبغي للقلب أن يكون الغـالب عليه الخـوف فـإن غلب عليـه الرجـاء فسد وقـال غيره أكمـل الأحوال اعتـدال الرجـاء والخوف وغلبـة الحب فالمحبة هي المركب والرجاء حاد والخـوف سائق والله المـوصل بمنـه وكرمه.

## فصل

منـزلة الإشفـاق: قـال الله تعـالى: [٢١ : ٤٩] ﴿**الـذين يخشـون ربهم بـالغيب وهم من الساعـة مشفقون**﴾ وقـال تعـالى: [٥٢ : ٢٥ ـ ٢٧] ﴿**وأقبـل بعضهم على بعض يتسـاءلون. قـالوا إنـا كنا قبـل في أهلنا مشفقين. فمنّ الله علينـا ووقانـا عذاب السمـوم**﴾ الإشفاق رقـة الخوف وهـو خوف بـرحمـة من الخائف لمن يخاف عليـه فنسبته إلى الخـوف نسبة الـرأفة إلى الـرحمة فـإنها ألطف الرحمة وأرقها ولهذا قال صاحب المنازل: (الإشفاق دوام الحذر مقروناً بـالترحم وهـو على ثلاث درجـات الأولى إشفـاق على النفس أن تجمـح إلى العنـاد) أي تُسرع وتـذهب إلى طـريق الهـوى والعصيـان ومعـانـدة العبـوديـة (وإشفـاق على العمل أن يصيـر إلى الضياع) أي يخـاف على عمله أن يكون من الأعمـال التي قال الله فيهـا: [٢٥ : ٢٣] ﴿**وقدمنـا إلى ما عملوا من عمـل فجعلناه هباء منثوراً**﴾ وهي الأعمال التي كانت لغير الله وعلى غيـر أمره وسنـة رسوله ﷺ ويخاف أيضاً أن يضيع عمله في المستقبل إما بتركه وإما بمعـاصي تفرقه وتحبطه فيذهب ضائعاً ويكون حال صاحبه كـالحال التي قـال الله تعالى عن أصحابها [٢ : ٢٦٥] ﴿**أيـود أحدكم أن تكـون له جنـة من نخيل وأعنـاب تجـري من تحتها الأنهـار لـه فيهـا من كـل الثمـرات**﴾ الآيـة. قـال عمـر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة رضي الله عنهم: فيمن ترون هذه الآية نزلت فقالوا الله أعلم فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم فقـال ابن عباس في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين قال يـا بـن أخي قل ولا تَحْقِـرَنَّ نفسك قـال

ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل قال عمر أي عمل قال ابن عباس: لعمل قال عمر لرجل غني يعمل بطاعة الله فبعث الله إليه الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع ماله.

قال صاحب المنازل: (وإشفاق على الخليقة لمعرفة معاذيرها) هذا قد يوهم نوع تناقض فإنه كيف يشفق مع معرفة العذر. وليس بمتناقض فإن الإشفاق كما تقدم خوف مقرون برحمة فيشفق عليهم من جهة مخالفة الأمر والنهي مع نوع رحمة بملاحظة جريان القدر عليهم.

قال: (الدرجة الثانية إشفاق على الوقت أن يشوبه تفرق) أي: يحذر على وقته أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل وعلى القلب أن يزاحمه عارض) والعارض المزاحم إما فترة وإما شبهة وإما شهوة وكل سبب يعوق السالك. قال: (وعلى اليقين أن يداخله سبب) هو الطمأنينة إلى من بيده الأسباب كلها فمتى داخل يقينه ركونه إلى سبب وتعلق به واطمأن إليه قدح ذلك في يقينه وليس المراد قطع الأسباب عن أن تكون أسباباً والإعراض عنها فإن هذا زندقة وكفر ومحال فإن الرسول سبب في حصول الهداية والإيمان والأعمال الصالحة سبب لحصول النجاة ودخول الجنة والكفر سبب لدخول النار والأسباب المشاهدة أسباب لمسبباتها ولكن الذي يريد أن يحذر منه إضافة يقينه إلى سبب غير الله ولا يتعلق بالأسباب بل يغنى بالمسبب عنها قال: (الدرجة الثالثة إشفاق يصون سعيه عن العُجب ويكف صاحبه عن مخاصمة الخلق ويحمل المريد على حفظ الجِدّ) الأول يتعلق بالعمل والثاني بالخُلُق والثالث بالإرادة وكل منها له ما يفسده. فالعجب يفسد العمل كما يفسده الرياء فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه. والمخاصمة للخلق مفسدة للخُلُق فيشفق على خلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه. والإرادة يفسدها عدم الجد وهو الهزل واللعب فيشفق على إرادته مما يفسدها فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته استقام سلوكه وقلبه وحاله والله المستعان.

# فصل

منزله الخشوع: قال الله تعالى: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق**﴾ وقال تعالى: [٢٣ : ١] ﴿**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ والخشوع في أصل اللغة الانخفاض والذل والسكون قال تعالى: [٢٠ : ١٠٨] ﴿**وخشعت الأصوات للرحمٰن**﴾ أي سكنت وذلّت وخضعت ومنه وصف الأرض بالخشوع وهو يبسها وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالري والنبات قال تعالى: [٤١ : ٤٩] ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾ والخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه وقيل الخشوع الانقياد للحق وهذا من موجبات الخشوع فمن علاماته أن العبد إذا خولف وَرُدَّ عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد. وقيل الخشوع خمود نيران الشهوة وسكون دخان الصدور وإشراق نور التعظيم في القلب. وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره ورأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» وقال النبي ﷺ: «التقوى ههنا وأشار إلى صدره ثلاث مرات» وقال بعض العارفين حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن ورأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن فقال: يا فلان الخشوع ههنا وأشار إلى صدره لا ههنا وأشار إلى منكبيه وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو حذيفة يقول: إياكم وخشوع النفاق فقيل له وما خشوع النفاق قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع. ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب. ورأت عائشة رضي الله عنها شباباً يمشون ويتماوتون في مشيتهم فقالت لأصحابها: من هؤلاء فقالوا: نُسّاك فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع وإذا قال أسمع وإذا ضرب أوجع وإذا أطعم أشبع وكان هو الناسك حقاً. وقال حذيفة رضي الله عنه: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ورب مصل لا خير فيه ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً.

وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

والحق أن الخشوع معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار قال: (وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى التذلل للأمر والاستسلام للحكم والاتضاع لنظر الحق) التذلل للأمر تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال ومواطأة الظاهر الباطن مع إظهار الضعف والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل والإعانة عليه حال الفعل وقبوله بعد الفعل وأما الاستسلام للحكم فيجوز أن يريد به الحكم الديني الشرعي فيكون معناه عدم معارضته برأي أو شهوة. ويجوز أن يريد به الاستسلام للحكم القدري وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض. والحق أن الخشوع هو الاستسلام للحكمين وهو الانقياد بالمسكنة والذل لأمر الله وقضائه. وأما الاتضاع لنظر الحق فهو اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها واطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: [٥٥: ٤٦] ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ وقوله تعالى: [٧٩: ٤٠] ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى**﴾ وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية. فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه. والتأويل الثاني أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه. فعلى الأول يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل. وعلى الثاني وهو أليق بالآية يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف والله أعلم.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية: ترقب آفات النفس والعمل ورؤية فضل كل ذي فضل عليك) يريد انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك فإنه يجعل القلب خاشعاً لا محالة؛ لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما من الكبر والعجب والرياء وضعف الصدق وقلة اليقين وتشتت النية وعدم تجرد الباعث من الهوى النفساني وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربك وغير ذلك من عيوب النفس ومفسدات الأعمال.

وأما رؤية فضل كل فضل عليك فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم فلا تعاوضهم عليها فإن هـذا من رعونـات النفس وحماقاتها ولا تطالبهم بحقوق نفسك، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم وتنسى فضل نفسك. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: العـارف لا يرى لـه على أحد حقـاً ولا يشهد لـه على غيره فضـلاً ولذلـك لا يعاقب ولا يطالب ولا يضارب.

وفـي الدرجة الثالثة قـال: (وتصفية الوقت من مراءاة الخلق) وأمـا تصفية الوقت من مراءاة الخلق فلا يريـد به أن يصفي وقتـه عن الريـاء فإن أصحـاب هذه الدرجة أجل قـدراً وأعلى من ذلك. وإنمـا المراد أنـه يُخفي أحوالـه عن الخلق جهده كخشوعه وذله وانكساره لئلا يراها الناس فيعجبه اطـلاعهم عليها ورؤيتهم لهـا فيفسد عليـه وقته وقلبـه وحالـه مع الله وكم قـد انقـطع في هـذه المفازة من سالك والمعصوم من عصمه الله تعالى.

## فصل

فإن قيل مـا تقولـون في صلاة من عـدم الخشوع هـل يعتد بهـا أم لا: قيل: أما الاعتداد بها في الثواب فلا يعتد له فيها إلا بما عَقَل فيه منهـا وخشع فيه لربه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها. وفي المسند مرفوعاً «إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها أو ثلثهـا أو ربعها حتى بلغ عشرهـا» وقـد علق الله فلاح المصلين بـالخشوع في صلاتهم فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح ولو اعْتُدَّ له بها ثواباً لكان من المفلحين. وأما الاعتداد بها في أحكـام الدنيـا وسقوط القضـاء فإن غلب عليها الخشوع وتعقلهـا اعتد بهـا إجماعـاً وكانت السنن والأذكـار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها. وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها وعدم تعقلها فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها. فأوجبها أبو عبدالله بن حامد من أصحـاب أحمد وأبو حـامد الغـزالي في إحيائـه لا في وسيطه وبسيـطه. واحتجوا بـأنها صلاة لا يثاب عليهـا ولم يضمن له فيهـا الفلاح فلم تبـرأ ذمته منهـا. ويسقط القضـاء عنه كصـلاة المـرائي. قـالـوا: ولأن الخشـوع والعقـل روح الصـلاة

ومقصودها ولُبُّها فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها وبقيت صورتها وظاهرها؟.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته وعزل له عنها فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها وقد عزل ملكها وتعطل. قالوا: والأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه وتفسد بفساده فإذا لم يكن قائماً بعبوديته فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس فأنّى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه وعن أمرنه يصدرون وبه يأتمرون (إلى آخر حججهم).

قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال: (إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضى التأذين أقبل فإذا ثوّب بالصلاة أدبر فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه فَيُذَكِّره ما لم يكن يذكر ويقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظَلَّ الرجل لا يدري كم صلى فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس» قالوا: فأمره النبي ﷺ في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها حتى لم يدرِ كم صلى بأن يسجد سجدتي السهو ولم يأمره بإعادتها ولو كانت باطلة كما زعمتم لأمره بإعادتها. قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو ترغيماً للشيطان في وسوسته للعبد وكونه حال بينه وبين الحضور في الصلاة ولهذا سماها النبي ﷺ (المرغمتين) وأمر من سها بهما ولم يُفَصِّل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير والغالب والمغلوب وقال «لكل سهو سجدتان» ولم يستثن من ذلك السهو الغالب مع أنه الغالب قالوا ولأن شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة وأما حقائق الإيمان الباطنة فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب فلله تعالى حكمان حكم في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح. وحكم في الآخرة على الظواهر والبواطن ولهذا كان النبي ﷺ يقبل علانية المنافقين ويَكِلُ أسرارهم إلى الله. فيناكحون. ويرثون ويورثون ويعتد بصلاتهم في أحكام الدنيا فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة

وأحكام الثواب والعقاب ليست إلى البشر بل إلى الله والله يتولاه في الدار الآخرة. قالوا: فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائي مع أنه لا يسقط عنه العقاب ولا يحصل له الثواب في الآخرة فصلاة المسلم الغافل المبتلي بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره أولى بالصحة. نعم لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلاً ولا آجلاً فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل في القلب من قوة إيمانه واستنارته وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة والفرح والسرور واللذة التي تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله وحضر قلبه بين يديه كما يحصل لمن قَرَّبه السلطان منه وخصه بمناجاته والإقبال عليه والله أعلى وأجلّ. وكذلك ما يحصل لهذا من الدرجات العلى في الآخرة ومرافقة المقربين كل هذا يفوته بفوات الحضور والخضوع وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كلامنا في هذا كله. فإن أردتم وجوب الإعادة لتحصل هذه الثمرات والفوائد فذاك إليه إن شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها على نفسه وإن أردتم بوجوبها أنا نلزمه بها ونعاقبه على تركها ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا. وهذا القول الثاني أرجح القولين والله أعلم.

**انتهى من الجزء الأول**

* * *

# الجزء الثاني

# بسم الله الرحمن الرحيم

## منزلة الإخبات

قال الله تعالى: [٢٢ : ٣٤] ﴿وبشر المخبتين﴾ ثم كشف عن معناهم فقال: ﴿**الذين إذا ذكر الله وَجِلَت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾ وقال: [١١ : ٢٣] ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾ والخَبْت في أصل اللغة المكان المنخفض من الأرض وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ المخبتين وقالا هم المتواضعون. وقال مجاهد المخبت المطمئن إلى الله عز وجل قال: والخبت المكان المطمئن من الأرض. وقال الأخفش الخاشعون. وقال إبراهيم النخعي المصلون المخلصون. وقال الكلبي هم الرقيقة قلوبهم وقال عمرو بن أوس هم الذين لا يظلمون وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع والسكون إلى الله عز وجل ولذلك عُدّي بإلى تضميناً لمعنى الطمأنينة والإنابة والسكون إلى الله.

قال صاحب المنازل: (هو من أول مقامات الطمأنينة) كالسكينة واليقين والثقة بالله ونحوها فالإخبات مقدمتها ومبدؤها.

قال: (وهو ورود المأمَنِ من الرجوع والتردد).

لما كان الإخبات أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد الذي هو نوع غفلة وإعراض والسالك مسافر إلى ربه سائر إليه على مدى أنفاسه لا ينتهي مسيره إليه ما دام نفسه يصحبه شَبَّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يرده المسافر على ظمأ وحاجة في أوّل مناهله فيرويه مورده ويزيل عنه خواطر تردده في إتمام سفره أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر فإذا ورد ذلك الماء زال عنه التردد وخاطِرُ الرجوع كذلك السالك إذا ورد مورد الإخبات تخلص من التردد والرجوع ونزل أول منزل الطمأنينة بسفره وجَدَّ في السير.

وأما الفتنة التي تقطع عليه الطريق فهي الواردات التي ترد على القلوب تمنعها من مطالعة الحق وقصده فإذا تمكن من منزل الإخبات وصحة الإرادة والطلب لم يطمع فيه عارض الفتنة. وهذه العزائم لا تصح إلا لمن أشرق على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات وتجلت عليه معانيها وكافَحَ قلبه حقيقة اليقين بها.

وقد قيل: من أخذ العلم من عين العلم ثبت. ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشبه ومالت به العبارات واختلفت عليه الأقوال.

اعلم أنه متى استقرت قدم العبد في منزلة الإخبات وتمكن فيها ارتفعت همته وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم فلا يفرح بمدح الناس، ولا يحزن لذمهم. هذا وصف من خرج عن حظ نفسه وتأهل للفناء في عبودية ربه وصار قلبه مطرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه. والوقوف عند مدح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب وخلوه من الله وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه.

فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عز وجل وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل فلا بد أن ينتهي إليه ولكن منهم من هو شاق عليه ومنهم من هو سهل عليه وإنه ليسير على من يسره الله عليه وفي ذلك الجبل أودية وشعوب وعقبات ووهود وشوك وعوسج وعُلَّيق وشبرق. ولصوص يقطعون الطريق على السائرين ولا سيما أهل الليل المدلجين فإذا لم يكن

معهم عُدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات وإلا تعلقت بهم تلك الموانع وتشبثت بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السير. فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته. والشيطان على قُلَّة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوّفهم منه فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قُلَّته وضعف عزيمة السائر ونيته فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع والمعصوم من عصمه الله. وكلما رقي السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه فإذا قطعه وبلغ قلته انقلبت تلك المخاوف كلهنّ أماناً وحينئذ يسهل السير وتزول عنه عوارض الطريق ومشقة عقباتها. ويرى طريقاً واسعاً آمناً يفضي به إلى المنازل والمناهل وعليه الأعلام وفيه الإقامات وقد أعدت لركب الرحمٰن.

فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

## فصل

منزلة الزهد. قال الله تعالى: [١٦: ٩٦] ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**﴾ وقال تعالى: [٥٧: ٢٠] ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ وقال تعالى: [١٠: ٢٤] ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض**﴾ الآية وقال تعالى: [١٨: ٤٥ و٤٦] ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ـ إلى قوله ـ وخيراً أملاً**﴾ وقال تعالى: [٤: ١٥] ﴿**قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى**﴾ وقال تعالى: [٨٧: ١٤ ـ ١٥] ﴿**بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى**﴾ وقال تعالى: [٢٠: ١٣١] ﴿**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى**﴾ وقال تعالى: [١٨: ٧ و٨] ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً. وإنا**

**لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾** وقال تعالى: [٤٣: ٣٣ - ٣٥] **﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن لبيوتهم سقفاً من فضة - إلى قوله - والآخرة عند ربك للمتقين﴾** والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

وقد أكثر الناس من الكلام في الزهد وكل أشار إلى ذوقه ونطق عن حاله وشاهده. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة، وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء.

وقال الجنيد: الزهد في قوله تعالى: [٥٧: ٢٣] **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾** فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ولا يأسف منها على مفقود.

وقال ابن الجلاء الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال فتصغر في عينك فيسهل عليك الإعراض عنها.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل الزهد على ثلاثة أوجه: الأول ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص والثالث ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين. وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد.

والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة. وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد. كالزهد

لعبدالله بن المبارك. ولـلإمام أحمـد. ولوكيـع. ولهناد بن السـري. ولغيرهم ومتعلقه ستة أشياء لا يستحق العبد اسم الـزهد حتى يـزهد فيهـا وهي المال. والصور. والرياسة. والناس. والنفس. وكل ما دون الله، وليس المراد رفضها من الملك فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهمـا ولهما من المال والملك والنساء ما لهما وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق ولـه تسع نسـوة. وكان علي بن أبي طـالب وعبـدالـرحمٰن بن عـوف والـزبيـر وعثمـان رضي الله عنهم من الـزهـاد مـع مـا كـان لهم من الأمـوال. وكـان الحسن بن علي رضي الله عنـه من الزهـاد مع أنـه كان من أكثـر الأمـة محبـة للنساء ونكاحاً لهن وأغناهم. وكـان عبدالله بن المبـارك من الأئمة الـزهاد مـع مال كثير. وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد وكان له رأس مال يقول لولا هو لتمندل بنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن أو غيره ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منـك بما في يـدك وأن تكون في ثـواب المصيبة إذا أصبت بهـا أرغب منك فيهـا لو لم تصبك فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه وقد روي مرفوعاً.

الزهد في الشبهة فهو تـرك ما يشتبـه على العبد هـل هو حـلال أو حرام كما في حديث النعمـان بن بشير رضي الله عنهمـا عن النبي ﷺ «الحلال بين والحـرام بين وبين ذلك أمـور مشتبهات لا يعلمهن كثيـر من الناس فمن اتقى الشبهات اتقى الحرام ومن وقع في الشبهات وقـع في الحرام كـالراعي يـرعى حول الحمى يوشـك أن يرتـع فيه ألا وإن لكـل ملك حمى ألا وإن حمى الله محـارمه ألا وإن في الجسـد مُضْغة إذا صلحت صلح لهـا سائـر الجسـد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب» انتهى.

قـال: وعمارة الوقت. الاشتغال في جميـع آنائـه بما يقـرب إلى الله أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب أو منكح أو منام أو راحة فإنـه متى أخذهـا بنية القوة على ما يحبه الله وتجنب ما يسخطه كانت من عمارة الوقت وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحسب عمـارة الوقت بهجـر اللذات والطيبـات. فالمحب

الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه وجماع أهله وراحته ؛ أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان. وقد حكي عن بعضهم أنه كان يرد عليه وهو على بطن امرأته حال لا يعهدها في غيرها. ولهذا سبب صحيح وهو اجتماع قوى النفس وعدم التفاتها حينئذ إلى شيء مع ما يحصل لها من السرور والفرح والسرور يذكر بالسرور. واللذة تذكر باللذة فتنهض الروح من تلك الفرحة والـذة إلى ما لا نسبة بينها وبينها بتلك الجمعية والقوة والنشاط وقطع أسباب الالتفات فيورثه ذلك حالاً عجيبة. ولا تعجل بالإنكار وانظر إلى قلبك عند هجوم أعظم محبوب له عليه في هذه الحال كيف تراه فهكذا حال غيرك. ولا ريب أن النفس إذا نالت حظاً صالحاً من الدنيا قويت به وسرت واستجمعت قواها وجمعيتها وزال تشتتها. اللهم اغفر فقد طغى القلم وزاد الكلم فعياذاً بك اللهم من مقتك.

## فصل
## منزلة الورع

الورع يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله ويؤثر كل منهما في الآخر ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها وبهجتها وكسفتها. حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر وليسا عليهما.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة فقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» فهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة فهذه الكلمة كافية مشافية في الورع.

وقال إسحاق بن خلف: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة والزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة لأنهما يبذلان في طلب الرياسة.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل وقال الورع على وجهين ورع في الظاهر وورع في الباطن فورع الظاهر أن لا يتحرك إلا لله وورع الباطن هو أن لا تدخل قلبك سواه وقال: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقيل: الورع الخروج من الشهوات وترك السيئات.

وقيل: من دق في الدنيا ورعه أو نظره؛ جل في القيامة خطره.

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة عين.

وقال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع ما حاك في نفسك فاتركه.

وسأل الحسن غلاماً فقال له: ما مِلاك الدين قال: الورع قال: فما آفته قال: الطمع. فعجب الحسن منه.

وقال الحسن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

وقال بعض الصحابة: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام.

قال: وأما (توفير الحسنات) فمن وجهين: أحدهما توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعداً لتحصيلها والثاني: توفير الحسنات المفعولة عن نقصها بموازنة السيئات وحبوطها كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها فلا بد أن تضعفها قطعاً فتجنبها يوفر ديوان الحسنات وذلك بمنزلة من له مال حاصل فإذا استدان عليه فإما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

وأما (صيانة الإيمان) فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وقد حكاه الشافعي وغيره عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فإن العبد كما جاء في الحديث «إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء. فإن تاب واستغفر صقل قلبه وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى حتى تعلو قلبه» وذلك الران الذي قال الله تعالى: [٨٣: ١٤] ﴿**كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ فالقبائح تسود القلب وتطفىء نوره. والإيمان هو نور في القلب والقبائح تذهب به أو تقلله قطعاً فالحسنات تزيد نور القلب والسيئات تطفىء نور القلب وقد أخبر الله عز وجل أن كسب القلوب سبب للران الذي يعلوها وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا فقال تعالى: [٤: ٨٨] ﴿**والله أركسهم بما كسبوا**﴾ وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه على عباده سبب لتقسية القلب فقال: [٥: ١٣] ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به**﴾ فجعل ذنب النقض موجباً لهذه الآثار من تقسية القلب واللعنة وتحريف الكلم ونسيان العلم فالمعاصي للإيمان كالمرض والحمى للقوة سواء بسواء ولذلك قال السلف: المعاصي بريد الكفر كما أن الحمى بريد الموت.

وأما (التخلص من اقتحام الحدود): فالحدود هي النهايات وهي مقاطع الحلال والحرام فحيث ينقطع وينتهي فذلك حده فمن اقتحمه وقع في المعصية وقد نهى الله تعالى عن تعدي حدوده وقربانه فقال تعالى: [٢: ١٨٧] ﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾ وقال: [٢: ٢٢٩] ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها**﴾ فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال وحيث نهى عن القربان فالحدود هناك أوائل الحرام. يقول سبحانه لا تتعدوا ما أبحت لكم ولا تقربوا ما حرمت عليكم. فالورع: يخلص العبد من قربان هذه وتعدي هذه وهو اقتحام الحدود.

## فصل

الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل. وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد. والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء. والقناعة تثمر الرضاء والذكر

يثمر حياة القلب. والإيمان بالقدر يثمر التوكل ودوام تـأمل الأسمـاء والصفات يثمر المعرفة والورع يثمر الزهد أيضاً والتـوبة تثمـر المحبة أيضـاً ودوام الذكـر يثمرها والرضا يثمر الشكر والعزيمة والصبر يثمران جميـع الأحوال والمقـامات والإخـلاص والصدق كـل منهما يثمـر الآخر ويقتضيـه والمعرفـة تثمـر الخلق والفكر يثمر العزيمة والمراقبة تثمر عمارة الوقت وحفظ الأيام والحياء والخشية والإنابة وإماتة النفس وإذلالها وكسرها يوجب حياة القلب وعزه وجبـره ومعرفـة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل واستكثار ما منه واستقلال ما منك من الطاعات ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة تثمر اليقين وحسن التـأمل لمـا تـرى وتسمـع من الآيـات المشهـودة والمتلوة يثمـر صحـة البصيرة. وملاك ذلك كله أمران أحدهما أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبـرها وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله وأخذ نصيبك وحظك من كـل آية من آيـاته وتنـزلها على داء قلبك فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة موصلة إلى الرفيق الأعلى آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب ولا جـوع ولا عطش ولا فيهـا آفة من آفـات سائر الطريق ألبتة وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السـالكين فيها ويحميهم ويدفع عنهم ولا يعرف قدر هـذه الطريق إلا من عـرف طرق النـاس وغوائلهـا وآفاتها وقطاعها والله المستعان.

## فصل
## منزلة التبتل

(التبتل الانقطاع إلى الله بالكلية وقوله عـز وجل: [١٣ : ١٤] ﴿**لـه دعوة الحق**﴾ أي التجريد المحض).

ومراده بالتجريد المحض: التبتل عن ملاحظة الأعواض بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة فإذا أخـذها انصـرف عن باب المستأجر بخلاف العبد فإنه يخدم بمقتضى عبوديته لا للأجرة فهو لا ينصـرف عن باب سيده إلا إذا كان آبقاً والآبق قد خرج من شرف العبوديـة ولم يحصل له إطلاق الحرية فصـار بذلـك مركـوساً عنـد سيده وعنـد عبيده وغـاية شـرف

النفس دخـولها تحت رق العبـودية طـوعاً واختيـاراً ومحبة لا كـرهاً وقهـراً كما قيل:

شـرف النفـوس دخـــولهـا في رقهم      والعبـد يحـوي الفخـــر بـالتمليـــك

والذي حَسَّن استشهاده بقـوله (لـه دعوة الحق) في هـذا الموضـع إرادة هـذا المعنى وأنه تعـالى صاحب دعـوة الحق لذاتـه وصفـاتـه وإن لم يـوجب لداعيه بها ثوابـاً فإنـه يستحقها لـذاته فهـو أهل أن يعبـد وحده ويـدعى وحده ويقصـد ويشكر ويحمـد ويحب ويرجى ويخـاف ويتـوكـل عليـه ويستعـان بـه ويستجار به ويلجأ إليه ويصمد إليه فتكون الدعوة الإلٰهية الحق له وحده. ومن قام بقلبه هذا معرفة وذوقاً وحـالاً صح لـه مقام التبتـل والتجريـد المحض وقد فسـر السلف (دعوة الحق) بـالتوحيـد والإخلاص فيـه والصدق ومـرادهم هـذا المعنى فقـال علي رضي الله عنه دعـوة الحق التوحيـد وقال ابن عبـاس رضي الله عنهما شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل الدعاء بالإخلاص والـدعاء الخـالص لا يكون إلا لله ودعوة الحق دعوة الإلٰهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

قـال: (وهو على ثـلاث درجات الـدرجة الأولى تجـريـد الانقـطاع عن الحـظوظ واللحوظ إلى العـالم خوفـاً أو رجاء أو مبـالاة بحال) قلت: التبتـل يجمع أمرين اتصـالاً وانفصالاً لا يصـح إلا بهما فـالانفصال انقـطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمـة لمراد الـرب منه وعن التفـات قلبه إلى مـا سوى الله وخـوفاً منـه أو رغبة فيـه أو مبالاة بـه أو فكراً فيـه بحيث يشغل قلبـه عن الله. والاتصال لا يصح إلا بعد هذا الانفصال وهو اتصال القلب بالله وإقبـاله عليـه وإقامة وجهه له حباً وخوفاً ورجاء وإنابة وتوكلاً. ثم ذكر الشيخ مـا يعين على هـذا التجريـد وبأي شيء يحصـل فقال: (بحسم الـرجـاء بـالـرضى. وقـطع الخـوف بالتسليم ورفض المبـالاة بشهود الحقيقـة) يقول إن الذي يحسم مـادة رجـاء المخلوقين من قلبك هـو الرضى بحكم الله عـز وجل وقَسْمـه لـك فمن رضي بحكم الله وقسمه لم يبق لرجاء الخلق في قلبه مـوضع. والـذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله فإن من سلم لله واستسلم له وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وعلم أنه لن يصيبـه إلا ما كتب الله لـه

لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها وأن ما كتب لها لا بد أن يصيبها فلا معنى للخوف من غير الله بوجه. وفي التسليم أيضاً فائدة لطيفة وهي أنه إذا سلمها الله فقد أودعها عنده وأحرزها في حرزه وجعلها تحت كنفه حيث لا تنالها يَدُ غَدَرٍ عادٍ ولا بَغْيَ باغ عات. والذي يحسم مادة المبالاة بالناس شهود الحقيقة وهو رؤية الأشياء كلها من الله وبالله وفي قبضته وتحت قهره وسلطانه لا يتحرك منها شيء إلا بحوله وقوته ولا ينفع ولا يضر إلا بإذنه ومشيئته فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشهود.

قال: (الدرجة الثانية تجريد الانقطاع عن التعريج على النفس بمجانبة الهوى وتَنَسُّم رَوح الأنس وشَيْم برق الكشف) الفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها أن الأولى انقطاع عن الخلق وهذه انقطاع عن النفس وجعله بثلاثة أشياء: أولها مجانبة الهوى ومخالفته ونهي نفسه عنه لأن اتباعه يصد عن التبتل. وثانيها وهو بعد مخالفة الهوى تنسم روح الإنس بالله والرّوح للرّوح كالروح للبدن فهو روحها وراحتها وإنما حصل له هذا الروح لما أعرض عن هواه فحينئذ تنسم روح الإنس بالله ووجد رائحته إذ النفس لا بد لها من التعلق فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الأنس بالله وهَبَّت عليها نسماته فريّحتها وأحيتها. وثالثها شَيْمُ برق الكشف وهو مطالعته واستشرافه والنظر إليه ليعلم به مواقع الغيث ومساقط الرحمة وليس مراده بالكشف ههنا الكشف الجزئيّ السفلي المشترك بين البر والفاجر والمؤمن والكافر كالكشف عن مخبآت الناس ومستورهم وإنما هو الكشف عن ثلاثة أشياء هن منتهى كشف الصادقين أرباب البصائر.

أحدها الكشف عن منازل السير.

والثاني الكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال ومفسداتها.

والثالث الكشف عن معاني الأسماء والصفات وحقائق التوحيد والمعرفة.

# فصل
## منزلة الرجاء

قال الله تعالى: [١٧: ٥٧] ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيّهم أقربُ ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ فابتغاء الوسيلة إليه طلب القرب منه بالعبودية والمحبة فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب. والخوف. والرجاء. قال تعالى: [٢٩: ٥] ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ وقال: [١٨: ١١١] ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وقال تعالى: [٢: ٢١٨] ﴿أولئك الذين يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» وفي الصحيح عنه ﷺ: «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء».

الرجاء حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير. وقيل هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. وقيل هو الثقة بجود الرب تعالى. والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل فالأول كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها. والثاني كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل. قال شاه الكرماني :علامة صحة الرجاء حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.

فالأولان رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه. ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه. والثالث رجل متماد في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب. وللسالك نظران نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل ربه

وكرمه وبره. ونظر يفتح عليه باب الرجاء ولهذا قيل في حد الرجاء: هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى.

وقال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتَمَّ طيرانه وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وسئل أحمد بن عاصم ما علامة الرجاء في العبد فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر راجياً لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة وتمام عفوه عنه في الآخرة.

واختلفوا أي الرجائين أكمل. رجاء المحسن ثواب إحسانه أو رجاء المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه فطائفة رجحت رجاء المحسن لقوة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل مقرون بِذلَّة رؤية الذنب. قال يحيى بن معاذ يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أصفيها وأحررها وأنا بالآفات معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف. وقال أيضاً إلٰهي أحلى العطايا في قلبي رجاؤك وأعذب الكلام على لساني ثناؤك وأحب الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك.

وبالجملة فالرجاء ضروري للمريد السالك والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه وعيب يرجو إصلاحه وعمل صالح يرجو قبوله واستقامة يرجو حصولها ودوامها وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها. وأما حديث المعارضة والاعتراض فباطل فإن الراجي ليس معارضاً ولا معترضاً بل راغباً راهباً مؤملاً لفضل ربه. حسن الظن به متعلق الأمل ببره وجوده عابداً له بأسمائه (المحسن. البر. المعطي. الحليم. الغفور. الجواد. الوهاب. الرزاق) والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به.

والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه بل هو من أقوى الأسباب ولو تضمن معارضة واعتراضاً لكان ذلك في الدعاء والمسألة أولى فكان دعاء العبد ربه وسؤاله، أن يهديه ويوفقه ويسدده ويعينه على طاعته ويجنبه معصيته ويغفر ذنوبه ويدخله الجنة وينجيه من النار معارضة واعتراضاً لأن الداعي راج وطالب ما يرجوه فهو أولى حينئذ بالمعارضة والاعتراض.

فيالله العجب أي رعونة فيمن يجعل رجاء العبد ربه وطمعه في بره وإحسانه وفضله وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل ما يرجوه. فإذا كان العبد دائماً مستشرفاً بقلبه سائلاً بلسانه طالباً لفضل ربه فأي رعونة ههنا وهل الرعونة كل الرعونة إلا خلاف ذلك ومن العجب دعواهم خروجهم عن نفوسهم وهم أعظم الناس عبادة لنفوسهم وليس الخارج عن نفسه إلا من جعلها حبساً على مراد الله الديني الأمري النبوي وبذلها لله في إقامة دينه وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي فانغمس فيهم يمزقون أديمه ويرمونه بالعظائم ويخيفونه بأنواع المخاوف ويتطلبون دمه بجهدهم لا تأخذه في جهادهم في الله لومة لائم يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه قد زهدفي مدحهم وثنائهم وتعظيمهم وتشييخهم له وتقبيل يده وقضاء حوائجه يصيح فيهم بالنصائح جهاراً ويعلن لهم بها ويسر لهم إسراراً قد تجرد عن الأوضاع والقيود والرسوم وتعلق بمراضي الحي القيوم مقامه ساعة في جهاد أعداء الله ورباطه ليلة على ثغر الإيمان آثر عنده وأحب إليه من فناء ومشاهدات وأحوال هي أعظم عيش النفس وأعلى قوتها وأوفر حظها ويزعم أنه قد خرج عن نفسه فكيف حظها ولعله قد خرج عن مراد ربه من عبوديته إلى عين مراده وهو حظه ولو فتش نفسه لرأى ذلك فيها عياناً. وهل الرعونة كل الرعونة إلا دعواه أنه يحب ربه لعذابه لا لثوابه وأنه إذا أحبه وأطاعه للثواب كان ذلك حظاً وإيثاراً لمراد النفس بخلاف ما إذا أحبه وأطاعه ليعذبه فإنه لا حظ للنفس في ذلك. فوالله ليس في أنواع الرعونة والحماقة أقبح من هذا ولا أسمج وماذا يلعب الشيطان بالنفوس. وإن نفساً وصل بها تلبيس الشيطان إلى هذه الحالة المحتاجة إلى سؤال المعافاة. فزن أحوال الأنبياء والرسل والصديقين وسؤالهم ربهم على أحوال هؤلاء الغالطين الذين مَرَجت

بهم نفوسهم ثم قايس بينهما وانظر التفاوت فأين هذا من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وقوله لعمه العباس رضي الله عنه: «يا عباس يا عَمَّ رسول الله سَلِ الله العافية» وقوله للصديق الأكبر رضي الله عنه وقد سأله أن يُعَلِّمه دعاء يدعو به في صلاته: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» وقوله لصديقة النساء وقد سألته دعاء تدعو به إن وافقت ليلة القدر فقال: «قولي اللهم إنك عَفُوٌّ تحب العفو فاعفُ عني» وقوله في دعائه الذي كان لا يَدَعُه وإن دعاء أردفه إياه: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

وقد أثنى الله تعالى على خاصته وهم أولو الألباب بأنهم سألوه أن يقيهم عذاب النار فقالوا: [٣: ١٩١] ﴿**ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾ وقال ﷺ لأم حبيبة: «لو سألت الله أن يجيرك من عذاب النار لكان خيراً لك» وكان يستعيذ كثيراً من عذاب النار ومن عذاب القبر وأمر المسلمين أن يستعيذوا في تشهدهم من عذاب القبر وعذاب النار وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال حتى قيل إن هذا الدعاء واجب في الصلاة لا تصح إلا به. وهذا أعظم من أن نستقصيه.

ودخل رسول الله ﷺ على مريض يعوده فرآه مثل الفرخ فقال: «ما كنتَ تدعو به»، فقال: كنت أقول اللهم ما كنتَ معاقبني به في الآخرة فعاقبني به في الدنيا فقال: «سبحان الله إنك لا تطيق ذلك ألا سألتَ الله العفو والعافية» وفي المسند عنه ﷺ قال: «ما سُئل الله شيئاً أحب إليه من سؤال العفو والعافية» وقال لبعض أصحابه: «ما تقول إذا صليت» فقال: أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار أمَا إني لا أحسن دَنْدَنتك ولا دندنة معاذ فقال رسول الله ﷺ: «إنا حولها ندندن» فأين هذا من حال من قال لا أحبك لثوابك لأنه عين حظي وإنما أحبك لعقابك لأنه لا حظ لي فيه.

ومنها أن الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف فكل راج خائف وكل خائف راج. ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف قال الله تعالى: [٧١: ١٣] ﴿**مالكم لا ترجون لله وقاراً**﴾ قال كثير من المفسرين المعنى مالكم لا تخافون لله عظمة قالوا والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق أنه ملازم له فكل راج خائف من فوات مرجوه والخوف بلا رجاء يأس وقنوط وقال تعالى: [٤٥: ١٤] ﴿**قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله**﴾ قالوا في تفسيرها لا يخافون وقائع الله بهم كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه كان ذلك ألطف موقعاً وأحلى عند العبد وأبلغ من حصول ما لم يرجه وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذا الدار فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مَخُوفهم.

ومنها أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته من الذل والانكسار والتوكل والاستعانة والخوف والرجاء والصبر والشكر والرضى والإنابة وغيرها. ولهذا قدّر عليه الذنب وابتلاه به لتتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف. ومنها أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ما يوجب تعلق القلب بذكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته وتنقل القلب في رياضها الأنيقة وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة كما تقدم بيانه فإذا فني عن ذلك وغاب عنه فإنه حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعها مَنْ أحسن تأمله وتفكره في استخراجها وبالله التوفيق.

رجاء أرباب الرياضيات وهم المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها والاستبدال بها مألوفات هي خير منها وأكمل فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بصفاء الوقت والهمة من تعلقها بالملذوذات وتجريد الهم عن الالتفات إليها

وبلزوم شروط العلم وهو الوقوف عند حدود الأحكام الدينية فإن رجاءهم متعلق بحصول ذلك لهم واستقصاء حدود الحمية؛ والحمية العصمة والامتناع من تناول ما يخشى ضرره آجلاً أو عاجلاً وله حدود متى خرج العبد عنها انتقص عليه مطلوبه والوقوف على حدودها بلزوم شروط العلم. والاستقصاء في تلك الحدود بأمرين: بذل الجهد في معرفتها علماً. وأخذ النفس بالوقوف عندها طلباً وقصداً.

قال: (رجاء أرباب القلوب وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق. المبغض المنغص للعيش المزهد في الخلق) هذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها قال الله تعالى: [١٨ : ١١١] ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾ وقال تعالى: [٢٩ : ٥] ﴿**من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت**﴾ وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته وإليه شخصت أبصار المشتاقين ولذلك سلاّهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه وضرب لهم أجلاً يسكن نفوسهم ويطمئنها.

و(الاشتياق) هو سفر القلب في طلب محبوبه واختلف المحبون هل يبقى عند لقاء المحبوب أم يزول على قولين فقالت طائفة: يزول لأنه إنما يكون مع الغيبة وهو سفر القلب إلى المحبوب فإذا انتهى السفر واجتمع بمحبوبه وضع عصا الاشتياق عن عاتقه وصار الاشتياق أنساً به ولذة بقربه. وقالت طائفة بل يزيد ولا يزول باللقاء قالوا: لأن الحب يقوى بمشاهدة جمال المحبوب أضعاف ما كان حال غيبته وإنما يواري سلطانه فناءه ودهشته بمعاينة محبوبه حتى إذا توارى عنه ظهر سلطان شوقه إليه ولهذا قيل:

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة وتوابعها في كتابنا الكبير في المحبة وفي كتاب سفر الهجرتين.

وقوله (المنغص للعيش) فلا ريب أن عيش المشتاق منغص حتى يلقى محبوبه فهناك تقر عينه ويزول عن عيشه تنغيصه وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهيد لأن صاحبه طالب للإنس بالله والقرب منه فهو أزهد شيء في الخلق

إلا من أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه فهو أحب خلق الله إليه ولا يأنس من الخلق بغيره ولا يسكن إلى سواه. فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحباً ودع الناس كلهم جانباً.

وقوله: (وتمنع صاحبها من الرجوع إلى غثاثة الرخص) أهل العزائم بناء أمرهم على الجد والصدق فالسكون منهم إلى الرخص رجوع وبطالة.

وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل ليس على إطلاقه فإن الله عز وجل يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه. وفي المسند مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته» فجعل الأخذ بالرخص قبالة إتيان المعاصي وجعل حظ هذا المحبة وحظ هذا الكراهية وما عرض للنبي ﷺ أمران إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً. والرخصة أيسر من العزيمة وهكذا كان حاله في فِطْره وسفره وجمعه بين الصلاتين والاقتصار من الرباعية على ركعتين وغير ذلك. فنقول الرخصة نوعان أحدهما الرخصة المستقرة المعلومة من الشرع نصاً كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير عند الضرورة وإن قيل لها عزيمة باعتبار الأمر والوجوب فهي رخصة باعتبار الإذن والتوسعة وكفطر المريض والمسافر وقصر الصلاة في السفر وصلاة المريض إذا شَقَّ عليه القيام قاعداً وفطر الحامل والمرضع خوفاً على ولديهما ونكاح الأمة خوفاً من العنت ونحو ذلك فليس في تعاطي هذه الرخص ما يوهن رغبته ولا يرد إلى غثاثه ولا ينقص طلبه وإرادته ألبتة فإن منها ما هو واجب كأكل الميتة عند الضرورة ومنها ما هو راجح المصلحة كفطر الصائم المريض وقصر المسافر وفطره ومنها ما مصلحته للمترخص وغيره ففيه مصلحتان قاصرة ومتعدية كفطر الحامل والمرضع ففعل هذه الرخص أرجح وأفضل من تركها.

النوع الثاني: رخص التأويلات واختلاف المذاهب فهذه تتبعها حرام ينقص الرغبة ويوهن الطلب ويرجع بالمترخص إلى غثاثة الرخص.

## فصل
## منزلة الرعاية

وهي مراعاة العلم وحفظه بالعمل. ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص. وحفظه من المفسدات ومراعاة الحال بالموافقة وحفظه بقطع التفريق فالرعاية صيانة وحفظ. ومراتب العلم والعمل ثلاثة: رواية: وهي مجرد النقل وحمل المروي؛ ودراية: وهي فهمه وتعقل معناه؛ ورعاية: وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه فالنَّقَلة همتهم الرواية. والعلماء همتهم الدراية. والعارفون همتهم الرعاية.

وقوله: (أما رعاية الأعمال فتوفيرها بتحقيرها) فالتوفير سلامة من طرفي التفريط بالنقص والإفراط بالزيادة على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها. وأما تحقيرها فاستصغارها في عينه واستقلالها وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمر آخر وأنه لم يوفه حقه وأنه لا يرضى لربه بعمله ولا بشيء منه.

وقد قيل: علامة رضي الله عنك إعراضك عن نفسك. وعلامة قبول عملك احتقاره واستقلاله وصغره في قلبك. حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل وشرع النبي ﷺ عقيب الطهور التوبة والاستغفار. فمن شهد واجب ربه ومقدار عمله وعيب نفسه لم يجد بداً من استغفار ربه منه واحتقاره إياه واستصغاره وأما القيام بها فهو توفيتها حقها وجعلها قائمة كالشهادة القائمة والصلاة القائمة والشجرة القائمة على ساقها التي ليست بساقطة.

وقوله: (من غير نظر إليها) أي من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها مخافة العجب والمنة بها. فيسقط من عين الله ويحبط عمله.

وقوله: (وإجراؤها على مجرى العلم) هو أن يكون العمل على مقتضى العلم المأخوذ من مشكاة النبوة إخلاصاً لله تعالى وإرادة لوجهه وطلباً لمرضاته لا على وجه التزين بها عند الناس.

# فصل
## منزلة المراقبة

قال الله تعالى: [٥٢: ٢٣٥] ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ وقال تعالى: [٣٣: ٥٢] ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ وقال تعالى: [٥٧: ٤] ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ وقال تعالى: [٩٦: ١٤] ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ وقال تعالى: [٥٢: ٤٨] ﴿فإنك فأعيننا﴾ وقال تعالى: [٤٠: ١٩] ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وفي حديث جبريل عليه السلام أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال له: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

المراقبة دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات فكيف بحال المريدين فكيف بحال العارفين.

وقيل: من راقب الله في خواطره. عصمه في حركات جوارحه.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله وتعظيم ما عظم الله وتصغير ما صغر الله. وقيل: الرجاء يحرك إلى الطاعة والخوف يبعد عن المعاصي والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق. وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك. وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.

(وأما السرور الباعث) فهو الفرحة والتعظيم واللذة التي يجدها في تلك المداناة فإن سرور القلب بالله وفرحه به وقرة العين به لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة وليس له نظير يقاس به وهو حال من أحوال أهل الجنة حتى قال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا

إنهم لفي عيش طيب. ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئاً منه فَلْيَتهِم إيمانه وأعماله فإن للإيمان حلاوة من لم يذقها فليرجع وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان. وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان وَوَجد حلاوته فذكر الذوق والوجد وعلقه بالإيمان فقال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً» وقال: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه فإن الرب تعالى شكور يعني أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول. والقصد أن السرور بالله وقربه وقرة العين به تبعث على الازدياد من طاعته وتحث على الجد في السير إليه. قال: (الدرجة الثانية مراقبة نظر الحق برفض المعارضة بالإعراض عن الاعتراض ونقض رعونة التعرض) هذه مراقبة لمراقبة الله لك فهي مراقبة لصفة خاصة معينة وهي توجب صيانة الباطن والظاهر فصيانة الظاهر بحفظ الحركات الظاهرة وصيانة الباطن بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رفض معارضة أمره وخبره فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره ومن كل إرادة تعارض إرادته ومن كل شبهة تعارض خبره. ومن كل محبة تزاحم محبته وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين وكل تجريد سوى هذا فناقص وهذا تجريد أرباب العزائم.

والاعتراض ثلاثة أنواع سارية في الناس والمعصوم من عصمه الله منها.

النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشُّبهة الباطلة التي يسميها أربابها قواطع عقلية وهي في الحقيقة خيالات جهلية ومحالات ذهنية اعترضوا بها على أسمائه وصفاته عز وجل وحكموا بها عليه ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه

وأثبته له رسوله ﷺ وأثبتوا ما نفاه ووالوا بها أعداءه. وعادوا بها أولياءه وحرفوا بها الكلم عن مواضعه ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذكروا به وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون. والعاصم من هذا الاعتراض التسليم المحض للوحي فإذا سلم القلب له رأى صحة ما جاء به وأنه الحق بصريح العقل والفطرة فاجتمع له السمع والعقل والفطرة وهذا أكمل الإيمان ليس كمن الحربُ قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع: أحدها المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم المتضمنة تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى وتحريم ما أباحه وإسقاط ما أوجبه وإيجاب ما أسقطه وإبطال ما صححه وتصحيح ما أبطله واعتبار ما ألغاه وإلغاء ما اعتبره وتقييد ما أطلقه وإطلاق ما قيده. وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها والتحذير منها وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض وحذروا منهم ونفروا عنهم.

النوع الثاني: الاعتراض على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس الجاهلة والعجب أن أربابها ينكرون على أهل الحظوظ وكل ما هم فيه فحظ ولكن حَظهم متضمن مخالفة مراد الله والإعراض عن دينه. واعتقاد أنه قربة إلى الله فأين هذا من حظوظ أصحاب الشهوات المعترفين بذمها المستغفرين منها المقرين بنقصهم وعيبهم وأنها منافية للدين. وهؤلاء في حظوظ اتخذوها ديناً وقدموها على شرع الله ودينه واغتالوا بها القلوب واقتطعوها عن طريق الله فتولد من معقول أولئك وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة. وأذواق هؤلاء خراب العالم وفساد الوجود وهدم قواعد الدين وتفاقم الأمر وكاد لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه ويبين معالمه ويحميه من كيد من يكد.

النوع الثالث: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة التي لأرباب

الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله وحكموا بها بين عباده وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل.
وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس قدمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف والوجد: إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة. فجعلت كل طائفة قُبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه فهؤلاء يقولون لكم النقل ولنا العقل والآخرون يقولون أنتم أصحاب آثار وأخبار ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع ولنا السياسة. فيا لها من بلية عَمَّت فأعْمَتْ ورزية رَمَتْ فأصْمَتْ وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون وأهوية عصفت فصمّت منها الآذان وعميت منها العيون عطلت لها والله معالم الأحكام كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل.

النوع الرابع: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره وهذا اعتراض الجهال وهو ما بين جلي وخفي وهو أنواع لا تحصى وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله لرأى ذلك في قلبه عياناً فكل نفس معترضة على قَدر الله وقَسْمه وأفعاله إلا نفساً قد اطمأنت إليه وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها فتلك حظها التسليم والانقياد والرضى كل الرضاء.

(والرغب والرهب) رجاء الرحمة والخوف من النار وذكر سبحانه عباده الذين هم خواص خلقه وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم وجعل منها استعاذتهم به من النار فقال تعالى: [٢٥ : ٦٦] **﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب**

جهنم إن عذابها كان غراماً. . . إنها ساءت مُسْتَقَرّاً ومقاماً﴾ وأخبر عنهم أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار فقال تعالى: [٣: ١٦] ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ فجعلوا أعظم وسائلهم إليه وسيلة الإيمان وأن ينجيهم من النار وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الألباب أنهم كانوا يسألونه جنته ويتعوذون به من ناره فقال تعالى: [٣: ١٩٠ - ١٩٥] ﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ الآيات إلى آخرها ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله هي الجنة التي سألوها وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: [٢٦: ٨٢ - ٨٩] ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ فسأل الله الجنة واستعاذ به من النار وهو الخزي يوم البعث. وأخبرنا سبحانه عن الجنة أنها كانت وعْداً عليه مسؤولاً [٢٥: ١٦] أي يسأله إياها عباده وأولياؤه وأمر النبي ﷺ أمته أن يسألوا له في وقت الإجابة عقيب الأذان أعلى منزلة في الجنة وأخبر أن من سألها له حلت عليه شفاعته. وقال له سليم الأنصاري: أما إني أسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال: «أنا ومعاذ حولها ندندن» قالوا والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود الشارع من أمته ليكونا دائماً على ذكر منهم فلا ينسونهما ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار هو محض الإيمان.

(ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة) تحريضاً على عمله لها وأن تكون هي الباعثة على العمل لطال ذلك جداً وذلك في جميع الأعمال. قالوا: فكيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولاً ورسول الله ﷺ يحرض عليه ويقول: «من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية» «ومن قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة» «ومن كسا مسلماً على عرى كساه الله من حلل الجنة» «وعائد المريض في خَرَفة الجنة» والحديث مملوء من ذلك أفتراه يحرض المؤمنين

على مطلب معلول ناقص ويدع المطلب العالي البريء من شوائب العلل لا يحرضهم عليه قالوا: وأيضاً فالله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته ويستعيذوا به من ناره فإنه يحب أن يسأل ومن لم يسأله يغضب عليه وأعظم ما سئل الجنة وأعظم ما استعيذ به من النار فالعمل لطلب الجنة محبوب للرب مرضي له وطلبها عبودية للرب والقيام بعبوديته كلها أولى من تعطيل بعضها.

والتحقيق أن يقال الجنة ليست إسماً لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والحور العين والأنهار والقصور وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبداً فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك كما قال تعالى: [٩:٧٢] ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ وأتى به مُنَكَّراً في سياق الإثبات أي أيُّ شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة:

قليل منك يقنعني ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح حديث الرؤية «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى وجهه» وفي حديث آخر أنه سبحانه إذا تجلى لهم ورأوا وجهه عياناً نسوا ما هم فيه من النعيم وذهلوا عنه ولم يلتفتوا إليه ولا ريب أن الأمر هكذا وهو أجل مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة فإن المرء مع من أحب ولا تخصيص في هذا الحكم بل هو ثابت شاهداً وغائباً فأي نعيم وأي لذة وأي قرة عين وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها وقرة العين بها. وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب الذي لا شيء أجل منه ولا أكمل ولا أجمل قرة عين ألبتة؟ وهذا والله هو العَلَم الذي شمر إليه المحبون واللواء الذي أمه العارفون وهو روح مسمى الجنة وحياتها وبه طابت الجنة وعليه قامت. فكيف يقال لا يعبد الله طلباً لجنته ولا خوفاً من ناره.

وكذلك النار أعاذنا الله منها فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله

وهـانته وغضبـه وسخـطه والبعـد عنه أعـظم من التهـاب النـار في أجسـامهم وأرواحهم بـل التهـاب هـذه النـار في قلوبهم هـو الـذي أوجب التهـابهـا في أبدانهم ومنها سرت إليها، فمـطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهـداء والصالحين هو الجنة ومهربهم من النار والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل.

## فصل

قوله: (ولا مشاهداً لأحد فيكون متزيناً بـالمراءاة) هـذا فيه تفصيـل وهو أن المشاهدة في العمل لغير الله نـوعان: مشـاهدة تبعث عليـه أو تُقَوّي بـاعثه فهذه مراءاة خالصة أو مشوبة كما أن المشاهـدة القاطعـة عنه أيضـاً من الآفات والحجب ومشـاهـدة لا تبعث عليـه ولا تعين البـاعث بـل لا فـرق عنـده بين وجودها وعدمها فهـذه لا تدخله في التـزين بالمـراءاة ولا سيما عنـد المصلحة الراجحة في هذه المشاهدة إما حفظاً ورعاية كمشاهدة مريض أو مشـرف على هلكه يخاف وقوعه فيها أو مشاهـدة عدو يخـاف هجومـه كصلاة الخـوف عند المـواجهة. أو مشـاهدة نـاظر إليـك يريـد أن يتعلم منك فتكـون محسناً إليـه بالتعليم وإلى نفسك بالإخلاص أو قصداً منك للاقتداء وتعريف الجاهـل فهذا رياء محمود والله عند نية القلب وقصده.

فالرياء المذموم أن يكون الباعث قصد التعظيم والمدح والرغبة فيما عند من ترائيه أو الرهبة منه وأما ما ذكرنا من قصد رعايته أو تعليمه أو إظهار السنـة وملاحظة هجوم العدو ونحو ذلك فليس في هذه المشاهد رياء بل قد يتصـدق العبد رياء مثـلاً وتكون صـدقته فـوق صدقـة صاحب السـر. مثال ذلـك رجل مغرور سأل قوماً ما هو محتاج إليه فعلم رجل منهم أنه إن أعـطاه سراً حيث لا يراه أحد لم يقتـد به أحـد ولم يحصل لـه سوى تلك العـطية. وأنـه إن أعطاه جهـراً اقتُدِي بـه واتُبِع وأنِفَ الحـاضرون من تفـرده عنهم بالعـطيـة فجهـر لـه بالعطاء وكـان الباعثَ لـه على الجهر إرادةُ سعـة العطاء عليـه من الحاضـرين فهـذه مـراءاة محمـودة حيث لم يكن البـاعث عليهـا قصـد التعـظيم والثنـاء وصاحبها جدير بأن يحصل له مثل أجور أولئك المعطين.

وقد علمت أن الخوف وطلب الثواب ليس من عبادة النفس في شيء نعم التزين بالمراءاة عين عبادة النفس والكلام في أمر أرفع من هذا فإن حال المرائي أخس ونفسه أسقط وهمته أدنى من أن يدخل في شأن الصادقين ويذكر مع الصالحين والله سبحانه وتعالى أعلم.

## فصل

قال صاحب المنازل (الدرجة الثانية إجراء الخبر على ظاهره وهو أن تبقى أعلام توحيد العامة الخبرية على ظواهرها ولا يتحمل البحث عنها تعسفاً ولا يتكلف لها تأويلاً ولا يتجاوز ظواهرها تمثيلاً ولا يدعي عليها إدراكاً أو توهماً).

يشير الشيخ رحمه الله وقدس روحه بذلك إلى أن حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات بإجراء أخبارها على ظواهرها وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلى أذهان العامة. ولا يعني بالعامة الجهال بل عامة الأمة كما قال مالك رحمه الله وقد سئل عن قوله تعالى: [٢٠ : ٥] ﴿**الرحمٰن على العرش استوى**﴾ كيف استوى فأطرق مالك حتى علاه الرُّحَضاء ثم قال: الاستواء معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. ففرق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة وبين الكيف الذي لا يعقله البشر وهذا الجواب من مالك رضي الله عنه شافٍ عام في جميع مسائل الصفات فمن سأل عن قوله تعالى: [٢٠ : ٤٦] ﴿**إنني معكما أسمع وأرى**﴾ كيف يسمع ويرى أجيب بهذا الجواب بعينه فقيل له السمع والبصر معلوم والكيف غير معقول. وكذلك من سأل عن العلم والحياة والقدرة والإرادة والنزول والغضب والرضى والرحمة والضحك وغير ذلك فمعانيها كلها مفهومة وأما كيفيتها فغير معقولة إذ تَعَقُّل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها فإذا كان ذلك غير معقول للبشر فكيف يعقل لهم كيفية الصفات. والعصمة النافعة في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل تثبت له الأسماء والصفات وتنفي عنه مشابهة المخلوقات فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه ونفيك منزهاً عن التعطيل فمن نفى حقيقة

الاستواء فهو معطل ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل ومن قال استواء ليس كمثله شيء فهو الموحد المنزه، وهكذا الكلام في السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة واليد والوجه والرضى والغضب والنزول والضحك وسائر ما وصف الله به نفسه. والمنحرفون في هذا الباب قد أشار الشيخ إليهم بقوله: (لا يتحمل البحث عنها تعسفاً) أي لا يتكلف التعسف عن البحث عن كيفياتها (والتعسف) سلوك غير الطريق يقال: ركب فلان التعاسيف في سيره إذا كان يسير يميناً وشمالاً (ولا يتكلف لها تأويلاً) أراد بالتأويل ههنا التأويل الاصطلاحي وهو صرف اللفظ عن ظاهره وعن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح. وقد حكى غير واحد من العلماء إجماع السلف على تركه وممن حكاه البغوي. وأبو المعالي الجويني في رسالته النظامية بخلاف ما سلكه في (شامله) و(إرشاده) وممن حكاه سعد بن علي الزنجاني: وقبل هؤلاء خلائق من العلماء لا يحصيهم إلا الله (ولا يتجاوز ظاهرها تمثيلاً) أي لا يمثلها بصفات المخلوقين. وفي قوله لا يتجاوز ظاهرها إشارة لطيفة وهي أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل كما تظنه المعطلة النفاة وأن التمثيل تجاوزٌ لظواهرها إلى ما لا تقتضيه كما أن تأويلها تكلف وحمل لها على ما لا تقتضيه فهي لا تقتضي ظواهرها تمثلاً ولا تحتمل تأويلاً. بل إجراء على ظواهرها بلا تأويل ولا تمثيل فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل وأما قوله (ولا يدعي عليها إدراكاً) أي لا يدعي عليها استدراكاً ولا فهماً ولا معنى غير فهم العامة كما يدعيه أرباب الكلام الباطل المذموم بإجماع السلف وقوله (ولا توهماً) أي لا يعدل عن ظواهرها إلى التوهم والتوهم نوعان توهم كيفية لا تدل عليه ظواهرها أو توهم معنى غير ما تقتضيه ظواهرها وكلاهما توهم باطل وهما توهم تشبيه وتمثيل أو تحريف وتعطيل.

## فصل
## منزلة الاخلاص

قال الله تعالى: [٩٨: ٥] ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ وقال تعالى: [٣٩: ٢ و٣] ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله**

**مخلصاً له الـدين. ألا لله الدين الخـالص﴾** وقال لنبيـه ﷺ: [٣٩: ١٤ و١٥] **﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾** وقـال له: [٦: ١٦٢ و١٦٣] **﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريـك لـه وبذلـك أمرت وأنـا أول المسلمين﴾** وقال تعـالى: [٦٧: ٢] **﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾** قال الفضيل بن عياض هو أخلصه وأصوبه قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه فقال: إن العمل إذا كـان خالصـاً ولم يكن صـواباً لم يقبـل. وإذا كان صـواباً ولم يكن خـالصـاً لم يقبـل حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله والصواب أن يكـون على السنة ثم قرأ قوله تعالى: [١٨: ١١٠] **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عمـلاً صالحـاً ولا يشرك بعبادة ربه أحـداً﴾** وقال تعالى: [٤: ١٢٥] **﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهـه لله وهو محسن﴾** فـإسـلام الـوجـه إخـلاص القصـد والعمـل لله والإحسان فيه متابعة رسوله ﷺ وسنته وقال تعالى: [٢٥: ٢٣] **﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمـل فجعلناه هبـاء منثـوراً﴾** وهي الأعمـال التي كـانت على غيـر السنة أو أريد بهـا غير وجـه الله قال النبي ﷺ لسعـد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «إنك لن تُخَلّف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله تعالى إلا ازددت به خيراً ودرجـة ورفعة» وفي الصحيـح من حديث أنس بن مـالك رضي الله عنـه قال: قـال رسول الله ﷺ: «ثـلاث لا يَغِلُّ عليهن قلب مسلم إخـلاص العمـل لله. ومناصحة ولاة الأمـر ولزوم جمـاعة المسلمين فـإن دعوتهم تحيط من ورائهم» أي لا يبقى فيه غِلٌّ ولا يحمل الغِلَّ مع هذه الثـلاثة بـل تنفي عند غِله وتنقيـه منه وتخرجه عنه فـإن القلب يغل على الشـرك أعظم غـل. وكذلـك يغل على الغش وعلى خـروجه عن جمـاعة المسلمين بـالبدعـة والضلالـة فهذه الثـلاثة تملؤه غـلاً ودَغَلاً ودواء هـذا الغـل واستخـراج أخـلاطـه بتجـريـد الإخـلاص والنصح ومتابعة السنة. وسئـل رسول الله ﷺ عن الـرجل يقـاتل ريـاء ويقاتـل شجاعة ويقاتل حمية أي ذلك في سبيل الله فقال: «من قاتل لتكـون كلمة الله هي العليـا فهو في سبيـل الله» وأخبر عن أول ثـلاثـة تُسَعَّر بهم النـار قـارىء القرآن. والمجاهد. والمتصدق بمـاله الـذين فعلوا ذلك ليقـال فلان قـارىء. فـلان شجـاع. فـلان متصـدق ولم تكن أعمـالهم خـالصـة لله وفي الحـديث

الصحيح الإلٰهي يقول الله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء). وفي أثر آخر يقول له يوم القيامة: (اذهب فخذ أجرك ممن عملت له لا أجر لك عندنا) وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» وقال تعالى: [٢٢: ٣٧] **﴿لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾** وفي أثر مروي إلٰهي (الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي).

وقد تنوعت عبارتهم في الإخلاص والصدق والقصد واحد.

فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة. وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين: وقيل التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك. والصدق التنقي من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له. والصادق لا إعجاب له ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ولا الصدق إلا بالإخلاص ولا يتمان إلا بالصبر. وقيل من شهد في إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص فنقصان كل مخلص في إخلاصه بقدر رؤية إخلاصه فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص صار مخلصاً مُخلصاً. وقيل الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره. وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخلق ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله ومن كلام الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء. والعمل من أجل الناس شرك. والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله. وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس فقال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب. وقال مكحول: ما يخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. وقال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت على لون آخر. وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

## فصل

قال: (الإخلاص تصفية العمل من كل شوب).

أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس إما طلب التزين في قلوب الخلق. وإما طلب مدحهم والهرب من ذمهم أو طلب تعظيمهم أو طلب أموالهم أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عَقْد متفرقاتها هو إرادة ما سوى الله بعمله كائناً ما كان.

يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: رؤيته. وملاحظته. وطلب العوض عليه ورضاه به وسكونه إليه. فالذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له وأنه بالله لا بنفسه وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو كما قال تعالى: [٨١: ٢٩] ﴿**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ فهنا ينفعه شهود الجبر وأنه آلة محضة وأن فعله كحركات الأشجار وهبوب الرياح وأن المحرك له غيره والفاعل فيه سواه وأنه ميت والميت لا يفعل شيئاً وأنه لو خُلي ونفسَه لم يكن من فعله الصالح شيء ألبتة فإن النفس جاهلة ظالمة طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة وهي منبع كل شر ومأوى كل سوء وما كان هكذا لم يصدر منه خير ولا هو من شأنه فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله وبه لا من العبد ولا به كما قال تعالى: [٢٤: ٢١] ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء**﴾ وقال أهل الجنة: [٧: ٤٣] ﴿**الحمد لله الذي هدانا لهذا**﴾ وقال تبارك وتعالى لرسوله ﷺ: [١٧: ٧٤] ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً**﴾ وقال تعالى: [٤٩: ٧] ﴿**ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم**﴾ الآية. فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته وإحسانه ونعمته وهو المحمود عليه فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخلقية من سمعه وبصره وإدراكه وقوته بل من صحته وسلامة أعضائه ونحو ذلك فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله.

فالذي يخلص العبد من هذه الآفة معرفة ربه ومعرفة نفسه والذي يخلصه من طلب العوض على العمل علمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق

على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه وإنعام عليه لا معاوضة إذ الأجرة إنما يستحقها الحرّ أو عبد الغير فأما عبد نفسه فلا. والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران: أحدهما مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره فيه وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان فقلَّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل وللنفس فيه حظ سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» فإذا كان هذا التفاتُ طَرْفه أو لحظه فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية وقال ابن مسعود: لا يجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته يرى أن حقاً عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه فجعل هذا القدر اليسير النزر حظاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد فما الظن بما فوقه.

وأما حظ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون الثاني علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها. وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقاً. وأن يرضى بها لربه. فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه ولا يرضى نفسه لله طرفة عين ويستحي من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضى بعمله والرضى عن نفسه. وقال بعضهم آفة العبد رضاه عن نفسه ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

قوله: (تدعه يسير سير العلم وتسير أنت مشاهداً للحكم) ومعنى كلامه أنك تجعل عملك تابعاً للعلم موافقاً له مؤتماً به تسير بسيره وتقف بوقوفه وتتحرك بحركته نازلاً منازله مرتوياً من موارده ناظراً إلى الحكم الديني الأمري متقيداً به فعلاً وتركاً وطلباً وهرباً ناظراً إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سبباً وكسباً ومع ذلك فتسير أنت بقلبك مشاهداً للحكم الكوني القضائي الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات والحركات والسكنات ولا يبقى هناك غير محض المشيئة وتفرد الرب وحده بالأفعال ومصدرها عن إرادته ومشيئته فيكون قائماً بالأمر والنهي فعلاً وتركاً سائراً بسيره وبالقضاء والقدر إيماناً وشهوداً

وحقيقة فهو ناظر إلى الحقيقة قائم بالشريعة. وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين [٨٩ : ٢٨ و٢٩] ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم، وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ وقال تعالى: [٧٦ : ٢٩ و٣٠] ﴿إن هذه تذكرة. فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً. وما تشاؤن إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فترك العمل يسير سير العلم مشهد ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ وسير صاحبه مشاهداً للحكم مشهد ﴿وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ وأما قوله: (حُراً من رِقِّ الرسم) فالحرية التي يشيرون إليها هي عدم الدخول تحت عبودية الخلق والنفس. والدخول تحت رق عبودية الحق وحده.

## فصل
## منزلة التهذيب والتصفية

قال وهو على ثلاث درجات: الأولى تهذيب الخدمة أن لا يخالجها جهالة. ولا يشوبها عادة. ولا يقف عندها همة) أي تخليص العبودية وتصفيتها من هذه الأنواع الثلاثة النوع الأول مخالطة الجهال فإن الجهالة متى خالطت العبودية أوردها العبد غير موردها ووضعها في غير موضعها وفعلها في غير مُسْتَحِقِّها وفعل أفعالاً لا يعتقد أنها صلاح وهي إفساد لخدمته وعبوديته بأن يتحرك في موضع السكون أو يسكن في موضع التحرك. أو يفرق في موضع جمع أو يجمع في موضع فرق أو يطير في موضع سفوف أو يُسِفَّ في موضع طيران. أو يُقْدِم في موضع إحجام أو يُحْجِم في موضع إقدام. أو يتقدم في موضع وقوف أو يقف في موضع تقدم. ونحو ذلك من الحركات التي هي في حق الخدمة كحركات الثقيل البغيض في حقوق الناس.

فالخدمة ما لم يصحبها علم ثان بآدابها وحقوقها غير العلم بها نفسها كانت في مظنة أن تُبعد صاحبها وإن كان مراده بها التقرب ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب أبعدته عن المنزلة والقربة ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلا بمعرفة خاصة بالله وأمره ومحبة تامة له ومعرفة بالنفس وما منها.

النوع الثاني: شوب العادة وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام

عوائد النفس تكون منفذة لها معينة عليها وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة كمن اعتاد الصوم مثلاً وتمرن عليه فألِفَتْه النفس وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية وإنما هو تقاضي العادة وعلامة هذا أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك وأيسر منه وأتم مصلحة لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته.

النوع الثالث: وقوف همته عند الخدمة وذلك علامة ضعفها وقصورها فإن العبد المحض لا تقف همته عند خدمة بل همته أعلى من ذلك إذ هي طالبة لرضى مخدومه فهو دائماً مستصغر خدمته له ليس واقفاً عندها والقناعة تحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع فإنها عين الحرمان فالمحب لا يقنع بشيء دون محبوبه فوقوف همة العبد مع خدمته وأجرتها سقوط فيها وحرمان.

(تهذيب القصد وهو تصفيته من ذلك الإكراه) أي لا يسوق نفسه إلى الله كرهاً كالأجير المسخر المكلف بل تكون دواعي قلبه وجواذبه منساقة إلى الله طوعاً ومحبة وإيثاراً كجريان الماء في منحدره وهذه حال المحبين الصادقين فإن عبادتهم طوعاً ومحبة ورضى ففيها قرّة عيونهم وسرور قلوبهم ولذة أرواحهم كما قال النبي ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة» وكان يقول: «يا بلال أرحنا بالصلاة».

فقرة عين المحب ولذته ونعيم روحه في طاعة محبوبه بخلاف المطيع كرهاً المتحمل للخدمة ثقلاً. انتهى.

## فصل
## منزلة الاستقامة

قال الله تعالى: [٤١ : ٣٠] **﴿إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾** وقال تعالى: [٤٦ : ١٣ و١٤] **﴿إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾** وقال لرسوله ﷺ: [١١ : ١١٢] **﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك**

**ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾** فبين أن الاستقامة ضد الطغيان وهو مجاوزة الحدود في كل شيء وقال تعالى: [٤١ : ٦] **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه﴾** وقال تعالى: [٧٢: ١٦] **﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً. لنفتنهم فيه﴾** سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة فقال: أن لا تشرك بالله شيئاً يريد الاستقامة على محض التوحيد. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه استقاموا أخلصوا العمل لله. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما: استقاموا أدوا الفرائض. وقال الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: استقاموا على محبته وعبوديته فلم يلتفتوا عنه يَمْنة ولا يَسْرة. وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد فإن لم يقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» فجمع فيهذا الحديث مقامات الدين كلها فأمر بالاستقامة وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال وأخبر في حديث ثوبان أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم كالذي يرمي إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه ومع هذا فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة فلا يركن أحد إلى عمله ولا يعجب به ولا يرى أن نجاته به بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله. فالاستقامة كلمة

جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال. والأفعال. والأحوال والنيات فالاستقامة فيها وقوعها لله. وبالله. وعلى أمر الله. قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

## فصل

قال: (الاستقامة روح تحيا به الأحوال كما تربو للعامة عليها الأعمال) شبه الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت فكذلك الحال إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد وكما أن حياة الأحوال بها فزيادة أعمال الزاهدين أيضاً وربوها وزكاؤها بها فلا زكاء للعمل ولا صحة للحال بدونها.

## فصل

قال: (وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد لا عادياً رَسْم العلم ولا متجاوزاً حدّ الإخلاص ولا مخالفاً نهج السنة). هذه درجة تتضمن ستة أمور عملاً واجتهاداً فيه. وهو بذل المجهود. واقتصاداً وهو السلوك بين طرفي الإفراط وهو الجور على النفوس. والتفريط بالإضافة ووقوفاً مع ما يرسمه العلم لا وقوفاً مع داعي الحال. وإفراد المعبود بالإرادة وهو الإخلاص ووقوع الأعمال على الأمر وهو متابعة السنة. فبهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة إما خروجاً كلياً وإما خروجاً جزئياً. والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيراً. وهما الاقتصاد في الأعمال والاعتصام بالسنة فإن الشيطان يَشُمُّ قلب العبد ويختبره فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها وإن رأى فيه حرصاً على السنة وشدة طلب لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها قائلاً له إن هذا خير وطاعة والزيادة

والاجتهاد فيها أكمل فلا تفتر مع أهل الفتور ولا تنم مع أهل النوم فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها فيخرج عن حدها كما أن الأول خارج عن هذا الحد فكذا هذا الآخر خارج عن حد الآخر. وهذا حال الخوارج الذين يَحْقِر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف. وقال بعض السلف ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة وهي الإفراط. ولا يبالي بأيهما ظفر زيادة أو نقصان. وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «يا عبدالله بنَ عمرو إن لكل عامل شِرَّة ولكل شِرَّة فترة فمن كانت فترته إلى سنة أفلح. ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر» قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد وإخلاص مقرون بالاتباع كما قال بعض الصحابة اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم وكذلك الرياء في الأعمال يخرجه عن الاستقامة والفتور والتواني يخرجه عنها أيضاً.

## فصل
## منزلة التوكل

قال الله تعالى: [٥: ٢٦] ﴿**وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين**﴾ وقال تعالى: [١٤: ١٢] ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ وقال تعالى: [٦٥: ٣] ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ وقال عن أوليائه: [٦٠: ٤] ﴿**ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير**﴾ وقال لرسوله: [٦٧: ٢٩] ﴿**قل هو الرحمٰن آمنا به وعليه توكلنا**﴾ وقال لرسوله ﷺ: [٢٧: ٢٩] ﴿**فتوكل على الله إنك على الحق المبين**﴾ وقال له: [٤: ٨١] ﴿**وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً**﴾ وقال له: [٢٥: ٥٨] ﴿**وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده**﴾ وقال له: [٣: ١٩٥] ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾ وقال عن أنبيائه ورسله: [١٤: ١٢] ﴿**وما لنا ألا نتوكل على الله**

وقد هدانا سُبلنا﴾ وقال عن أصحاب نبيه: [٣:١٧٣] ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ وقال تعالى: [٨:٢] ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾ والقرآن مملوء من ذلك. وفي الصحيحين في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون» وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بطاناً» وفي السنن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال يعني إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: هُديت ووُقِيت وكُفيت فيقول الشيطان لشيطان آخر كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي».

التوكل نصف الدين. والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة.

## فصل

معنى التوكل وما قيل فيه:

قال الإمام أحمد التوكل عمل القلب ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب

بكفالة الرب للعبد. ومنهم من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء. وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار. ومنهم من يفسره بالرضى فيقول هو الرضى بالمقدور. قال بشر الحافي يقول أحدهم توكلت على الله يكذب على الله لو توكل على الله رضي بما يفعل الله. وسئل يحيى بن معاذ متى يكون الرجل متوكلاً فقال: إذا رضي بالله وكيلاً. ومنهم من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه. قال ابن عطاء التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها. قال ذو النون: هو ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه.

وقال بعضهم: التوكل التعلق بالله في كل حال. وقيل: نفي الشكوك والتفويض إلى مالك الملوك. ومنهم من جعله مُركباً من أمرين أو أمور فقال أبو سعيد الخراز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب يريد حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن. وسكون إلى المسبب وركون إليه ولا يضطرب قلبه معه ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه. وقال أبو تراب النَّخْشَبي هو طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية. فإن أعطي شكر وإن منع صبر. فجعله مركباً من خمسة أمور القيام بحركات العبودية. وتعلق القلب بتدبير الرب. وسكونه إلى قضائه وقدره. وطمأنينته وكفايته له. وشكره إذا أعطى وصبره إذا منع. قال أبو يعقوب النهرجوري التوكل على الله بكمال الحقيقة كما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام: (أمّا إلي فلا) لأنه غائب عن نفسه بالله فلم ير مع الله غير الله.

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد. قال سهل بن عبدالله من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان فالتوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته وهذا معنى

قول أبي سعيد: هو اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب وقول سهل أبين وأرفع.

## فصل

وحقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر. فأول ذلك معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته. وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل قال شيخنا رضي الله عنه ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين: بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء. ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه ولا هو فاعل باختياره ولا له إرادة ومشيئة ولا يقوم به صفة فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى والله سبحانه وتعالى أعلم.

## فصل

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات فإن من نفاها فتوكله مدخول وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل. وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً. ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله إن كان قد قُدّر حصل توكل أو لم يتوكل دعا أو لم يدع وإن لم يقدر لم يحصل توكل أيضاً أو ترك التوكل.

وصرح هؤلاء أن التوكل والدعاء عبودية محضة لا فائدة لهما إلا ذلك ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قدر له ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان عديم الفائدة إذ هو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمقي هؤلاء في كتاب له لا يجوز الدعاء بهذا وإنما يجوزه تلاوة لا دعاء. قال لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه لأن الداعي بين الخوف والرجاء والشك في وقوع ذلك شك في خبر الله فانظر إلى ما قاد إنكار الأسباب من العظائم وتحريم الدعاء بما أثنى الله على عباده وأوليائه بالدعاء به وبطلبه ولم يزل المسلمون من عهد نبيهم ﷺ وإلى الآن يدعون به في مقامات الدعاء وهو من أفضل الدعوات. وجواب هذا الوهم الباطل أن يقال بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه وهو الواقع وهو أن يكون قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها فإذا لم يجامع لم يخلق الولد. وقضى بحصول الشبع إذا أكل والري إذا شرب فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو. وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة. وقضى بدخول الجنة إذا أسلم وأتى بالأعمال الصالحة فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات لم يدخلها أبداً. وقضى بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته. وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض وإلقاء البذر فيها فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة. فوازن ما قاله منكرو الأسباب أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل ويقول: إن كان قضي لي وسبق في الأزل حصول الولد والشبع والري والحج ونحوها فلا بد أن يصل إليّ تحركت أو سكنت وتزوجت أو تركت سافرت أو قعدت وإن لم يكن قد قضي لي لم يحصل لي أيضاً فعلت أو تركت. فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء وهل البهائم إلا أفقه منه فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها. فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية والله سبحانه وتعالى أعلم.

## فصل

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده بل حقيقة التوكل توحيد القلب فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها فيكون منقطعاً منها متصلاً بها والله سبحانه وتعالى أعلم.

## فصل

الدرجة الرابعة اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسببها وعلامة هذا أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به فرأى حصناً مفتوحاً فأدخله ربه إليه وأغلق عليه باب الحصن فهو يشاهد عدوه خارج الحصن فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له وكذلك من أعطاه ملك درهماً فسرق منه فقال له الملك عندي أضعافه فلا تهتم متى جئت إليّ أعطيتك من خزائني أضعافه فإذا علم صحة قول الملك ووثق به واطمأن إليه وعلم أن خزائنه مليئة بذلك لم يحزنه فوته. وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه التفات إلى غيره. كما قال بعض العارفين المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه. كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

## فصل

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه ولذلك فَسَّرَ بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه والله أعلم.

## فصل

الدرجة السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته وبهذا فسره من قال أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير. وهذا معنى قول بعضهم التوكل إسقاط التدبير يعني الاستسلام لتدبير الرب لك وهذا في غير باب الأمر والنهي بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده وانقياده له وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده والله سبحانه وتعالى أعلم.

## فصل

الدرجة السابعة: التفويض. وهو روح التوكل ولُبُّهُ وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراراً بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له وتدبيره له فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه وراحته من حمل كُلَفَها وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته.

## فصل

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة الرضى وهي ثمرة

التوكيل ومن فسر التوكيل بها فإنما فسره بأجل ثمراته وأعظم فوائده فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله. وكان شيخنا رضي الله عنه يقول: المقدور يكتنفه أمران التوكل قبله والرضى بعده فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا. قلت: وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم» فهذا توكل وتفويض ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً أو آجلاً وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً فهذا هو حاجته التي سألها فلم يبق عليه إلا الرضى بما يقضيه له فقال: «وَاقْدُر لي الخير حيث كان ثم رَضني به» فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلٰهية والحقائق الإيمانية التي من جملتها التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور والرضى بعده وهو ثمرة التوكل. والتفويض علامة صحته فإن لم يرض بما قضى له فتفويضه معلول فاسد. فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل وتثبت قدمه فيه وهذا معنى قول بشر الحافي يقول أحدهم توكلت على الله يكذب على الله لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به. وقول يحيى بن معاذ وقد سئل متى يكون الرجل متوكلاً فقال: إذا رضي بالله وكيلاً.

## فصل

وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص فيشتبه التفويض بالإضاعة. فيضيع العبد حظه ظناً منه أن ذلك تفويض وتوكل وإنما هو تضييع لا تفويض فالتضييع في حق الله والتفويض في حقك. ومنه اشتباه التوكل بالراحة وإلقاء حمل الكَلِّ فيظن صاحبه أنه متوكل وإنما هو عامل على عدم الراحة. وعلامة ذلك أن المتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد مستريح من غيرها لتعبه بها والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة وتسقط به عنه مطالبة الشرع فهذا لون وهذا لون.

ومنه اشتباه خَلع الأسباب بتعطيلها فخلعها توحيد وتعطيلها إلحاد وزندقة فخلعها عدم اعتماد القلب عليها ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح. ومنه اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها كغارس الشجرة وباذر الأرض. والمغتر العاجز قد فرط فيما أمر به وزعم أنه واثق بالله والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود. ومنه اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه بالطمأنينة إلى المعلوم وسكون القلب إليه ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة كما يذكر عن أبي سليمان الداراني أنه رأى رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربه من ماء زمزم فمضى عليه أيام فقال له أبو سليمان يوماً: أرأيت لو غارت زمزم أي شيء كنت تشرب فقام فقبل رأسه وقال: جزاك الله خيراً حيث أرشدتني فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام ثم تركه ومضى. وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم وهم يظنون أنه إلى الله وعلامة ذلك أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره هَمُّه وَبَثُّه وخوفه فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله ومنه اشتباه الرضى عن الله بكل ما يفعل بعبده مما يحبه ويكرهه بالعزم على ذلك وحديث النفس به وذلك شيء والحقيقة شيء آخر. وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته. ومنه اشتباه علم التوكل بحال التوكل فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله فيظن أنه متوكل. وليس من أهل التوكل فحال التوكل أمر آخر من وراء العلم به وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها. وحال المحب العاشق وراء ذلك. وكمعرفة علم الخوف. وحال الخائف وراء ذلك وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق والعوارض بالمطالب والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

## فصل

التوكل من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات فله تعلق باسم: الغفار، والتواب، والعفو

والرؤوف، والرحيم، وتعلق باسم الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن، وتعلق باسم المعز، المذل، الحافظ، الرافع، المانع، من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر وتعلق بأسماء القدرة والإرادة وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى.

## فصل

وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ويمكنه نيلها بأيسر شيء وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ونصرة الدين والتأثير في العالم خيراً. فهذا توكل العاجز القاصر الهمة كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم. ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين والله أعلم.

قوله: (لأن الحق قد وكل الأمور إلى نفسه وأيأس العالم من ملك شيء منها) جوابه أن الذي تولى ذلك أسند إلى عباده كسباً وفعلاً وإقداراً واختياراً وأمراً ونهياً استعبدهم به وامتحن به من يطيعه ممن يعصيه ومن يؤثره ممن يؤثر عليه. وأمر بتوكلهم عليه فيما أسنده إليهم وأمرهم به وتعبدهم به وأخبر أنه يحب المتوكلين عليه كما يحب الشاكرين وكما يحب المحسنين وكما يحب الصابرين وكما يحب التوابين. وأخبر أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه وأنه كاف من توكل عليه وحسبه وجعل لكل عمل من أعمال البر ومقام من مقاماته جزاء معلوماً. وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته فقال: [٦٥: ٢] **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته﴾ ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾** الآية، ثم قال في التوكل: **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾** فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل ولم يجعله لغيره وهذا

يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه وليس كونه وكل الأمور إلى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة صارت حاله التوكل قطعاً على من هذا شأنه لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه وأن العبد لا يملك شيئاً منها فهو لا يجد بداً من اعتماده عليه وتفويضه إليه وثقته به من الوجهين من جهة فقره وعدم ملكه شيئاً ألبتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه والتوكل ينشأ من هذين العلمين. فإن قيل فإذا كان الأمر كله لله وليس للعبد من الأمر شيء فكيف يوكل المالك على ملكه وكيف يستنيبه فيما هو ملك له دون هذا الموكل فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكيل وسلموه إلى العامة وبقي الخطاب بالتوكل لهم دون الخاصة.

قيل: لما كان الأمر كله لله عز وجل وليس للعبد فيه شيء ألبتة كان توكله على الله تسليم الأمر إلى من هو له وعزل نفسه عن منازعات مالكه واعتماده عليه فيه وخروجه عن تصرفه بنفسه وحوله وقوته وكونه به إلى تصرفه بربه وكونه به سبحانه دون نفسه وهذا مقصود التوكل. وأما عزل العبد نفسه عن مقام التوكل فهو عزل لها عن حقيقة العبودية. وأما توجه الخطاب به إلى العامة فسبحان الله هل خاطب الله بالتوكل في كتابه إلّا خواص خلقه وأقربهم إليه وأكرمهم عليه وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه. وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل فمن لا توكل له لا إيمان له قال الله تعالى: ﴿**وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين**﴾ وقال تعالى: ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ وقال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾ وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة وأخبر تعالى عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم وأمر به رسوله في أربع مواضع من كتابه وقال: ﴿**وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مؤمنين. فقالوا: على الله توكلنا**﴾ فكيف يكون مِن أوهى السبل وهذا شأنه والله سبحانه وتعالى أعلم. وقوله: (ومعاطاة السبب على نية شغل النفس بالسبب مخافة ونفع الخلق وترك الدعوى) يقول يتوكل على الله ولا يترك

الأسباب بل يتعاطاها على نية شغل النفس بالسبب مخافة أن تفرغ فتشتغل بالهوى والحظوظ فإن لم يشغل نفسه بما ينفعها شغلته بما يضره لا سيما إذا كان الفراغ مع حدة الشباب وملك الجِدَة وميل النفس إلى الهوى وتوالي الغفلات كما قيل:

إن الشباب والفراغ والجدة مَفْسَدة للمرء أي مفسدة

ويكون أيضاً قيامه بالسبب على نية نفع النفس ونفع الناس بذلك فيحصل له نفع نفسه ونفع غيره. وأما تضمن ذلك لترك الدعوى فإنه إذا اشتغل بالسبب تخلص من إشارة الخلق إليه الموجبة لحسن ظنه بنفسه الموجب لدعواه فالسبب ستر لحاله ومقامه ومن وجه آخر وهو أن يشهد به فقره وذله وامتهانه امتهان العبيد والفَعَلة فيتخلص من رعونة دعوى النفس فإنه إذا امتهن نفسه بمعاطاة الأسباب سلم من هذه الأمراض. فيقال: إذا كانت الأسباب مأموراً بها ففيها فائدة أجلُّ من هذه الثلاث وهي المقصودة بالقصد الأول وهذه مقصودة قصد الوسائل وهي القيام بالعبودية والأمر الذي خُلق له العبد وأرسلت به الرسل وأنزلت لأجله الكتب وبه قامت السماوات والأرض وله وجدت الجنة والنار. فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية وحق الله على عبده الذي توجهت به نحوه المطالب وترتب عليه الثواب والعقاب والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله: (مع إسقاط الطلب) أي من الخلق لا من الحق.

قوله: (وغض العين عن التسبب الخ) وهذا الذي أشار إليه مذهب قوم من العباد والسالكين وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد ويرى حمل الزاد قدحاً في التوكل ولهم في ذلك حكايات مشهورة وهؤلاء في خفارة صدقهم وإلا فدرجتهم ناقصة عن العارفين ومع هذا فلا يمكن بشراً ألبتة ترك الأسباب جملة. فهذا إبراهيم الخواص كان مجرداً في التوكل يدقق فيه ويدخل البادية بغير زاد وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والركوة والمقراض فقيل له لم تحمل هذا وأنت تمنع من كل شيء فقال: مثل هذا لا ينقص من التوكل لأن الله علينا فرائض والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد فربما تخرق ثوبه فإذا لم

يكن معه إبرة وخيوط تبدو عـورته فتفسـد عليه صـلاته وإذا لم يكن معـه ركوة فسدت عليه طهارته وإذا رأيت الفقير بلا ركـوة ولا إبرة ولا خيـوط فاتهمـه في صلاته. أفلا تراه لم يستقم له دينـه إلا بالأسباب أو ليست حركة أقدامه ونقلهـا في الطريق والاستدلال على أعلامها إذا خفيت عليه من الأسباب فـالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً.

نعم قد تعرض للصـادق أحيانـاً قوة ثقـة بالله وحـال مع الله تحمله على ترك كل سبب مفـروض عليه كمـا تحمله على إلقاء نفسـه في مواضـع الهلكة ويكون ذلك الوقت بالله لا بـه فيأتيـه عدد من الله على مقتضى حـاله ولكن لا تدوم له هـذه الـحال وليست في مقتضى الـطبيعة فـإنها كـانت هجمة هجمت عليه بلا استدعاء فحمل عليها فإذا استدعى مثلها وتكلفها لم يُجَب إلى ذلـك وفي تلك الحال إذا ترك السبب يكون معذوراً لقوة الوارد وعجزه عن الاشتغال بالسبب فيكون في وارده عون له ويكون حاملاً له فإذا أراد تعاطي تلك الحـال بدون ذلك الوارد وقع في المحال.

وكـل تلك الحكـايـات الصحيحـة التي تحكى عن القـوم فهي جـزئيـة حصلت لهم أحيـاناً ليست طـريقاً مـأموراً بسلوكهـا ولا مقدورة وصـارت فتنـة لطائفتين طائفة ظنتها طـريقاً ومقـاماً فعملوا عليهـا فمنهم من انقطع ومنهم من رجـع ولـم يمكنه الاستمـرار عليها بـل انقلب على عقبيه وطـائفـة قـدحـوا في أربابها وجعلوهـم مخالفين للشرع والعقل مدعين لأنفسهم حالاً أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعـل ذلك ولا أخـلّ بشيء من الأسباب وقد ظاهر رسـول الله ﷺ بين درعين يوم أحـد ولـم يحضر الصف قط عرياناً كما يفعله من لا علم عنـده ولا معرفـة واستأجـر دليلاً مشـركاً على دين قومه يدله على طريق الهجرة وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين وكان يدخر لأهله قوت سنـة وهو سيـد المتوكلين وكـان إذا سافـر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه وهم أولو التوكل حقاً وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحـة توكلهم من مسيـرة بعيدة أو لحق أثراً من غبارهم فحـال النبي ﷺ وحال أصحـابه محـك الأحوال وميـزانها بهـا

يعلم صحيحها من سقيمها فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب وأن يعبد الله في جميع البلاد وأن يوحده جميع العباد وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد فملؤوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً فكانت همم الصحابة رضي الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي فيجعله نصب عينيه ويحمل عليه قوى توكله.

قوله: (فإن التوكل بعد وقوع السبب. والتفويض قبل وقوعه وبعده) يعني بالسبب الاكتساب فالمفوض قد فوض أمره إلى الله قبل اكتسابه وبعده. والمتوكل قد قام بالسبب وتوكل فيه على الله فصار التفويض أوسع، فيقال: والتوكل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده فيتوكل على الله أن يقيمه في سبب يوصله إلى مطلوبه فإذا قام به توكل على الله حال مباشرته فإذا أتمه توكل على الله في حصول ثمراته. فيتوكل على الله قبله ومعه وبعده فعلى هذا هو أوسع من التفويض على ما ذكر.

قوله: (وهو عين الاستسلام) أي التفويض عين الانقياد بالكلية إلى الحق سبحانه. ولا يبالي أكان ما يقضى له الخير أم خلافه والمتوكل يتوكل على الله في مصالحه. وهذا القدر هو الذي لحظه القوم في هضم مقام التوكل ورفع مقام التفويض عليه.

وجوابه من وجهين: أحدهما أن المفوض لا يفوض أمره إلى الله إلا لإرادته أن يقضى له ما هو خير له في معاشه ومعاده وإن كان المقضيُّ له خلاف ما يظنه خيراً فهو راض به لأنه يعلم أنه خير له وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه وهكذا حال المتوكل سواء. بل هو أرفع من المفوض لأن معه من عمل القلب ما ليس مع المفوض فإن المتوكل مفوض وزيادة فلا يستقيم مقام التوكل إلا بالتفويض فإنه إذا فَوَّضَ أمره إليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه. ونظير هذا أن من فوض أمره إلى رجل وجعله إليه فإنه يجد من نفسه

بعد تفويضه اعتماداً خاصاً وسكوناً وطمأنينة إلى المفوض إليه أكثرمما كان قبل التفويض وهذا هو حقيقة التوكل.

الوجه الثاني: إن أهم مصالح المتوكل حصول مراضي محبوبه ومحابه فهو يتوكل عليه في تحصيلها له فأي مصلحة أعظم من هذه. وأما التفويض فهو تفويض حاجات العبد المعيشية وأسبابها إلى الله فإنه لا يفوض إليه محابه. والمتوكل يتوكل عليه في محابه والوهم إنما دخل من حيث يظن الظان أن التوكل مقصور على معلوم الرزق وقوة البدن وصحة الجسم ولا ريب أن هذا التوكل ناقص بالنسبة إلى التوكيل في إقامة الدين والدعوة إلى الله.

قال: (وهو على ثلاث درجات الأولى أن يعلم أن العبد لا يملك قبل عمله استطاعة فلا يأمن من مكر ولا ييأس من معونة ولا يعول على نية) أي يتحقق أن استطاعته بيد الله لا بيده فهو مالكها دونه فإنه إن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجز فهو لا يتحرك إلا بالله لا بنفسه فكيف يأمن المكر وهو مُحرَّك لا محرِّك يحركه مَنْ حركته بيده فإن شاء ثبّطه وأقعده مع القاعدين كما قال فيمن منعه هذا التوفيق [٩: ٤٦] **﴿ولكن كَرِه الله انبعاثهم فثبَّطَهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾** فهذا مكر الله بالعبد أن يقطع عنه مواد توفيقه ويخلي بينه وبين نفسه. ولا يبعث دواعيه ولا يحركه إلى مراضيه ومحابه وليس هذا حقاً على الله فيكون ظالماً بمنعه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. بل هو مجرد فضله الذي يحمده على بذله لمن بذله وعلى منعه لمن منعه إياه فله الحمد على هذا وهذا. ومن فهم هذا فهم باباً عظيماً من سر القدر وانجلت له إشكالات كثيرة. فهو سبحانه لا يريد من نفسه فعلاً يفعله بعبده يقع منه ما يحبه ويرضاه فيمنعه فعل نفسه به وهو توفيقا لأنه يكرهه ويقهره على فعل مساخطه بل يَكِلْه إلى نفسه وحَوْله وقوته ويتخلى عنه فهذا هو المكر. قوله (ولا ييأس من معونة) يعني إذا كان المحرك له هو الرب جل جلاله وهو أقدر القادرين وهو الذي تفرد بخلقه ورزقه وهو أرحم الراحمين فكيف ييأس من معونته له. قوله (ولا يعول على نية) أي لا يعتمد على نيته وعزمه ويثق بها فإن نيته وعزمه بيد الله تعالى لا بيده وهي إلى الله لا إليه فلتكن ثقته بمن هي في يده حقاً لا بمن هي جارية عليه حكماً.

## فصل

(الدرجة الثانية معاينة الاضطرار الخ) أي يعاين فقره وفاقته وضرورته التامة إلى الله بحيث أنه يرى في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة وفاقة إلى الله فنجاته إنما هي بالله لا بعمله. وقوله: (ولا سبباً حاملًا) أي يشهد أن الحامل له هو الحق تعالى لا الأسباب التي يقوم بها فإنه وإياها محمولان بالله وحده.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة شهود انفراد الحق بملك الحركة والسكون والقبض والبسط ومعرفته بتصريف التفرقة والجمع) هذه الدرجة تتعلق بشهود وصف الله تبارك وتعالى وشأنه والتي قبلها تتعلق بشهود حال العبد ووصفه أي يشهد حركات العالم وسكونه صادرة عن الحق تعالى في كل متحرك وساكن فيشهد تعلق الحركة باسمه: الباسط. وتعلق السكون باسمه: القابض. فيشهد تفرده سبحانه بالبسط والقبض وأما (معرفته بتصريف التفرقة والجمع) فإن المشاهد عارفاً بمواضع التفرقة والجمع والمراد بالتفرقة نظر الاعتبار ونسبة الأفعال إلى الخلق. والمراد بالجمع شهود الأفعال منسوبة إلى موجدها الحق تعالى.

## فصل
## منزلة الثقة بالله تعالى

قال: (الثقة سواد عين التوكل ونقطة دائرة التفويض وسويداء قلب التسليم) وصدر الباب بقوله تعالى لأم موسى [٢٨: ٧] ﴿**فإذا خفت عليه فألقيه في اليَمّ ولا تخافي ولا تحزني**﴾ فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه وجرياته إلى حيث ينتهي أو يقف. ومراده أن الثقة خلاصة التوكل ولبه كما أن سواد العين أشرف ما في العين. وأشار بأنه (نقطة دائرة التفويض) إلى أن مدار التوكل عليه وهو في وسطه كحال النقطة من الدائرة فإن النقطة هي

المركز الذي عليه استدارة المحيط. ونسبة جهات المحيط إليها نسبة واحدة وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها كذلك الثقة هي النقطة التي يدور عليها التفويض. وكذلك قوله (سويداء قلب التسليم) فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه وهي المهجة التي تكون بها الحياة وهي في وسطه فلو كان التفويض قلباً لكانت الثقة سويداؤه ولو كان عيناً لكانت سوادها ولو كان دائرة لكانت نقطتها. وقد تقدم أن كثيراً من الناس يفسر التوكل بالثقة ويجعله حقيقتها. ومنهم من يفسره بالتفويض ومنهم من يفسره بالتسليم فعلمت أن مقام التوكل يجمع ذلك كله.

## فصل

قال: (وهي على ثلاث درجات: الدرجة الأولى درجة الإياس وهو إياس العبد عن مقاومة الأحكام. ليقعد عن منازعة الأقسام. ليتخلص من قِحَة الإقدام) يعني أن الواثق بالله لاعتقاده أن الله تعالى إذا حكم بحكم وقضى أمراً فلا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه فمن حكم الله له بحكم وقسم له بنصيب من الرزق والطاعة أو الحال أو العلم أو غيره فلا بد من حصوله له ومن لم يقسم له ذلك فلا سبيل له إليه البتة. كما لا سبيل له إلى الطيران إلى السماء وحمل الجبال فبهذا القدر يقعد عن منازعة الأقسام فما كان له منها فسوف يأتيه على ضعفه وما لم يكن له منها فلن يناله بقوته. والفرق بين قوله (مقاومة الأحكام ومنازعة الأقسام) أن مقاومة الأحكام أن تتعلق إرادته بعين ما في حكم الله وقضائه فإذا تعلقت إرادته بذلك جاذب الخلقَ الأقسام ونازعهم فيها.

وقوله: (يتخلص من قِحَة الإقدام) أي يتخلص بالثقة بالله من هذه القحة والجرأة على إقدامه على ما لم يحكم له به ولا قسم له والله سبحانه أعلم.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية: درجة الأمن، وهو أمن العبد من فوت المقدور

وانتقاض المسطور فيظفر بروح الرضى. وإلا فبعين اليقين. وإلا فبلطف الصبر) يقول: من حصل له الإياس المذكور حصل له الأمن. وذلك أن من تحقق بمعرفة الله وأن ما قضاه الله فلا مرد له البتة. أمن من فوت نصيبه الذي قسمه الله له. وأمن أيضاً من نقصان ما كتبه الله له وسطّره في الكتاب المسطور. فيظفر بروح الرضى أي براحته ولذته ونعيمه لأن صاحب الرضى في راحة ولذة وسرور كما في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الله بعدله وقِسْطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى وجعل الهم والحزن في الشك والسخط).

فإن لم يقدر العبد على روح الرضى ظفر بعين اليقين وهو قوة الإيمان ومباشرته للقلب بحيث لا يبقى بينه وبين العيان إلا كشف الحجاب المانع من مكافحة البصر فإن لم يحصل له هذا المقام حصل على لطف الصبر وما فيه من حسن العاقبة كما في الأثر المعروف (إن استطعت أن تعمل لله بالرضى مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً).

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة. معاينة أزلية الحق) قوله معاينة أزلية الحق أي متى شهد قلبه تفرد الرب سبحانه وتعالى بالأزلية غاب بها عن الطلب لتيقنه فراغ الرب تعالى من المقادير وسبق الأزل بها وثبوت حكمها هنا فيتخلص من المحن التي تعرض له دون القصود.

(التسليم) وليس في التسليم إلا علة واحدة وهي أن لا يكون تسليمه صادراً عن محض الرضى والاختيار بل يشوبه كره وانقباض فيسلم على نوع إغماض فهذه علة التسليم المؤثرة فاجتهد في الخلاص منها.

اعلم أن التسليم هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر أو شهوة تعارض الأمر أو إرادة تعارض الإخلاص أو اعتراضٍ يعارض القدر والشرع وصاحب هذا التخلص، هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به فإن التسليم ضد المنازعة. والمنازعة إما بشبهة فاسدة تعارض الإيمان

بالخبر عما وصف الله به نفسه من صفاته وأفعاله وما أخبر به عن اليوم الآخر وغير ذلك فالتسليم له ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة. وإما بشهوة تعارض أمر الله عز وجل فالتسليم للأمر بالتخلص منها. أو إرادة تعارض مراد الله من عبده فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب فالتسليم بالتخلص منها. أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره بأن يظن أن مقتضى الحكمة خلاف ما شرع وخلاف ما قضى وقدر فالتسليم التخلص من هذه المنازعات كلها. وبهذا يتبين أنه من أجلِّ مقامات الإيمان وأعلى طرق الخاصة وأن التسليم هو محض الصديقية التي هي بعد درجة النبوة وأن أكمل الناس تسليماً أكملهم صديقية.

## فصل
## منزلة الصبر

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً. وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر. وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً.

الأول الأمر به نحو قوله تعالى: [٢: ١٥٣] ﴿**يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة**﴾ وقوله: [٢: ٤٥] ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾ وقوله: [٣: ٢٠٠] ﴿**اصبروا وصابروا**﴾ وقوله: [١٦: ١٢٧] ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله**﴾.

الثاني النهي عن ضده كقوله تعالى: [٤٦: ٣٥] ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم**﴾ وقوله: [٨: ١٥] ﴿**ولا تولوهم الأدبار**﴾ فإن تولية الأدبار ترك للصبر والمصابرة وقوله: [٤٧: ٣٣] ﴿**ولا تبطلوا أعمالكم**﴾ فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها وقوله: [٣: ١٣٩] ﴿**فلا تهنوا ولا تحزنوا**﴾ فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث الثناء على أهله كقوله تعالى: [٣: ١٧] ﴿**الصابرين والصادقين**﴾ الآية. وقوله: [٢: ١٧٦] ﴿**والصابرين في البأساء والضراء**

وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله: [٢: ١٤٦] ﴿والله يحب الصابرين﴾.

الخامس: إيجاب معيته لهم وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم. ليست معية عامة وهي معية العلم والإحاطة كقوله: [٨: ٤٧] ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ وقوله: [٢: ٢٤٩ و٨: ٦٦] ﴿والله مع الصابرين﴾.

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه كقوله: [١٦: ١٢٦] ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ وقوله: [٤: ٢٤] ﴿وإن تصبروا خير لكم﴾.

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم كقوله تعالى: [١٦: ٩٦] ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب كقوله تعالى: [٣٩: ١٠] ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر كقوله تعالى: [٢: ١٥٥] ﴿ولنَبْلُونَّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾.

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم كقوله تعالى: [٣: ١٢٥] ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فَورهم هذا يُمْدِدْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ ومنه قول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر».

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم كقوله تعالى: [٤٢: ٤٣] ﴿ولمن صبر وَغَفَرَ إن ذلك لمن عزم الأمور﴾.

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلَقَّى الأعمال الصالحة وجزائها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر كقوله تعالى: [٢٨: ٨٠] ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ وقوله تعالى: [٤١: ٣٥] ﴿وما

**يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾**.

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر كقوله تعالى لموسى: [١٤: ٥] **﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكِّرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾** وقوله في أهل سبأ [٣٤: ١٩] **﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل مُمَزَّق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾** وقوله في سورة الشورى [ :٣٣] **﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾**.

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب والنجاة من المكروه المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر كقوله تعالى: [١٣: ٢٦] **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾**.

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى: [٣٢: ٢٤] **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾**.

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان وبالتقوى والتوكل وبالشكر والعمل الصالح والرحمة ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. ولا إيمان لمن لا صبر له كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (خير عيش أدركناه بالصبر) وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أنه ضياء» وقال: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصبِّره الله» وفي الحديث الصحيح: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيراً له».

وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصْرَح فسألته أن يدعو لها «إن شئتِ صبرت ولك الجنة وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيكِ» فقال: إني أتكشف فادع

الله أن لا أتكشف فدعا لها. وأمر الأنصار رضي الله تعالى عنهم بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض. وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر. وأمر بالصبر عند المصيبة وأخبر (أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى) وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له وهو الصبر والاحتساب فإن ذلك يخفف مصيبته ويوفر أجره. والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة ويذهب الأجر. وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله فقال: «ما أُعطي أحدٌ عطاء خيراً له وأوسع من الصبر».

## فصل

والصبر في اللغة الحبس والكف ومنه قُتل فلان صبراً إذا أمسك وحبس ومنه قوله تعالى: [١٨: ٢٨] ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعَشِيّ يريدون وجهه**﴾ أي احبس نفسك معهم. فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش[1] وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله. فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس ولا سيما مع الأسباب التقوى تقوى معها دواعي الموافقة فإنه كان شاباً وداعيةُ الشباب إليها قوية وعَزَباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته وغريباً والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَنْ بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكاً والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب

(١) وإنما يصدق ذلك، ويكون الصبر على حقيقته؛ إذا حبس العبد نفسه، ووقفها مع سنن الله وآياته في نفسه وفي الآفاق، ومع نعم الله عليه، ومع أسماء الله وصفاته وآثارها. وما تقتضيه من هدي الفطرة ونورها، ومع رسله وكتبه ورسالاته، فعندئذ يذوق حلاوة الصبر؛ ولذلك قرنه الله مع الصدق والشكر في كثير من المواضع.

وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟!.

## فصل

وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: أول الاستعانة به ورؤيته أنه هو المصَبِّر وأن صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال تعالى: [١٦: ١٢٧] ﴿**واصبر وما صبرك إلا بالله**﴾ يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر. والثاني الصبر لله وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأعراض. والثالث الصبر مع الله وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ومع أحكامه الدينية صابراً نفسه معها سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها يتوجه معها أين توجهت ركائبها وينزل معها أين استَقَلَّت مضاربها. فهذا معنى كونه صابراً مع الله. أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها وهو صبر الصديقين.

قال الجنيد: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن وهجران الخلق في جنب الله شديد. والمسير من النفس إلى الله صعب شديد. والصبر مع الله أشد. وسئل عن الصبر فقال: تجرع المرارة من غير تعبس.

وقيل:

الصبر مثل اسمه مرّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

وقيل الصبر أن ترضى بتلف نفسك في رضى من تحبه كما قيل:

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة ... وحسبي أن ترضى ويتلفني صبري

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر مطية لا تكبو.

قال أبو علي الدقاق. فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته، فإن الله مع الصابرين.

وقيل: تجرَّع الصبر فإن قتلك قتلك شهيداً وإن أحياك أحياك عزيزاً.

وفي كتاب الأدب للبخاري سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة» ذكره عن موسى بن إسماعيل قال: حدثنا سويد قال: حدثنا عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده فذكره. وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهاناً وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها.

فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به وإعطاؤه فالحامل عليه السماحة. وترك ما نهيت عنه والبعد منه فالحامل عليه الصبر.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه. والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه.

وقال ابن عيينة في قوله تعالى: [٣٢:٢٣] ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**﴾ قال أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء.

والشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل والنبي إذا وعد لا يخلف ثم قال: [١٢:٨٦] ﴿**إنما أشكو بَثِّي وحزني إلى الله**﴾ وكذلك أيوب أخبر الله عنه أنه وجده صابراً مع قوله: [٢١:٨٣] ﴿**مَسَّني الضر وأنت أرحم الراحمين**﴾ وإنما ينافي الصبر شكوى الله. لا الشكوى إلى الله. كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقةً وضرورة فقال: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ثم أنشد:

وإذا عرتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

ومن هاهنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة ولم يثبت معه إلا الصابرون فلولا تحمل المشاق وتجشم المكاره بالصبر لما ثبتت صحة محبتهم وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً. ولهذا وصف الله

تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه فقال عن حبيبه أيوب: [٣٨ : ٤٤] ﴿**إنا وجدناه صابراً**﴾ ثم أثنى عليه فقال: ﴿**نعم العبد إنه أواب**﴾.

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه وأخبر أن صبره به وأثنى على الصابرين أحسن الثناء وضمن لهم أعظم الجزاء. وجعل أجر غيرهم محسوباً وأجرهم بغير حساب وقرن الصبر بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان كما تقدم فجعله قرين اليقين والتوكل والإيمان والأعمال والتقوى. وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر. وأخبر أن الصبر خير لأهله وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم كما تقدم ذلك.

وليس في استكراه النفوس لألم ما تصبر عليه وإحساسها به ما يقدح في محبتها ولا توحيدها فإن إحساسها بالألم ونفرتها منه أمر طبعي لها كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب وتألمها بفقده فلوازم النفس لا سبيل إلى إعدامها أو تعطيلها بالكلية وإلا لم تكن نفساً إنسانية ولارتفعت المحنة وكانت عالماً آخر.

## فصل

قال: (وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد إبقاء على الإيمان وحذراً من الحرام وأحسن منها الصبر عن المعصية حياء) ذكر للصبر عن المعصية سببين وفائدتين أما السببان: فالخوف من لحوق الوعيد المترتب عليها. والثاني: الحياء من الرب تبارك وتعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه وأن يبارز بالعظائم وأما الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان والحذر من الحرام. فأما مطالعة الوعيد والخوف منه فيبعث عليه قوة الإيمان بالخبر والتصديق بمضمونه. وأما الحياء فيبعث عليه قوة المعرفة ومشاهدة معاني الأسماء والصفات وأحسن من ذلك أن يكون الباعث عليه وازع الحب فيترك معصيته له كحال الصهيبيين.

وأما الفائدتان فالإبقاء على الإيمان يبعث على ترك المعصية لأنها لا بد أن تنقصه أو تذهب به أو تذهب رونقه وبهجته أو تطفىء نوره أو تضعف قوته

أو تنقص ثمرته. هذا أمر ضروري بين المعصية وبين الإيمان يعلم بالوجود والخبر والعقل كما صح عنه ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن. ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن. ولا ينتهب نُهبة ذات شرف يرفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن. فإياكم إياكم. والتوبة معروضة بعد». وأما الحذر عن الحرام فهو الصبر عن كثير من المباح حذراً من أن يسوقه إلى الحرام. ولما كان الحياء من شيم الأشراف وأهل الكرم والنفوس الزكية كان صاحبه أحسن حالاً من أهل الخوف. ولأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف. فَمَن وازعه الخوف قلبه حاضر مع العقوبة. ومن وازعه الحياء قلبه حاضر مع الله. والخائف مراع جانب نفسه وحمايتها. والمستحي مراع جانب ربه وملاحظ عظمته وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان. غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان وألصق به. إذا أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

قال: (الدرجة الثانية: الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دواماً وبرعايتها إخلاصاً وبتحسينها علماً) هذا يدل على أن عنده أن فعل الطاعة آكد من ترك المعصية فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدرجة. وهذا هو الصواب كما تقدم فإن ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة والنهي مقصود للأمر فالمنهي عنه لما كان يُضعف المأمور ويَنْقُصه نهي عنه حماية وصيانة لجانب الأمر فجانب الأمر أقوى وآكد وهو بمنزلة الصحة والحياة. والنهي بمنزلة الحِمْية التي تراد لحفظ الصحة وأسباب الحياة. وذكر الشيخ أن الصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء دوام الطاعة والإخلاص فيها ووقوعها على مقتضى العلم وهو تحسينها علماً. فإن الطاعة تتخلف من فوات واحد من هذه الثلاثة فإن العبد إن لم يحافظ عليها دواماً عطلها وإن حافظ عليها دواماً عرض لها آفتان إحداهما ترك الإخلاص فيها بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله وإرادته والتقرب إليه فحفظها من هذه الآفة برعاية الإخلاص.

الثانية: أن لا تكون مطابقة للعلم بحيث لا تكون على اتباع السنة فحفظها من هذه الآفة بتجريد المتابعة. كما أن حفظها من تلك الآفة بتجريد القصد والإرادة فلذلك قال: (بالمحافظة عليها دواماً ورعايتها إخلاصاً وتحسينها علماً).

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة: الصبر في البلاء بملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج وتهوين البلية بعَدِّ أيادي المنن وبذكر سوالف النعم).

هذه ثلاثة أشياء تبعث المتلبس بها على الصبر في البلاء. إحداها ملاحظة حسن الجزاء وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء لشهود العوض وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها. لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها. ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة. وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة فالنفس موكلة بحب العاجل. وإنما خاصة العقل تلمح العواقب ومطالعة الغايات. وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وإن من رافق الراحة فارق الراحة. وحصل على المشقة وقت الراحة. في دار الراحة. فإن على قدر التعب تكون الراحة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكريم الكرائم
ويكبر في عين الصغير صغيرها وتصغر في عين العظيم العظائم

(والقصد أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك. والثاني انتظار روح الفرج) يعني راحته ونسيمه ولذته فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة ولا سيما عند قوة الرجاء أو القطع بالفرج فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفي الألطاف وما هو فرج معجل. وبه وبغيره يفهم معنى اسمه اللطيف. والثالث تهوين البلية بأمرين أحدهما أن يعد نعم الله عليه وأياديه عنده فإذا عجز عن عدها وأيس من حصرها هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه فهذا يتعلق بالماضي وتعداد أيادي المنن يتعلق بالحال. وملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج يتعلق بالمستقبل وأحدهما في الدنيا والثاني يوم الجزاء.

ويحكى عن امرأة من العابدات أنها عثرت فانقطعت إصبعها فضحكت فقال لها بعض من معها أتضحكين وقد انقطعت إصبعك فقالت: أخاطبك على قدر عقلك. حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها. إشارة إلى أن عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام من ملاحظة المبتلِي ومشاهدة حسن اختياره لها في ذلك البلاء. وتلذذها بالشكر له والرضى عنه ومقابلة ما جاء من قِبله بالحمد والشكر كما قيل:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة    فقد سَرَّني أني خطرت ببالكا

## فصل
## منزلة الرضى

وقد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه واختلفوا في وجوبه على قولين وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يحكيهما على قولين لأصحاب أحمد وكان يذهب إلى القول باستحبابه.

قال: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم. قال: وأما ما يروى من الأثر (من لم يصبر على بلائي. ولم يرضى بقضائي. فليتخذ رباً سوائي) فهذا أثر إسرائيلي ليس يصح عن النبي ﷺ. قلت: ولا سيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسبة بل هو موهبة محضة فكيف يؤمر به وليس مقدوراً عليه.

(أما فضل الرضى) قال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً» وقال: «من قال حين يسمع النداء رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً غفرت له ذنوبه» وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهي وقد تضمنا الرضى بربوبيته سبحانه وألوهيته والرضى برسوله والانقياد له والرضى بدينه والتسليم له ومن اجتمعت

لـه هذه الأربعـة فهو الصـديق حقاً وهي سهلـة بالـدعوى واللسـان. وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك تبين أن الرضى كان لسانه به نـاطقاً فهـو على لسانـه لا على حاله.

فالرضى بإلٰهيته يتضمن الرضى بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلهـا إليه. فعـلَ الراضي بمحبـوبه كل الرضى وذلـك يتضمن عبادتـه والإخلاص لـه. والرضى بـربوبيتـه يتضمن الرضى بتدبيره لعبده. ويتضمن إفـراده بالتـوكل عليـه والاستعانـة به والثقـة به والاعتماد عليه وأن يكون راضياً بكـل ما يفعـل به. فـالأول يتضمن رضاه بمـا يؤمر به. والثاني يتضمن رضاه بما يقدر عليه وأما الرضى بنبيه رسولاً فيتضمن كمال الانقياد لـه والتسليم المطلق إليـه بحيث يكون أولى بـه من نفسه. فـلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ولا يحاكم إلا إليه ولا يحكم عليه غيـره ولا يرضى بحكم غيره ألبتة لا في شيء من أسماء الـرب وصفاتـه وأفعالـه ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ولا في شيء من أحكام ظاهره وبـاطنه لا يـرضى في ذلك بحكم غيـره ولا يـرضى إلا بحكمـه فـإن عجـز عنـه كـان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد مـا يقيته إلا من الميتـة والدم وأحسن أحواله أن يكون من باب التـراب الذي إنمـا يتيمم به عنـد العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الرضى بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضى ولـم يبق في قلبه حرجٍ من حكمه وسلَّم له تسليماً ولو كـان مخالفـاً لمراد نفسـه أو هواها أو قول مُقلّده وشيخه وطائفته.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد فإنه والله عين العزة والصحبة مع الله ورسوله وروح الأنس به والرضى به رباً وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام ديناً بل الصادق كلمـا وجد مس الاغتـراب وذاق حلاوتـه وتَنَسَّمَ روحه قـال: اللهم زدني اغتـرابـاً ووحشـة من العالم. وأُنساً بك. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفـرد رأى الوحشـة

عين الأنس بالناس والذلّ عين العِزّ بهم والجهل عين الوقوف مع آرائهم وزِبالة أذهانهم والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم فلم يُؤْثِرْ بنصيبه من الله أحداً من الخلق ولم يَبِعْ حظه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمانِ وغايته مودَّةَ بينهم في الحياة الدنيا فإذا انقطعت الأسباب وَحَقَّت الحقائق. وبُعثِر ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور وبُليت السرائر ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران وما الذي يَخِفُّ أو يرجح به الميزان والله المستعان وعليه التكلان.

فمن رضي عن ربه رضي الله عنه بل رضى العبد عن الله من نتائج رضى الله عنه فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده رضَى قبله أوجب له أن يرضى عنه. ورضى بعده هو ثمرة رضاه عنه ولذلك كان الرضى باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وقرة عيون المشتاقين ومن أعظم أسباب حصول الرضى أن يلزم ما جعل الله رضاه به فإنه يوصله إلى مقام الرضى ولا بد.

وليس الرضى والمحبة كالرجاء والخوف فإن الرضى والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة لا يفارقان المتلبس بهما في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة بخلاف الخوف والرجاء فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه وأمنهم مما كانوا يخافونه وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائماً لكنه ليس رجاء مشوباً بشك بل هو رجاء واثق بوعد صادق من حبيب قادر فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون.

## فصل

وليس من شرط الرضى ألاّ يُحس بالألم والمكاره بل ألاّ يعترض على الحكم ولا يتسخطه ولهذا أشكل على بعض الناس الرضى بالمكروه وطعنوا فيه وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة وإنما هو الصبر وإلا فكيف يجتمع الرضى والكراهة وهما ضدان. والصواب أنه لا تناقض بينهما وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضى كرضى المريض بشرب الدواء الكريه ورضى الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ ورضى المجاهد

بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها.

وطريق الرضى طريق مختصرة قريبة جداً موصلة إلى أجل غاية ولكن فيها مشقة ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها. وإنما عقبتها همة عالية ونفس زكية وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله. ويسهل ذلك على العبد علمه بضعفه وعجزه ورحمته به وشفقته عليه وبره به فإذا شهد هذا وهذا ولم يطرح نفسه بين يديه ويرضى به وعنه وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها إليه فنفسه نفس مطرودة عن الله بعيدة عنه ليست مؤهلة لقربه وموالاته. أو نفس ممتحَنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن. فطريق الرضى والمحبة تُسَيِّر العبد وهو مستلق على فراشه فيصبح أمام الركب بمراحل.

وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام الرضى: ترك الاختيار قبل القضاء وفقدان المرارة بعد القضاء. وهيجان الحب في حشو البلاء.

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: إن أبا ذر رضي الله عنه يقول: الفبر أحب إليّ من الغنى. والسقم أحب إليّ من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر أما أنا فأقول من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختار الله له. وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: الرضى أفضل من الزهد في الدنيا لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته. وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ: «أسألك الرضى بعد القضاء» فقال لأن الرضى قبل القضاء عزم على الرضى. والرضى بعد القضاء هو الرضى.

وقيل: الرضى ارتفاع الجزع في أي حكم كان.
وقيل رفع الاختيار.
وقيل استقبال الأحكام بالفرح.
وقيل سكون القلب تحت مجاري الأحكام.
وقيل نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد وهو ترك السخط.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما: أما بعد فإن الخير كله في الرضى فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر. وقال أبو عثمان

الحيري منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته وما نقلني إلى غيره فسخطته.

قال: الدرجة الأولى رضى العامة وهو الرضى بالله رباً وتسخط عبادة ما دونه وهذا قطب رحى الإسلام وهو يطهر من الشرك الأكبر).

الرضى بالله رباً أن لا يتخذ رباً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه قال الله تعالى: [٦: ١٦٤] ﴿**قل أغير الله أبغي رباً وهو ربّ كل شيء**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيداً وإلٰهاً. يعني فكيف أطلب رباً غيره وهو ربّ كل شيء وقال في أول السورة: [٦: ١٤] ﴿**قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض**﴾ يعني معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ. وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة وقال في وسطها: [٦: ١١٤] ﴿**أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً**﴾ أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه وهذا كتابه سيد الحكام فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً. وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضى بالله رباً. وبالإسلام ديناً. وبمحمد ﷺ رسولاً. ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغي رباً سواه لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً بل يوالي من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربون إلى الله وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك وهذا عين الشرك بل التوحيد أن لا يتخذ من دونه أولياء والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد. أن لا يتخذ سواه رباً ولا إلهاً ولا غيره حكماً. وتفسير الرضى بالله رباً أن يسخط عبادة ما دونه هذا هو

الرضى بالله إلهاً وهو من تمام الرضى بالله رباً فمن أعطى الرضى به رباً حقه سخط عبادة ما دونه قطعاً لأن الرضى بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

وقوله: (وهو قطب رحى الإسلام) يعني أن مدار رحى الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة ربه وحده وأن يسخط عبادة غيره وقد تقدم أن العبادة هي الحب مع الذل فكل من ذللت له وأطعته وأحببته دون الله فأنت عابد له.

وقوله: (وهو يطهر من الشرك الأكبر) يعني أن الشرك نوعان: أكبر وأصغر فهذا الرضى يطهر صاحبه من الأكبر وأما الأصغر فيطهر منه نزوله منزلة **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾**.

فالحاصل أن يكون الله وحده المحبوب المعظم المطاع فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه فهو متكبر عليه. ومتى أحب معه سواه وعظم معه سواه وأطاع معه سواه فهو مشرك. ومتى أفرده وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلى المحبوب كان ذلك الميل حاملاً على طاعته وتعظيمه وكلما كان الميل أقوى كانت الطاعة أتم والتعظيم أوفر وهذا الميل يلازم الإيمان بل هو روح الإيمان ولُبُّه فأي شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم. وأحقّ الأشياء بالطاعة. وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

فعلق ذوق الإيمان بالرضى بالله رباً وعلق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه ولا يتم إلا به وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله.

# فصل

قال: (وبهذا الرضى نطق التنزيل) يشير إلى قوله عز وجل: [٥ : ١١٩] ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ وقال تعالى في آخر سورة المجادلة: [٥٨ : ٢٢] ﴿ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ وقال في آخر سورة لم يكن [٩٨ : ٨] ﴿خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ فتضمنت هذه الآيات جزاءهم على صدقهم وإيمانهم وأعمالهم الصالحة ومجاهدة أعدائه وعدم ولايتهم بأن رضي الله عنهم فأرضاهم فرضوا عنه. وإنما حصل لهم هذا بعد الرضى به رباً وبمحمد نبياً وبالإسلام ديناً. قوله: (وهو الرضى عنه في كل ما قضى) ههنا ثلاثة أمور: الرضا بالله. والرضا عن الله. والرضا بقضاء الله.

وقد أنكر الله سبحانه وتعالى على من جعل مشيئته وقضاه مستلزمات لمحبته ورضاه فكيف بمن جعل ذلك شيئاً واحداً قال الله تعالى: [٦ : ١٤٨] ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ وقال تعالى: [١٦ : ٣٥] ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ وقال تعالى: [٤٣ : ٢٠] ﴿وقالوا: لو شاء الرحمٰن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم﴾ فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه وفيه أبين الرد لقول من جعل مشيئته غير محبته ورضاه فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة ثم زادوه بجعلهم الفعل نفس المفعول والقضاء عين المقضي فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالى راضياً محباً لذلك والتزام رضاهم به. والذي يكشف هذه الغمة ويبصر من هذه العماية وينجي من هذه الورطة؛ إنما هو التفريق بين ما فرق الله بينه وهو المشيئة والمحبة فإنهما ليسا واحداً ولا هما متلازمين بل قد يشاء ما لا يحبه.

ويحب ما لا يشاء كونه. فالأول كمشيئته لوجود إبليس وجنوده ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه.

والثاني: كمحبته إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فإذا تقرر هذا الأصل وأن الفعل غير المفعول والقضاء غير المقضي وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضى بكل ما خلقه أو شاءه. زالت الشبهات وانحلت الإشكالات ولله الحمد ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر بل القدر ينصر الشرع والشرع يصدق القدر وكل منهما يحقق الآخر إذا عرف هذا فالرضى بالقضاء الديني الشرعي واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان. فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال الله تعالى: [٤: ٦٥] **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾** فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه وحتى يسلموا لحكمه تسليماً وهذا حقيقة الرضى بحكمه. فالتحكيم في مقام الإسلام. وانتفاء الحرج في مقام الإيمان. والتسليم في مقام الإحسان.

ومتى خالط القلبَ بشاشةُ الإيمان واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين وحيي بروح الوحي وتمهدت طبيعته وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم فقد رضي كل الرضى بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله.

والرضى بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة لأنه ملائم للعبد محبوب له فليس في الرضى به عبودية. بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها وأن لا يعصى المنعم بها وأن يرى التقصير في جميع ذلك. والرضى بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت

اختيـاره مستحب وهو من مقـامات أهـل الإيمان، وفي وجـوبـه قـولان وهـذا كـالمرض والفقـر وأذى الخلق له والحـر والبـرد والآلام ونحـو ذلـك والـرضى بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كأنـواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه وهو مخالفة لربه تعالى فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه فكيف تتفق المحبة ورضى مـا يسخطه الحبيب ويبغضـه فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضى بالقضاء فإن قلت كيف يريد الله سبحانه أمـراً لا يـرضاه ولا يحبـه وكيف يشاؤه ويُكَـوِّنه وكيف تجتمـع إرادة الله لـه وبغضـه وكراهيته.

قيل هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً وتباينت عنده طـرقهم وأقوالهم فاعلم أن المراد نوعان مراد لنفسه ومراد لغيره فالمراد لنفسه مـطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير فهو مـراد إرادة الغايـات والمقاصـد. والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاتـه وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده فهو مكروه له من حيث نفسـه وذاته. مـراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده فيجتمع فيـه الأمران بغضـه وإرادته ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة إذا علم متنـاوِلُه أن فيه شفاءه وكقطعِ العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده. وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه بـل العاقـل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبتـه فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب فهـو سبحـانـه وتعـالى يكـره الشيء ويبغضه في ذاته ولا ينافي ذلك إرادته لغيره وكـونه سببـاً إلى ما هـو أحب إليه من فـوته. مثـال ذلك أنـه سبحانـه خلق إبليس الذي هـو مادة لفسـاد الأديـان والأعمال والاعتقادات والإرادات وهو سبب شقاوة العبيـد وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى وهو السـاعي في وقوع خـلاف ما يحبـه الله ويرضـاه بكل طريق وكل حيلة فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى مسخوط له لعنه الله ومقتـه وغضب عليه ومع هـذا فهو وسيلة إلى محـاب كثيرة للرب تعـالى ترتبت على خلقه وجودها أحبُّ إليه من عدمها.

منهـا أن تـظهـر للعباد قـدرة الـرب تعـالى على خلق المتضـادات

المتقابلات. فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شر؛ في مقابلة ذات جبريل التي هي أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها وهي مادة كل خير فتبارك الله خالق هذا وهذا كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار والضياء والظلام والداء والدواء والحياة والموت والحر والبرد والحسن والقبيح والأرض والسماء والذكر والأنثى والماء والنار والخير والشر. وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته وسلطانه وملكه فإنه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وسلط بعضها على بعض وجعلها محالّ تصرفه وتدبيره وحكمته فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمالِ تصرفه وتدبير مملكته.

ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية مثل (القهار، والمنتقم، والعدل والضار. وشديد العقاب. وسريع الحساب. وذي البطش الشديد والخافض والمذل) فإن هذه الأسماء والأفعال كمال فلا بد من وجود متعلقها ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملَك لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرن الله فيغفر لهم».

ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة فإنه سبحانه (الحكيم الخبير) يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها فلا يضع الشيء في غير موضعه ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخيرته فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع ولا الثواب موضع العقاب ولا العقاب موضع الثواب ولا الخفض موضع الرفع ولا الرفع موضع الخفض ولا العز مكان الذل. ولا الذل مكان العز. ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه. ولا ينهى عما ينبغي الأمر به. فهو أعلم حيث يجعل رسالته وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه

ووصولها. وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله. وأحكم من أن يمنعها أهلها وأن يضعها عند غير أهلها. فلو قدّر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار ولم تظهر لخلقه. ولفاتت الحكَم والمصالح المترتبة عليها وفواتها شر من حصول تلك الأسباب. فلو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر فلو قدر تعطيلها لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه.

## فصل

ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ولكان الحاصل بعضها لا كلها. فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه. وبذل النفس له في محاربة عدوه وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها عبودية التوبة والرجوع إليه واستغفاره فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم فلو تعطلت الأسباب التي يثاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها عبودية مخالفة عدوة ومراغمته في الله وإغاظته فيه وهي من أحب أنواع العبودية إليه فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوؤه وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه وسؤاله أن يجيره منه ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حَلَّ بعدوه بمخالفته

وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية فلا يخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك.

ومنها أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته.

ومنها أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها قال الله تعالى: [٣٥: ٦] ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً**﴾ فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد وهو محبوب للرب.

ومنها أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر والطيب والخبث وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد فخُلِقَ الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ليترتب عليه آثاره. وما في قوى أولئك من الشر ليترتب عليه آثاره وتظهر حكمته في الفريقين وينفذ حكمه فيهما ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: [٢: ٣٠] ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال: إني أعلم ما لا تعلمون**﴾فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

ومنها أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة كآية الطوفان وآية الريح وآية إهلاك ثمود وقوم لوط. وآية انقلاب النار على إبراهيم برداً وسلاماً والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿**إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾ فلولا كفر الكافرين وعناد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

ومنها أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً ويكسر بعضها بعضاً هو من شأن كمال الربوبية والقدرة النافذة والحكمة التامة والملك الكامل وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه ولو لم تخلق هذه الأسباب لكن خلقها من لوازم كماله وملكه وقدرته وحكمته فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة تحقيق لذلك الكمال وموجب من موجباته فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته. وبالجملة فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها. انتهى.

## فائدة

فإن قلت كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟ قلت هذا الذي أوقع من عَمِيت بصيرته في شهود الأمر على خلاف ما هو عليه فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر وقال: إن عصيت أمره، فقد أطعت إرادته في ذلك وقيل:

أصبحت منفعلاً لما تختاره      مني ففعلي كله طاعات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائرَ وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية الكونية فإن الطاعة هي موافقة الأمر لا موافقة القدر والمشيئة ولو كانت موافقة القدر طاعة لله لكان إبليس من أعظم المطيعين لله وكان قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مطيعين له. فيكون قد عذبهم أشد العذاب على طاعته وانتقم منهم لأجلها وهذا غاية الجهل بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فإن قلت: ومع ذلك فاجمع لي بين الندم والتوبة وبين مشهد القيومية والحكمة. قلت: العبد إذا شهد عجز نفسه ونفوذ الأقدار فيه وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين كان بالله في هذه الحال لا بنفسه فوقوع الذنب منه لا يتأتى منه في هذه الحال ألبتة فإن عليه حصناً حصيناً من (فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي) فلا يتصور منه

الذنب في هذه الحال فإذا حُجب عن هذا المشهد وسقط إلى وجوده الطبيعي وبقي بنفسه استولى عليه حكم النفس والطبع والهوى وهذا الوجود الطبيعي قد نُصبت فيه الشباك والأشراك وأرسلت عليه الصيادون فلا بد أن يقع في شبكة من تلك الشباك وشرك من تلك الأشراك وهذا الوجود هو حجاب بينه وبين ربه فعند ذلك يقع الحجاب ويقوى المقتضي ويضعف المانع وتشتد الظلمة وتضعف القوى فأنّى له بالخلاص من تلك الأشراك والشباك فإذا انقشع ضباب ذلك الوجود الطبيعي وانجاب ظلامه وزال قتامه وصرتَ بربك ذاهباً عن نفسك وطبعك:

| | |
|---|---|
| بدا لك سِرٌّ طال عنك اكتتامه | ولاح صباحٌ كنتَ أنتَ ظلامه |
| فإن غبت عنه حَلَّ فيه وَطَنَّبت | على منكب الكشف المصون خيامه |
| فأنت حجاب القلب عن سِرِّ غيبه | ولولاك لم يطبع عليه ختامه |
| وجاء حديث لا يُمَلُّ سماعه | شهي إلينا نَشْره ونظامه |
| إذا ذكرته النفس زال عناؤها | وزال عن القلب المعنى قَتامه |

فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة فإنه كان في المعصية بنفسه محجوباً فيها عن ربه وعن طاعته فلما فارق ذلك الوجود وصار في وجود آخر بقي بربه لا بنفسه. وإذا عرف هذا فالتوبة والندم يكونان في هذا الوجود الذي هو فيه بربه وذلك لا ينافي مشهد الحكمة والقيومية بل يجامعه ويستمد منه وبالله التوفيق.

قوله: (ويصح بثلاثة شرائط: باستواء الحالات عند العبد وسقوط الخصومة مع الخلق والخلاص من المسألة والإلحاح).

يعني أن الرضى عن الله إنما يتحقق بهذه الأمور الثلاثة. فإن الراضي الموافق تستوي عنده الحالات. من النعمة والبلية في رضاه بحسن اختيار الله له. وليس المراد استواؤها عنده في ملاءمته ومنافرته فإن هذا خلاف الطبع البشري بل خلاف الطبع الحيواني. وليس المراد أيضاً استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية فإن هذا مناف للعبودية من كل وجه وإنما تستوي النعمة والبلية عنده في الرضى بهما لوجوه:

منها أنه مفوض والمفوض راض بكل ما اختاره له مَنْ فوض إليه ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره له.

ومنها أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله ولا راد لحكمه وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهو يعلم أن كلًّا من البلية والنعمة بقضاء سابق وقدر حَتْم.

ومنها أنه جاهل بعواقب الأمور وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

ومنها أن الرضى ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها ومتى نزلت عليه السكينة استقام وصلحت أحواله وصلح باله والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته وإذا ترحَّلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدَّعَة والراحة وطيب العيش فمن أعظم نعم الله على عبده تنزل السكينة عليه ومن أعظم أسبابها الرضى عنه في جميع الحالات.

ومنها أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله وقضائه وقدره وحكمته وعلمه فقلَّ أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه وإن كان لا يشعر به فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولا مدخولاً فإن الرضى واليقين أخوان مصطحبان. والشك والسخط قرينان وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي أو غيره: «إن استطعت أن تعمل بالرضى مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً».

ومنها أن الرضى بالمقدور من سعادة ابن آدم وسخطه من شقاوته كما في المسند والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله. ومن شِقْوة ابن آدم سخطه بما قضى الله ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله» فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة والتسخط على القضاء من أسباب الشقاوة.

ومنها أن من ملأ قلبه من الرضى بالقدر ملأ الله صدره غِنىً وأمناً وقناعة وفرَّغ قلبه لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه ومن فاته حظه من الرضى امتلأ

قلبه بضد ذلك واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه فالرضى يفرغ القلب لله والسخط يفرغ القلب من الله.

ومنها أن الرضى يثمر الشكر الذي هو من أعلى مقامات الإيمان بل هو حقيقة الإيمان والسخط يثمر ضده وهو كفر النعم وربما أثمر له كفر المنعم فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات أوجب له ذلك شكره فيكون من الراضين الشاكرين وإذا فاته الرضى كان من الساخطين وسلك سبيل الكافرين.

ومنها أن الرضى هو اختيار ما اختاره الله لعبده والسخط كراهة ما اختاره الله له وهذا نوع محادة فلا يتخلص منه إلا بالرضى عن الله في جميع الحالات.

ومنها أن الرضى يخرج الهوى من القلب فالراضي هواه تبع لمراد ربه منه أعني المراد الذي يحبه ربه ويرضاه فلا يجتمع الرضى واتباع الهوى في القلب أبداً وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا فهو للغالب عليه منهما.

ومنها أن كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه لا يخلو إما أن يكون عقوبة على ذنب فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى به المرض إلى الهلاك. أو يكون سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه فالمكروه ينقطع ويتلاشى وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضى عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدره.

ومنها أن حكم الرب تعالى ماض في عبده وقضاؤه عدل فيه كما في الحديث: «ماضٍ فيّ حُكْمكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ» ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور. وقوله: (عدل فيَّ قَضَاؤُك) يعم قضاء الذنب وقضاء أثره وعقوبته فإن الأمرين من قضائه عز وجل وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب وفي قضائه بعقوبته أما عدله في العقوبة فظاهر. وأما عدله في قضائه بالذنب فلأن الذنب عقوبة على غفلته عن ربه وإعراض قلبه عنه فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليه ونقص إخلاصه استحق أن يُضْرَب بهذه العقوبة لأن قلوب

الغافلين معدن الذنوب والعقوبات واردة عليها من كل جهة وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى وذكره يستحيل صدور الذنب كما قال تعالى: [١٢ : ٢٤] **﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾** فإن قلت قضاؤه على عبده بإعراضه عنه ونسيانه إياه وعدم إخلاصه عقوبة على ماذا قلت هذا طبع النفس وشأنها فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلى بينه وبين نفسه وطبعه وهواه وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان وعدم الإخلاص واتباع الهوى وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام وفوات الخيرات واللذات كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها.

ومنها أن أول معصية عُصِي الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرضى فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كوناً من تفضيل آدم وتكريمه ولا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم. وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة حتى ضمّ إليه الأكل من شجرة الحِمَى ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضى.

ومنها أن الراضي واقف مع اختيار الله له معرض عن اختياره لنفسه وهذا من قوة معرفته بربه تعالى ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد. وسفيان الثوري. ويوسف بن أسباط فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم وأما اليوم فوددت أني ميت فقال له يوسف بن أسباط ولم فقال: لما أتخوف من الفتنة. فقال يوسف: ولكني لا أكره طول البقاء. فقال الثوري ولم تكره الموت. قال: لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً. فقيل لوهيب: أي شيء تقول أنت فقال: أنا لا أختار شيئاً أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله. فقبل الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة. فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت وقف مع اختيار الله له منهما وقد كان وهيب رحمه الله له المقام العالي من الرضى وغيره.

ومنها أن الراضي آخذ بزمام مقامات الدين كلها وهو روحها وحياتها فإنه روح التوكل وحقيقته. وروح اليقين وروح المحبة وصحة المحب ودليل

صدق المحبة وروح الشكر ودليله.

قال الربيع بن أنس علامة حب الله كثرة ذكره فإنك لا تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره. وعلامة الدين الإخلاص لله في السر والعلانية وعلامة الشكر الرضى بقَدر الله والتسليم لقضائه.

وقال أحمد بن أبي الحواري ذاكرت أبا سليمان في الخبر المروي «أول من يُـدْعَى إلى الجنة الحمادون» فقال: ويحك ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصّى عليك إذا كنت كذلك فارجع إلى الصابرين إنما الحمد أن تحمده وقلبك مسلم راض. فصار الرضى كالروح لهذه المقامات والأساس الذي تنبني عليه ولا يصح شيء منها بدونه ألبتة والله أعلم.

ومنها أن الرضى يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس فإن حسن الخلق من الرضى وسوء الخلق من السخط وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً لامرأته عاتكة أخت سعيد بن زيد وقد غضب عليها: والله لأسوأنكِ فقالت أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله له؟ قال: لا فقالت: فأي شيء تسوؤني به إذاً؟!.

تريد أنها راضية بمواقع القدر لا يسوؤها منه شيء إلا صَرْفُها عن الإسلام ولا سبيل له إليه.

ومنها أن النبي ﷺ سأل الله الرضى بالقضاء كما في المسند والسنن «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيماً لا ينفد وأسألك قُرّة عين لا تنقطع وأسألك الرضى بعد القضاء وأسألك بَرْد العيش بعد الموت وأسألك لَذَّة النظر إلى وجهك الكريم وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضَرَّاء مضرة ولا فتنة مضلّة اللهم زَيِّنا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين» قال البيهقي وروينا في دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضى بالقدر».

وقد روى عمرو بن قيس الملائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله وأن تحمَدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كُره كاره وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط» وقد رواه الثوري عن منصور عن خيثمة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ.

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لقد تركتني هؤلاء الدعوات وما لي في شيء من الأمور كلها أرَب إلا في مواقع قدر الله وكان كثيراً ما يدعو اللهم رضني بقضائك وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل شيء أخرتَه ولا تأخير شيء عجلتَه.

وقال الفضيل بن عياض الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

وسئل ابن شمعون عن الرضى فقال: أن ترضى به مدبراً ومختاراً وترضى عنه قاسماً ومعطياً ومانعاً وترضاه إلٰهاً ومعبوداً وربّاً.

وقيل الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتأسف عليها.

ولله در القائل:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر ... والدهر ذو دول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنا ... وفي اختيار سواه اللوم والشوم

ومنها أن المحبة والإخلاص والإنابة لا تقوم إلا على ساق الرضى فالمحب راض عن حبيبه في كل حالة. وقد كان عمران بن حصين رضي الله عنه استسقي بطنه فبقي ملقىً على ظهره مدة طويلة لا يقوم ولا يقعد وقد نُقِب له في سريره موضع لحاجته فدخل عليه مُطرِّفُ بن عبدالله الشِّخِّير فجعل يبكي لما رأى من حاله فقال له عمران: لم تبكي فقال: لأني أراك على هذه الحال الفظيعة فقال: لا تبك فإن أحبه إليّ أحبه إليه وقال: أخبرك بشيء لعل الله أن ينفعك به واكتم علي حتى أموت. إن الملائكة تزورني فآنسُ بها

وتسلم عليّ فأسمع تسليمها. ولما قدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى مكة وقد كُفَّ بصره جعل الناس يُهْرَعون إليه ليدعو لهم فجعل يدعو لهم قال عبدالله بن السائب فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفني فقلت: يا عم أنت تدعو للناس فيشفون فلو دعوت لنفسك لردّ الله عليك بصرك فتبسم ثم قال: يا بني قضاء الله أحب إليّ من بصري. انتهى.

## فائدة

فإذا اجتمعت بصيرة العبد على مشاهد القدر والتوحيد والحكمة والعدل انسد عنه باب خصومة الخلق إلا فيما كان حقّاً لله ورسوله فالراضي لا يخاصم ولا يعاقب إلا فيما يتعلق بحق الله وهذه كانت حال رسول الله ﷺ فإنه لم يكن يخاصم أحداً ولا يعاتبه إلا فيما يتعلق بحق الله كما أنه كان لا يغضب لنفسه فإذا انتُهِكت محارم الله لم يَقُم لغضبه شيء حتى ينتقم لله فالمخاصمة لحظ النفس تطفىء نور الرضى وتذهب بهجته وتبدل بالمرارة حلاوته وتكدر صفوه.

قال: (الشرط الثالث الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح).

وذلك لأن المسألة فيها ضرب من الخصومة والمنازعة والمحاربة والرجوع عن مالك الضر والنفع إلى من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا بربه وفيها الغيبة عن المعطي المانع. والإلحاح ينافي حال الرضى ووصفه وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافاً فقال تعالى: [٢: ٢٧٣] ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً**﴾.

## فصل

والمسألة في الأصل حرام وإنما أبيحت للحاجة والضرورة لأنها ظلم في حق الربوبية وظلم في حق المسؤول وظلم في حق السائل.

أما الأول فلأنه بذل سؤاله وفقره وذلَّه واستعطاه لغير الله وذلك نوع عبودية فوضع المسألة في غير موضعهاوأنزلها بغير أهلها وظلم توحيده

وإخلاصه وفقره إلى الله وتوكله عليه ورضاه بقسمه واستغنى بسؤال الناس عن مسألة رب الناس وذلك كله يهضم من حق التوحيد ويطفىء نوره ويضعف قوته.

وأما ظلمه للمسؤول فلأنه سأله ما ليس عنده فأوجب له بسؤال عليه حقاً لم يكن له عليه وعرضه لمشقة البذل أو لَوْم المنع فإن أعطاه أعطاه على كراهة وإن منعه منعه على استحياء وإغماض هذا إذا سأله ما ليس عليه وأما إذا سأله حقاً هو له عنده فلم يدخل في ذلك ولم يظلمه بسؤاله. وأما ظلمه لنفسه فإنه أراق ماء وجهه وذَلَّ لغير خالقه وأنزل نفسه أدنى المنزلتين ورضيَ لها بأبخس الحالتين ورضي بإسقاط شرف نفسه وعزة تعففه وراحة قناعته وباع صبره ورضاه وتوكله وقناعته بما قسم له واستغناءه عن الناس بسؤالهم وهذا عين ظلمه لنفسه. إذاوضعها في غير موضعها وأخمل شرفها ووضع قدرها وأذهب عزها وصَغَّرها وحقرها ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسؤول ويده تحت يده ولولا الضرورة لم يبح ذلك في الشرع. وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزْعة لحم».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس أموالهم تَكَثُّراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر».

وفي صحيح مسلم عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يغدو أحدكم فيحتَطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه. ذلك بأن اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» زاد الإمام أحمد «ولأن يأخذ تراباً فيجعله في فيه خير له من أن يجعل في فيه ما حرَّم الله عليه».

وفي صحيح البخاري عن الزبير بن العوام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحُزْمةٍ من الحطب على ظهره فيبيعها فَيَكُفَّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

وفي مسند الإمام أحمد عن زيد بن عقبة الفزاري قال: دخلت على الحجاج بن يوسف الثقفي فقلت: أصلح الله الأمير ألا أحدثك حديثاً سمعته من سَمُرة بن جُندب عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى قال: سمعته يقول: (المسائل كَدٌّ يكد بها الرجل وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك إلا أن يسأل رجل ذا سلطان أو يسأل في أمر لا بد منه).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يتقبل لي بواحدة وأتقبل له بالجنة» قلت: أنا قال: «لا تسأل الناس شيئاً» فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب فلا يقول لأحد ناولنيه حتى ينزل هو فيتناوله. رواه الإمام أحمد وأهل السنن.

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي قال تَحَمَّلت حِمالة فأتيت النبي ﷺ أسأله فقال: أقم حتى تأتينا الصدقة فآمر لك بها ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة رجل تحمل حِمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش. أو قال سَداداً من عيش ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجَى من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة فحلَّت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش أو قال سداد من عيش فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحت يأكلها صاحبها سحتاً». رواه مسلم. وعن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث والذي نفس محمد بيده إن كنت لحالفاً عليهن لا ينقص مال من صدقة فتصدقوا. ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها. ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر» رواه الإمام أحمد. وعن خالد بن عدي الجهني رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله إليه» رواه الإمام أحمد. فهذا أحد المعنيين في قوله: (إن من شرط الرضى ترك الإلحاح في المسألة) وهو أليق المعنيين وألاهما لأنه قرنه بترك الخصومة مع الخلق فلا يخاصمهم في حقه ولا يطلب منهم حقوقه.

والمعنى الثاني: أنه لا يلح في الدعاء ولا يبالغ فيه فإن ذلك يقدح في رضاه وهذا يصح في وجه دون وجه فيصح إذا كان الداعي يلح في الدعاء بأغراضه وحظوظه العاجلة. وأما إذا ألحّ على الله في سؤال بما فيه رضاه والقرب منه فإن ذلك لا يقدح في مقام الرضى أصلاً وفي الأثر «إن الله يحب الملحين في الدعاء» وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم بدر للنبي ﷺ يا رسول الله قد ألححتَ على ربك كفاك بعضُ مناشدتك لربك.

فهذا الإلحاح عين العبودية. وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه» فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه.

وحقيقة الرضى موافقته سبحانه في رضاه بل الذي ينافي الرضى أن يلح عليه متحكماً عليه متخيراً عليه ما لم يعلم هل يرضيه أم لا كمن يلح على ربه في ولاية شخص أو إغنائه أو قضاء حاجته فهذا ينافي الرضى لأنه ليس على يقين أن مرضاة الرب في ذلك.

وقد روى الترمذي وغيره عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يُسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج» وروى أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَرَّهُ أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء».

## فصل
## منزلة الشكر

وهي من أعلى المنازل وهي فوق منزلة الرضى وزيادة فالرضى مندرج في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه. وهو نصف الإيمان كما تقدم والإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر. وقد أمر الله به ونهى عن ضده. وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن جزائه وجعله سبباً للمزيد من فضله وحارساً وحافظاً لنعمته وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته واشتق لهم اسماً من أسمائه فإنه سبحانه هو الشكور

وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً. وهو غـاية الـرب من عبده وأهله هم القليل من عباده قال الله تعـالى: [٢: ١٧٢] ﴿**واشكروا نعمة الله إن كنتم إيـاه تعبـدون**﴾ وقـال تعـالى: [٢: ١٥٢] ﴿**واشكـروا لي ولا تكفرون**﴾ وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: [١٦: ١٢٠ و١٢١] ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين شـاكراً لأنعمـه**﴾ وقال عن نـوح عليه السـلام: [١٧: ٣] ﴿**إنه كـان عبداً شكـوراً**﴾ وقال تعـالى: [١٦: ٧٨] ﴿**والله أخـرجكم من بطون أمهـاتكم لا تعلمون شيئـاً وجعل لكم السمـع والأبصـار والأفئـدة لعلكم تشكرون**﴾ وقـال تعالى: [٢٩: ١٧] ﴿**واعبـدوه واشكروا لـه إليـه ترجعـون**﴾ وقال تعـالى: [٣: ١٤٤] ﴿**وسيجزي الله الشـاكـرين**﴾ وقـال تعـالى: [١٤: ٧] ﴿**وإذ تـأذن ربكم لئن شكـرتم لأزيـدنكم ولئن كفــرتم إن عـذابي لشديـد**﴾ وقال تعـالى: [٣١: ٣١] ﴿**إن في ذلك لآيـات لكـل صبـار شكـور**﴾ وسمى نفسه شـاكراً، وشكـوراً، وسمى الشاكـرين بهـذين الاسمين فأعطاهم من وصفه وسماهم بـاسمه وحسبـك بهذا محبـة للشاكـرين وفضلاً. وإعادته للشاكر مشكـوراً كقولـه تعالى: [٧٦: ٢٢] ﴿**إن هـذا كان لكم جـزاء وكـان سعيكم مشكوراً**﴾ ورضي الـرب عن عبده بـه كقولـه تعالى: [٣٩: ٧] ﴿**وإن تشكروا يَرْضَهُ لكم**﴾ وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه كقوله تعـالى: [٣٤: ١٣] ﴿**وقليل من عبـادي الشكور**﴾ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تورمت قدماه فقيل لـه تفعل هـذا وقد غفـر الله لك مـا تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» وقال لمعاذ: «والله يا معاذ إني لأحبك فـلا تنس أن تقول في دبـر كل صـلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدعـو بهؤلاء الكلمات: «اللهم أعني ولا تُعِنْ عليّ وانصـرني ولا تنصـر عليّ. وامكُرْ لي ولا تمكـر بي. واهدني ويسـر الهـدى لي وانصـرنـي على من بغى علي. رب اجعلني لك شَكّاراً لك ذكّاراً لك رهابـاً لك مـطاوعاً لـك. مخبتاً إليـك. أوّاهاً منيبـاً. ربي تقبـل تـوبتي واغسـل حُـوبتي. وأجب دعوتي وثبت حجتي واهد قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة صدري».

## فصل

وأصل الشكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً. يقال: شَكِرَتْ الدابة تَشْكَر شَكَرَاً على وزن سَمَنت تسمَن سمناً إذا ظهر عليها أثر العلف. ودابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف. وفي صحيح مسلم (حتى إن الدواب لَتَشْكَرَ من لحومهم) أي لتسمن من كثرة ما تأكل منها.

وكذلك حقيقته في العبودية وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً وعلى قلبه شهوداً ومحبة. وعلى جوارحه انقياداً وطاعة والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور. وحبه له. واعترافه بنعمته. وثناؤه عليه بها. وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة. وكل من تكلم في الشكر وحَدَّه فكلامه إليها يرجع وعليها يدور.

وشكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان.

وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب.

وقال داود عليه السلام: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة عليّ من عندك تستوجب بها شكراً فقال الآن شكرتني يا داود.

وفي أثر آخر إسرائيلي أن موسى ﷺ قال: (يا رب خلقت آدم بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وعلمته أسماء كل شيء وفعلت وفعلت فكيف أطاق شكرك قال الله عز وجل: عَلِم أن ذلك مني فكانت معرفته بذلك شكراً لي).

وقال الجنيد: وقد سأله سري عن الشكر وهو صبي الشكر أن لا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه فقال: من أين لك هذا قال: من مجالستك. والشكر معه المزيد أبداً لقوله تعالى: [١٤: ٧] ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ فمتى لم تر حالك في مزيد فاستقبل الشكر. وفي أثر إلهي يقول الله عز

وجل: (أهل ذكري أهل مجالستي. وأهل شكري أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب).

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها. ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها. وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وفي هذا قيل:

ومن الرزية أن شكري صامت عما فعلتَ وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أسرها إني إذاً لندى الكريم لسارق

## فصل

قال: (الشكر اسم لمعرفة النعمة لأنها السبيل إلى معرفة المنعم) فمعرفة النعمة ركن من أركان الشكر لا أنها جملة الشكر كما تقدم أنه الاعتراف بها والثناء عليه بها والخضوع له ومحبته والعمل بما يرضيه فيها لكن لما كان معرفتها ركن الشكر الأعظم الذي يستحيل وجود الشكر بدونه جعل أحدهما اسماً للآخر.

قوله: (لأنه السبيل إلى معرفة المنعم) يعني أنه إذا عرف النعمة توصل بمعرفتها إلى معرفة المنعم بها. وهذا من جهة معرفة كونها نعمة لا من أي جهة عرفها بها ومعنى عرف المنعم أحبه وجَدّ في طلبه فإن من عرف الله أحبه لا محالة ومن عرف الدنيا أبغضها لا محالة. وعلى هذا يكون قوله: (الشكر اسم لمعرفة النعمة) مستلزماً لمعرفة المنعم ومعرفته تستلزم محبته ومحبته تستلزم شكره.

قوله: (ثم الثناء بها) الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة نوعان عام وخاص فالعام وصفه بالجود والكرم والبر والإحسان وسعة العطاء ونحو ذلك. والخاص التحدث بنعمته والإخبار بوصولها إليه من جهته كما قال تعالى: [٩٣: ١١] ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ وفي هذا التحديث المأمور به قولان أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها. وقوله أنعم الله عليَّ بكذا وكذا.

قال مقاتل: يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة من جبر اليتيم. والهدى بعد الضلال. والإغناء بعد العيلة. والتحدث بنعمة الله شكر كما في حديث جابر مرفوعاً «من صنع إليه معروف فليَجْزِ به فإن لم يجد ما يَجْزِي به فليُثْنِ فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره ومن تَحلَّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبي زور» فذكر أقسام الخلق الثلاثة شاكر النعمة المثني بها. والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها فهو متحلٍّ بما لم يعطه. وفي أثر آخر مرفوع «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس من لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب».

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة. قال مجاهد هي النبوة. قال الزجاج أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي هو القرآن أمره أن يقرأه. والصواب أنه يعم النوعين إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها وإظهارُها من شكرها.

فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافي نعمه أبداً ولا أقلها ولا أدنى نعمة من نعمه فإنه تعالى هو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر وما يُشكر عليه فلا يستطيع أحد أن يحصي ثناء عليه فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه. وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه تحتاج إلى شكر آخر وهلم جرا[1]. ومن تمام نعمته سبحانه وعظيم بره وكرمه وجوده محبته له على هذا الشكر ورضاه منه به وثناؤه عليه به ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد لا تعود منفعته على الله وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه. ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة ويرضى عنك ثم يعيد إليك منفعة شكرك ويجعله سبباً لتوالي نعمه واتصالها إليك والزيادة على ذلك منها. (إلى أن قال).

---

(١) وتحقيق ذلك أن الشكر على ما بدأ الشيخ ابن القيم من شرح معناه اللغوي إنما هو تلقي العبد للنعمة بالقبول الحسن وأخذها باليقظة والبصيرة النيرة ليعرف حقيقتها وصفتها ومزيتها فيحرص على أن يضعها من نفسه. وفي الواقع موضعها لينال النفع والخير الذي جعله له فيها ربه العليم الحكيم فتظهر آثارها على ظاهره وباطنه.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية الشكر في المكاره وهذا ممن تستوي عنده الحالات إظهاراً للرضى. وممن يميز بين الأحوال: لكظم الغيظ وستر الشكوى. ورعاية الأدب وسلوك مسلك العلم وهذا الشاكر أول من يُدْعَى إلى الجنة) يعني أن الشكر على المكاره أشد وأصعب من الشكر على المحاب ولهذا كان فوقه في الدرجة ولا يكون إلا من أحد رجلين إما رجل لا يميز بين الحالات بل يستوي عنده المكروه والمحبوب فشكر هذا إظهار منه للرضى بما نزل به وهذا مقام الرضى. الرجل الثاني: من يميز بين الأحوال فهو لا يحب المكروه ولا يرضى بنزوله به فإذا نزل به مكروه شكر الله تعالى عليه فكان شكره كظماً للغيظ الذي أصابه وستراً للشكوى ورعاية منه للأدب وسلوكاً لمسلك العلم فإن العلم والأدب يأمران بشكر الله على السراء والضراء فهو يسلك بهذا الشكر مسلك العلم لأنه شاكر لله شكر من رضي بقضائه كحال الذي قبله فالذي قبله أرفع منه. وإنما كان هذا الشاكر أول من يدعى إلى الجنة لأنه قابل المكاره التي يقابلها أكثر الناس بالجزع والسخط وأوساطهم بالصبر وخاصتهم بالرضى فقابلها هو بأعلى من ذلك كله وهو الشكر فكان أسبقهم دخولاً إلى الجنة وأول من يدعى منهم إليها.

## فصل
## منزلة الحياء

قال الله تعالى: [٩٦: ١٤] ﴿**ألم يعلم بأن الله يرى**﴾ وقال تعالى: [٤: ١] ﴿**إن الله كان عليكم رقيباً**﴾ وقال تعالى: [٤٠: ١٩] ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرّ برجل وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: «دَعْه فإن الحياء من الإيمان».

وفيهما عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير» وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بِضْع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا

إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحيـاء شعبة من الإيمان». وفيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: كان رسـول الله ﷺ أشد حيـاء من العذراء في خِذْرها فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفنـاه في وجهه. وفي الصحيـح عنه ﷺ: «إن مما أدركَ الناس من كلام النبـوة الأولى إذا لم تستح فـاصنع مـا شئت» وفي هذا قولان: أحدهما أنه أمر تهديد ومعنـاه الخبر أي من لم يستـح صَنع ما شاء. والثاني أنه أمر إباحة أي انـظر إلى الفعل الـذي تريـد أن تفعله فـإن كان ممـا لا يستحى منه فـافعله والأول أصح وهـو قول الأكثـرين. وفي الترمذي مرفوعاً: «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: إنا نستحي يـا رسول الله قـال: «ليس ذلكم. ولكن من استحيَ من الله حق الحياء فليحفظ الـرأس وما وعى وليحفظ البطن وما حوى وليذكر الموت والبِلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيَ من الله حق الحياء».

## فصل

والحياء من الحياة ومنه الحيا للمطر لكن هو مقصور وعلى حسب حيـاة القلب يكون فيه قوة خُلُق الحياء. وقلة الحيـاء من موت القلب والـروح فكلما كان القلب أحيَ كان الحياء أتم.

قال الجنيد رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصيـر فيتولـد بينهما حالة تسمى الحياء وحقيقته خلق يبعث على تـرك القبائـح ويمنع من التفـريط في حق صاحب الحق. ومن كلام بعض الحكماء أحيوا الحيـاء بمجالسـة من يستحيَ منه وعمارة القلب بالهيبة والحياء فإذا ذهبا من القلب لم يبق فيه خيـر وقـال ذو النون: الحيـاء وجود الهيبـة في القلب مع وحشـة ما سبق منـك إلى ربك والحب ينطق والحياء يسكت والخوف يقلق.
وقال السري إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحـلا. وفي أثر إلهي يقـول الله عز وجـل: (ابن آدم إنـك مـا استحييت مني أنسيت الناس عيوبك. وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك. ومحـوت من أم الكتاب زلاتك. وإلا ناقشتك الحساب يوم القيامة).

وفي أثر آخر أوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: (عظ

نفسك فإن اتعظت وإلا فاستحي مني أن تعظ الناس).

وقال الفضيل بن عياض خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب. وجمود العين. وقلة الحياء والرغبة في الدنيا. وطول الأمل. وفي أثر إلهي: (ما أنصفني عبدي يدعوني فأستحي أن أرده ويعصيني ولا يستحي مني). وقال يحيى بن معاذ من استحي من الله مطيعاً استحي الله منه وهو مذنب. وهذا الكلام يحتاج إلى شرح.

ومعناه أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل فإنه إذا واقع ذنباً استحي الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه فيستحي أن يرى من وليه ومن يَكْرُم عليه ما يشينه عنده وفي الشاهد شاهد بذلك فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به وأحبهم إليه وأقربهم منه من صاحب أو ولد أو من يحبه وهو يخونه فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب حتى كأنه هو الجاني وهذا غاية الكرم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: سبحان من يذنب عبده ويستحي هو.

وفي أثر (من استحي من الله استحي الله منه).

وأما حياء الرب تعالى من عبده فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً ويستحي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام.

وقد قسم الحياء على عشرة أوجه: حياء جناية. وحياء تقصير. وحياء إجلال. وحياء كرم. وحياء حشمة. وحياء استصغار للنفس واحتقار لها. وحياء محبة. وحياء عبودية. وحياء شرف وعزة. وحياء المستحي من نفسه. فأما حياء الجناية فمنه حياء آدم عليه السلام لما فَرَّ هارباً في الجنة قال الله تعالى أفراراً مني يا آدم قال: لا يا رب بل حياء منك. وحياء التقصير كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال هو حياء المعرفة وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب وطَوَّلوا الجلوس عنده فقام واستحي أن يقول لهم انصرفوا.

وحياء الحشمة كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه.

وحياء الاستحقار واستصغار النفس كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأل حوائجه احتقاراً لشأن نفسه واستصغاراً لها.

وأما حياء المحبة فهو حياء المحب من محبوبه حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه وأحس به في وجهه ولا يدري ما سببه وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة ومنه قولهم: جمال رائع وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس. ولا ريب أن للمحبة سلطاناً قاهراً للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن فأين من يقهر قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك ولذلك تعجبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق وقهر المحبوب لهم وذلهم له فإذا فاجأ المحبوب محبه ورآه بغتة أحس القلب بهجوم سلطانه عليه فاعتراه روعة وخوف. وسألنا يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه عن هذه المسألة فذكرت أنا هذا الجواب فتبسم ولم يقل شيئاً. وأما الحياء الذي يعتريه منه وإن كان قادراً عليه كأمته وزوجته فسببه والله أعلم أن هذا السلطان لما زال خوفه عن القلب بقيت هيبته واحتشامه فتولد منها الحياء وأما حصول ذلك له في غيبة المحبوب فظاهر لاستيلائه على قلبه فوهمه يغالطه عليه ويكابره حتى كأنه معه.

وأما حياء العبودية فهو حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده وأن قدره أعلى وأجل منها فعبوديته له توجب استحياؤه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما

هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة وهذا له سببان: أحدهما هذا والثاني استحياؤه من الآخذ حتى كأنه هو الآخذ السائل حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه وهذا يدخل في حياء التلوم لأنه يستحي من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون فيجد نفسه مستحيياً من نفسه حتى كأنه له نفسين يستحي بإحداهما من الأخرى وهذا أكمل ما يكون من الحياء فإن العبد إذا استحي من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

## فصل

قال: (وهو على ثلاث درجات الأولى حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية ويسكته عن الشكوى) يعني أن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة مثل العبد إذا عمل الشغل بين يدي سيده فإنه يكون نشيطاً فيه محتملاً لأعبائه ولا سيما مع الإحسان من سيده إليه ومحبته لسيده بخلاف ما إذا كان غائباً عن سيده. والرب تعالى لا يغيب نظره عن عبده ولكن يغيب نظر القلب والتفاته إلى نظره سبحانه إلى العبيد فإن القلب إذا غاب نظره وَقَلَّ التفاته إلى نظر الله تبارك وتعالى إليه تولد من ذلك قلة الحياء والقِحَة. وكذلك يحمله على استقباح جنايته وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قدر زائد على استقباح ملاحظة الوعيد وهو فوقه. وأرفع منه درجة الاستقباح الحاصل عن المحبة فاستقباح المحبة أتم من استقباح الخائف ولذلك فإن هذا الحياء يكف العبد أن يشتكي لغير الله فيكون قد شكا إلى خلقه ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه فإن الشكوى إليه سبحانه فقر وذلة وفاقه وعبودية فالحياء منه في مثل ذلك لا ينافيها.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية حياء يتولد من النظر في علم القرب فيدعوه إلى

ركوب المحبة ويربطه بروح الأنس ويكره إليه ملابسة الخلق) النظر في علم القرب تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله فإن المعية نوعان: عامة، وهي معية العلم والإحاطة كقوله تعالى: [٥٧: ٤] ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾ وقوله تعالى: [٥٨: ٧] ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا**﴾، وخاصة وهي معية القرب كقوله تعالى: [١٦: ١٣٨] ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ وقوله تعالى: [٣: ١٥٣] ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ وقوله تعالى: [٢٩: ٦٩] ﴿**وإن الله لمع المحسنين**﴾ فهذه معية قرب تتضمن الموالاة والنصر والحفظ وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانه فـ(مع) في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة ولا مجانبة فمن ظن منها شيئاً من هذا فمن سوء فهمه أُتي.

وأمّا القرب فلا يقع في القرآن إلا خاصاً وهو نوعان قربه من داعيه بالإجابة وقربه من عابده بالإثابة. فالأول كقوله تعالى: [٢: ١٨٦] ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعان**﴾ ولهذا نزلت جواباً للصحابة رضي الله عنهم وقد سألوا رسول الله ﷺ أربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله تعالى هذه الآية، والثاني قوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وأقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل» فهذا قربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه واستواءه على عرشه بل يجامعه ويلازمه فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ولكنه نوع آخر والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي ويجده أقرب إليه من جليسه كما قيل:

ألا رُبّ من يدنو ويزعم أنه يحبك والنائي أحب وأقرب

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم وأحب إليهم منها يجدون نفوسهم أقرب إليهم وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها هذا مع عدم تأتي القرب منها فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء وهو مستو على عرشه وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله خليٍّ من محبته ومعرفته. والقصد أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبة وكلما ازداد حباً ازداد قرباً فالمحبة بين قربين قرب قبلها وقرب بعدها، وبين معرفتين معرفة قبلها حملت عليها ودعَتْ إليها ودَلَّت عليها ومعرفة بعدها هي من نتائجها وآثارها.

وأما ربطه بروح الأنس فهو تعلق قلبه بروح الأنس بالله تعلقاً لازماً لا يفارقه بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة ولا ريب أن هذا يُكرِّه إليه ملابسة الخلق بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدر أنسه بربه وقرة عينه بحبه وقربه منه فإنه ليس مع الله غيره فإن لابسهم لابسهم برسمه دون سِرِّه وروحه وقلبه فقلبه وروحه في ملأ وبدنه ورسمه في ملأ.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة حياء يتولد من شهود الحضرة وهي التي لا تشوبها هيبة. ولا تقارنها تفرقة. ولا يوقف لها على غاية) شهود الحضرة انجذاب الروح والقلب من الكائنات وعكوفه على رب البريات فهو في حضرة قربه مشاهداً لها وإذا وصل القلب إليها غَشِيته الهيبة وزالت عنه التفرقة إذ ما مع الله سواه فلا يخطر بباله في تلك الحال سوى الله وحده وهذا مقام الجمعية.
وأما قوله: (ولا يوقف لها على غاية) فيعني أن كل من وصل إلى مطلوبه وظفر به وصل إلى الغاية إلا صاحب هذا المشهد فإنه لا يقف بحضرة الربوبية على غاية فإن ذلك مستحيل بل إذا شهد تلك الروابي ووقف على تلك الربوع وعاين الحضرة التي هي غاية الغايات شارف أمراً لا غاية له ولا نهاية

والغـايات والنهـايـات كلهـا إليـه تنتهي [٥٣:٤٢] ﴿**وأن إلى ربـك المنتهى**﴾ فانتهت إليه الغايات والنهايات وليس لـه سبحانـه غايـة ولا نهايـة لا في وجوده ولا في مزيد جوده إذ هو الأول الـذي ليس قبله شيء والآخر الـذي ليس بعده شيء ولا نهاية. وحمده وعطائه بل كلما ازداد له العبد شكراً زاده فضلاً وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة وكلما ازداد منه قرباً لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك. وهكذا أبداً لا يقف على غايـة ولا نهايـة ولهذا جـاء (إن أهـل الجنة في مـزيد دائم بـلا انتهاء) فـإن نعيمهم متصل ممن لا نهـايـة لفضله ولا لعـطائه ولا لمـزيده ولا لأوصـافـه فتبـارك الله ذو الجـلال والإكـرام [٣٨: ٥٤] ﴿**إن هذا لرزقنا ما لـه من نفاد**﴾ «يـا عبادي لـو أن أَوَّلَكُمْ وآخِركم وإنسَكُم وَجِنّكُمْ قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسـألته مـا نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أدخل البحر».

## فصل
## منزلة الصدق

وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين والـطريق الأقـوم الذي من لم يَسِـرْ عليه فهـو من المنقطعين الهـالكين. وبه تميـز أهـل النفـاق من أهل الإيمـان وسكان الجنـان من أهل النيـران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعـه مَنْ صـال به لم تـرد صولتـه ومن نـطق بـه عَلَتْ على الخصـوم كلمتـه فهـو روح الأعمال ومَحَكُّ الأحوال والحامل على اقتحام الأهوال والباب الذي دخل منـه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال وهو أساس بناء الدين وعمود فسـطاط اليقين ودرجته تالية لدرجة النبوّة التي هي أرفع درجات العـالمين. ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصل وَمَعِين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقـال تعالى: [٩: ١١٩] ﴿**يـا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ وقال تعالى: [٤: ٦٩] ﴿**ومن**

**يطع الله والرسول فأولئك هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾** فهم الرفيقُ الأعلى **﴿وَحَسُنَ أولئك رفيقاً﴾** ولا يزال الله يَمُدُّهُم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً ولهم مرتبة المعية مع الله فإن الله مع الصادقين ولهم منزلة القرب منه إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.
وأخبر تعالى أن مَنْ صدقه فهو خير له فقال: [٤٧ : ٢١] **﴿فإذا عَزَمَ الأمْرُ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾**.

وأخبر تعالى عن أهل البِرِّ وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان والإسلام والصدقة والصبر بأنهم أهل الصدق فقال: [٢ : ١٧٧] **﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾** وهذا صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان. وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق فقال تعالى: [٣٣ : ٢٤] **﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾** والإيمان أساسه الصدق. والنفاق أساسه الكذب فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر. وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه قال تعالى: [٥ : ١١٩] **﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾** وقال تعالى: [٣٩ : ٣٤] **﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾** فالذي جاء بالصدق هو مَنْ شأنُهُ الصدق في قوله وعمله وحاله فالصدق في هذه الثلاثة فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها. والصدق في الأعمال استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد. والصدق في الأحوال استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص واستفراغ الوسع وبذل الطاقة فبذلك يكون العبد من الذين جاؤوا بالصدق وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صديقيته ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه

وأرضاه ذروة سَنام الصديقية سُمي الصديق على الإطلاق. والصديق أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق فأعلى مراتب الصدق مرتبة الصديقية وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للمرسِل.

وقد أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مَدْخَلَه وَمَخْرَجه على الصدق فقال: [١٧: ٨٠] ﴿**وَقُلْ رب أدخلني مُدْخَلَ صِدق وأخرجني مُخْرَجَ صِدق واجعل لي مِنْ لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً**﴾ وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين فقال: [٢٦: ٨٤] ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾ وبشر عباده بأن لهم عنده قَدَم صدق ومَقْعَدَ صدق فقال تعالى: [١٠: ٢] ﴿**وبشر الذين آمنوا أن لهم قَدَمَ صدق عند ربهم**﴾ وقال تعالى: [٥٤: ٥٤ و٥٥] ﴿**إنّ المتقين في جنات ونهر. في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليك مقتدر**﴾ فهذه خمسة أشياء، مَدْخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقَدَم الصدق، ومقعد الصدق، وحقيقة الصدق في هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة. فمدخل الصدق ومخرج الصدق أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله وفي مرضاته بالظَّفَر بالبغية وحصول المطلوب. ضد مَخْرَج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة. وكذلك مدخله ﷺ المدينة كان مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضاة الله فاتصل به التأييد والظفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة. بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب فإنه لم يكن بالله ولا لله بل كان محادة لله ورسوله فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار. وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حِصْنَ بني قُرَيظة فإنه لما كان مدخل كذب أصابه معهم ما أصابهم. فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله فصاحبه ضامن على الله فهو مدخل صدق ومخرج صدق.

وأما لسان الصدق فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق ليس ثناء بالكذب كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم

صلوات الله وسلامه [١٩ : ٥٠] ﴿**وجعلنا لهم لسان صدق عَلِيًّا**﴾ والمراد باللسان ههنا الثناء الحسن فلما كان لصدق باللسان وهو محله أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقاً وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة. كقوله تعالى: [١٤ : ٤] ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**﴾ وقوله: [٣٠:٢٢] ﴿**واختلاف ألسنتكم وألوانكم**﴾ وقوله: [١٦ :١٠٣] ﴿**لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾ ويراد به الجارحة نفسها كقوله تعالى: [١٦:٧٥] ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾.

وأما قدم الصدق. ففسر بالجنة وفسر بمحمد ﷺ وفسر بالأعمال الصالحة. وحقيقة القدم: ما قدموه وما يقدمون عليه يوم القيامة، وهم قَدَّموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ ويُقْدِمون على الجنة التي هي جزاء ذلك فمن فسره بها أراد ما يَقْدُمون عليه ومن فسره بالأعمال وبالنبي ﷺ فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم فالثلاثة قَدَم صدق.

وأما مقعد الصدق فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى. ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق ودوامه ونفعه وكمال عائدته فإنه متصل بالحق سبحانه كائن به وله فهو صدق غير كذب وحق غير باطل ودائم غير زائل ونافع غير ضار وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

ومن علامات الصدق طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب حصول الريبة كما في الترمذي مرفوعاً من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الصدق طمأنينة والكذب ريبة» وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البِرِّ وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يُكْتَبَ عند الله صديقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها وهي غايته فلا يَنالُ درجتها كاذبٌ ألبتة لا في قوله ولا في عمله ولا في حاله. ولا سيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته ونفي ما أثبته أو إثبات

ما نفاه عن نفسه فليس في هؤلاء صِدِّيق أبداً. وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه بتحليل ما حرمه وتحريم ما لم يحرمه وإسقاط ما أوجبه وإيجاب ما لم يوجبه وكراهة ما أحبه واستحباب ما لم يحبه كل ذلك مناف للصديقية وكذلك الكذب معه في الأعمال بالتحلي بحلية الصادقين المخلصين والزاهدين المتوكلين وليس في الحقيقة منهم فلذلك كانت الصديقية كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر ظاهراً وباطناً حتى إن صدق المتبايعين يُحِّل البركة في بيعهما وكذبهما يمحق بركة بيعهما كما في الصحيحين عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبَيَّنا بورك لهما في بيعهما. وإن كذبا وكَتَمَا محقت بركة بيعهما».

## فصل

الصدق مطلوبه رضى ربه وتنفيذ أوامره وتتبع محابه فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها ويستقل معها أين استقلت مضاربها فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع ثم في أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا. ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة أو نصر مظلوم، إن أمكن، إلى غير ذلك من أنواع القُرَب والمنافع فهو في تفرق دائم لله. وجمعية على الله. لا يملكه رسم ولا عادة ولا وضع ولا يتقيد بقيد ولا إشارة ولا بمكان معين يصلي فيه ولا يصلي في غيره وزِيٍّ معين لا يلبس سواه وعبادة معينة لا يلتفت إلى غيرها مع فضل غيرها عليها أو هي أعلى من غيرها في الدرجة وبُعْد ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض. فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع وعبادة النفس وإيثار مرادها والإشارة إليها. كلها في هذه الأوضاع والرسوم والقيود التي حبست أربابها عن السير إلى قلوبهم. فضلاً عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه وزِيّه وقيده وإشارته ولو إلى أفضل منه استهجن ذلك ورآه نقصاً وسقوطاً من أعين الناس وانحطاطاً لرتبته عندهم. وهو قد انحط وسقط من عين الله.

وقد يحسُّ أحدهم ذلك من نفسه وحاله. ولا تَدَعه رسومه وأوضاعه وزِيُّه وقيوده أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه وهذا شأن الكذاب المرائي الذي يبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه العامل على عمارة نفسه ومرتبته وهذا هو النفاق بعينه ولو كان عاملاً على مراد الله منه وعلى الصدق مع الله لأثقلته تلك القيود وحبسته تلك الرسوم ولرأى الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه ولما بالى أيَّ ثوب لبس ولا أيَّ عمل عمل إذا كان على مراد الله من العبد.

وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي لا يطيقه إلا أصحاب العزائم فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل. والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً ألبتة فهو حامل له في أي موضع اتفق بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله. وقال بعضهم الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحي من سره لو كشف.

وقال الجنيد: حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك منه الكذب.

وقيل: ثلاثة لا تخطىء الصادق: الحلاوة، والملاحة، والهيبة.

وقيل: من طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها الحق والباطل.

وقيل: عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك فإنه ينفعك ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك. وقيل: ما أملق تاجر صدوق.

قوله: (ويتلافى به كل تفريط) فإنه حامل على كل سبب ينال به الوصول وقطع كل سبب يحول بينه وبينه فلا يترك فرصة تفوته وما فاته من الفرص السابقة تداركها بحسب الإمكان فيصلح من قلبه ما مَزَّقته يد الغفلة والشهوة ويُعَمِّر ما خربته يد البطالة ويوقد فيه ما أطفأته أهوية النفس وَيَلُمُّ منه ما شَعّثته يد التفريط والإضاعة ويسترد منه ما نهبته أكف اللصوص والسراق ويزرع منه ما وجده بوراً من أراضيه ويقلع ما وجده شوكاً وشبرقاً في نواحيه ويستفرغ منه ما ملأته مواد الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعطب ويداوي منه الجراحات التي أصابته من عبرات الرياء ويغسل منه

الأوساخ والحوبات التي تراكمت عليه على تقادم الأوقات حتى لو اطلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذي صار دباغاً له فيطهره بالماء البارد من ينابيع الصدق الخالصة من جميع الكدورات قبل أن يكون طهوره بالجحيم والحميم فإنه لا يجاور الرحمٰن قلب دنس بأوساخ الشهوات والرياء أبداً ولا بد من طهور فاللبيب يؤثر أسهل الطهورين وأنفعهما والله المستعان.

وقوله: (وعلامة هذا الصادق أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقض العهد) يعني أن الصادق حقيقة هو الذي قد انجذبت قوى روحه كلها إلى إرادة الله وطلبه والسير إليه والاستعداد للقائه ومن تكون هذه حاله لا يحتمل سبباً يدعوه إلى نقض عهده مع الله بوجه.

وقوله: (ولا يصبر على صحبة ضد) الضد عند القوم هم أهل الغفلة وقطاع طريق القلب إلى الله وأضر شيء على الصادق صحبتهم بل لا تصبر نفسه على ذلك أبداً. إلا جمع ضرورة وتكون صحبتهم له في تلك الحال بقالبه وشبحه دون قلبه وروحه فإن هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدق في الصادق أحست روحه بالأجنبية التي بينه وبينهم بالمضادة فاشتدت النفرة وقوي الهرب وبحسب هذه الأجنبية وإحساس الصادق بها تكون نفرته وهربه عن الأضداد فإن هذا الضد إن نطق أحس قلب الصادق أنه نطق بلسان الغفلة والرياء والكبر وطلب الجاه ولو كان ذاكراً أو قارئاً أو مصلياً أو حاجاً أو غير ذلك فنفر قلبه منه وإن صمت أحس قلبه أنه صمت على غير حضور وجمعية على الله وإقبال بالقلب عليه وعكوف السر عليه فينفر منه أيضاً. فإن قلب الصادق قوي الإحساس فيجد الغيرية والأجنبية من الضد ويشم القلبُ القلبَ كما يشم الرائحة الخبيثة فيزوي وجهه لذلك ويعتريه عبوس فلا يأنس به إلا تكلفاً ولا يصاحبه إلا ضرورة فيأخذ من صحبته قدر الحاجة كصحبة من يشتري منه أو يحتاج إليه في مصالحه كالزوجة والخادم ونحوه.

قوله: (ولا يقعد عن الجد بحال) يعني أنه لما كان صادقاً في طلبه مستجمع القوة لم يقعد به عزمه عن الجد في جميع أحواله فلا تراه إلا جاداً وأمره كله جد.

# فصل
## منزلة الايثار

قال الله تعالى: [٦٤:١٦] ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ فالإيثار ضد الشح فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح حريص على ما ليس بيده فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح والشح يأمر بالبخل كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا» فالبخيل من أجاب داعي الشح. والمؤثر من أجاب داعي الجود. كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء وهو أفضل من سخاء البذل. قال عبدالله بن المبارك سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل. وهذا المنزل هو منزل الجود والسخاء والإحسان وسمي بمنزل الإيثار لأنه أعلى مراتبه فإن المراتب ثلاثة: إحداها أن لا ينقصه البذل ولا يصعب عليه فهو منزلة السخاء. الثانية أن يعطي الأكثر ويُبْقِيَ له شيئاً. أو يبقي مثل ما أعطى فهو الجود. الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه وهو مرتبة الإيثار وعكسها الأَثَرة وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه وهو المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار رضي الله عنهم: «إنكم ستلقون بعدي أَثَرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» والأنصار هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله تعالى: [٦٤:١٦] ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ فوصفهم بأعلى مراتب السخاء وكان ذلك فيهم معروفاً.

وكان قيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين حتى أنه مرض مرة فاستبطأ إخوانه في العيادة فسأل عنهم فقالوا أنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ثم أمر منادياً ينادي من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل فما أمسى حتى كُسرت عتبة بابه لكثرة من عاده. وقالوا له يوماً: هل رأيت أسخى منك قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فحضر زوجها فقالت إنه نزل بك ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال: شأنكم، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها

فقلنا: ما أكلنا من التي نحرتَ البارحة إلا اليسير فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت فبقينا عنده يومين أو ثلاثة والسماء تمطر وهو يفعل ذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مئة دينار في بيته وقلنا للمرأة اعتذري لنا إليه ومضينا فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتموني ثمن قرايَ ثم إنه لحقنا وقال لَتأخُذُنَّه أو لأطاعننكم برمحي فأخذناه وانصرف.

فتأمل سر التقدير حيث قدر الحكيم الخبير سبحانه استئثار الناس على الأنصار بالدنيا. وهم أهل الإيثار ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك مع كونك من أهل الإيثار فاعلم أنه لخير يراد بك والله سبحانه وتعالى أعلم.

## فصل

والجود عشر مراتب: أحدها: الجود بالنفس وهو أعلى مراتبه كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضَنَّ البخيل بها      والجواد بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة وهو ثاني مراتب الجود فيحمل الجواد جودُه على امتهان رياسته والجود بها والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه فيجود بها تعباً وكَدًّا في مصلحة غيره ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالنَّدَى لو قال سائله      هب لي جميع كَرَى عينيك لم يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعلم وبذله وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال لأن العلم أشرف من المال. والناس في الجود به على مراتب متفاوتة وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ أن لا ينفع به بخيلاً

أبداً. ومن الجود به أن تبذله لمن يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحاً. ومن الجود بالعلم أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها جواباً شافياً لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا (نعم) أو (لا) مقتصراً عليها. ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في ذلك أمراً عجيباً كان إذا سئل عن مسألة حُكمية ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر ومأخذ الخلاف وترجيح القول الراجح وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته وهذه فتاويه رحمه الله بين الناس فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك. فمن جود الإنسان بالعلم أنه لا يقتصر على مسألة السائل بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها بحيث يشفيه ويكفيه. وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ عن المتوضىء بماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه الحِل ميتته» فأجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه. وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر فقال: «أينقص الرطب إذا جَفَّ» قالوا: نعم قال: «فلا إذن» ولم يكن يخفى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه ولكن نبههم على علة الحكم وهذا كثير جداً في أجوبته ﷺ مثل قوله: «إن بعتَ من أخيك ثمرة فأصابتها جائحة فلا يَحِلُّ لك أن تأخذ من مال أخيك شيئاً بِمَ يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق» وفي لفظ: «أرأيت إن منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق» فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن وهي مَنْعُ الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع وكان خصومه؛ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية يعيبونه بذلك ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر - مثلاً - فيذكر له معها طريق مكة والمدينة وخراسان والعراق والهند وأي حاجة بالسائل إلى ذلك. ولعمر الله ليس ذلك بعيب وإنما العيب الجهل والكبر وهو موضع المثل المشهور.

مثل من لم يصل إلى العنقود ... لقبوه بحامض وهو خل

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي

سلطان ونحوه وذلك زكاة الجاه المطالَبُ بها العبد كما أن التعليم وبَذْلَ العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه كما قال ﷺ: «يُصْبح على كل سُلاَمَى من أحدكم صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين اثنين صدقة. ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة. وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة صدقة. ويُميط الأذى عن الطريق صدقة» متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض كجود أبي ضَمْضَم من الصحابة رضي الله عنهم كان إذا أصبح قال: اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس وقد تصدقت عليهم بعرضي فمن شتمني أو قذفني فهو في حل فقال النبي ﷺ: «من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم». وفي هذا الجود من سلامة الصدر وراحة القلب والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء وهذه مرتبة شريفة من مراتبه وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال وأعز له وأنصر وأملك لنفسه وأشرف لها ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار. فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة وهذا جود الفتوة قال تعالى: [٥: ٤٥] **﴿والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾** وفي هذا الجود قال تعالى: [٤٢: ٤٠] **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾** فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل. وأذن فيه. ومقام الفضل وندب إليه. ومقام الظلم وحرمه.

التاسعة: الجود بالخُلق والبشر والبسطة وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم وهو أثقل ما يوضع في الميزان قال النبي ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه» وفي هذا الجود من المنافع والمسار وأنواع المصالح ما فيه والعبد لا يمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم فلا يلتفت إليه ولا

يستشرف له بقلبه ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه وهذا الذي قال عبدالله بن المبارك إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل.

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد وإن لم أعطك ما تجود به على الناس فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم تُفْضِل عليهم وتزاحمهم في الجود وتنفرد عنهم بالراحة ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد والإتلاف للممسك والله المستعان.

## فصل

قال: (الدرجة الأولى أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يَخْرِم عليك ديناً. ولا يقطع عليك طريقاً ولا يفسد عليك وقتاً).

يعني أن تقدمهم على نفسك في مصالحهم مثل أن تطعمهم وتجوع وتكسوهم وتَعْرى وتسقيهم وتظمأ بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين. ومثل أن تؤثرهم بمالك وَتَقْعُدَ كَلًّا مضطراً مستشرفاً للناس أو سائلاً وكذلك إيثارهم بكل ما يحرمه على المؤثر دينه فإنه سفه وعجز يذم المؤثر به عند الله وعند الناس.

وأما قوله: (ولا يقطع عليك طريقاً) أي لا يقطع عليك طريق الطلب والمسير إلى الله تعالى مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك وتوجهك وجمعيتك على الله فتكون قد آثرت على الله وآثرت بنصيبك من الله ما لا يستحق الإيثار فيكون مَثَلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه وأخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالى فإيثارهم عليه عين الغبن وما أكثر المؤثرين على الله تعالى غيره وما أقل المؤثرين الله على غيره.

وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحداً فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم وتأمل أحوال

أكثر الخلق في إيثارهم على الله من يضرهم إيثارهم له ولا ينفعهم وأي جهالة وسفه فوق هذا.

ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقُرَب وقالوا إنه مكروه أو حرام كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو أو يؤثر بقربه من الإمام يوم الجمعة. أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه ويرفعه عليه فيفوز به دونه.

## فصل

قال: (ولا يستطاع إلا بثلاثة أشياء: بتعظيم الحقوق ومقت الشح، والرغبة في مكارم الأخلاق) ذكر ما يعين على الإيثار فيبعث عليه وهو ثلاثة أشياء: تعظيم الحقوق فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها ورعاها حق رعايتها واستعظم إضاعتها وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي فيجعل إيثاره احتياطاً لأدائها. الثاني: مقت الشح فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار فإنه يرى أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار. الثالث: الرغبة في مكارم الأخلاق وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية: إيثار رضى الله على رضى غيره وإن عظمت فيه المحن وثقلت فيه المؤن وضعف عنه الطَّوْل والبدن) إيثار رضى الله عز وجل على غيره هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته ولو أغضب الخلق وهي درجة الأنبياء وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه وأعلاها لأولي العزم منهم وأعلاها لنبينا ﷺ وعليهم فإنه قاوم العالم كله وتجرد للدعوة إلى الله واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم بل كان همه وعزمه وسعيه كله مقصوراً على إيثار مرضاة الله وتبليغ رسالاته وإعلاء كلماته وجهاد أعدائه حتى ظهر دين الله على كل دين وقامت حجته على العالمين وتمت نعمته على

المؤمنين فبلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما نال صلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله: (وإن عظمت فيه المحن وثقلت فيه المؤن) فإن المحنة تعظم فيه أولاً ليتأخر من ليس من أهله فإذا احتملها وتقدم انقلبت تلك المحن منحاً. وصارت تلك المؤن عوناً. وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة فإنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق وتحمل ثقل ذلك ومؤنته وصبر على محنته إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته فانقلبت مخاوفه أمناً ومظان عَطَبه نجاة. وتعبه راحة. ومؤنته معونة وبليته نعمة. ومحنته منحة. وسخطه رضى فيا خيبة المتخلفين ويا ذِلَّة المتهيبين. هذا وقد جرت سنة الله التي لا تبديل لها أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته أن يسخط عليه من آثر رضاه ويخذله من جهته ويجعل محنته على يديه فيعود حامده ذاماً ومن آثر مرضاته ساخطاً فلا على مقصوده منهم حصل ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضى الخلق لا مقدور. ولا مأمور. ولا مأثور فهو مستحيل بل لا بد من سخطهم عليك فلأَنْ يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض فإذا كان سخطهم لا بدَّ منه على التقديرين فآثِرْ سخطهم الذي تنال به رضى الله فإن هم رضوا عنك بعد هذا وإلا فأهون شيء رضى من لا ينفعك رضاه ولا يضرك سخطه في دينك ولا في إيمانك ولا في آخرتك. فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم وخاصة العقل احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما فوازن بعقلك ثم انظر أيَّ الأمرين خير فآثِره وأيهما شر فابْعُدْ عنه فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضى الله على رضى الخلق. هذا مع أنه إذا آثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال بعض السلف: لَمُصانَعةُ وجهٍ واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها.

وقال الشافعي رضي الله عنه: رضى الناس غاية لا تدرك فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

من المعلوم أن المؤثر لرضى الله متصدٍ لمعاداة الخلق وأذاهم وسعيهم في إتلافه ولا بد هذه سنة الله في خلقه. وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل والذين يأمرون بالقسط من الناس والقائمين بدين الله الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم؟فمن آثر رضى الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم وغرثاهم[1] وجُهالهم وأهل البدع والفجور منهم. وأهل الرياسات الباطلة وكل من يخالف هديه هديه فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله عامل على سماع خطاب [٨٩: ٢٧ - ٣٠] **﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾** ومن إسلامه صُلب كامل لا تزعزعه الرجال ولا تقلقله الجبال ومَنْ عَقْد عزيمة صبره مُحْكَم لاَ تَحُلُّه المحن والشدائد والمخاوف. قلت وملاك ذلك أمران الزهد في الحياة والثناء فما ضعف من ضعف وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء وثناء الناس عليه ونفرته من ذمهم له فإذا زهد في هذين الشيئين تأخرت عنه العوارض كلها وانغمس حينئذ في العساكر وملاك هذين الشيئين صحة اليقين وقوة المحبة. وملاك هذين بشيئين أيضاً بصدق اللجأ والطلب والتصدي للأسباب الموصلة إليهما. فإلى ههنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم والتوفيق بعدُ بيد من أزمة الأمور كلها بيده [٧٦: ٣٠ و٣١] **﴿وما تشآؤن إلآ أن يشآءَ الله إن الله كان عليماً حكيماً. يدخل من يشآء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾**.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة إيثارُ إيثار الله) يعني بإيثار إيثار الله أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك وأنه هو الذي تفرد بالإيثار لا أنت فكأنك سلمت

---

(١) هم الجائعون.

الإيثار إليه فإذا آثرت غيرك بشيء فإن الذي آثره هـو الحق لا أنت فهو المؤثـر حقيقة إذ هو المعطي حقيقة. فإذا ادعى العبد أنه مؤثر فقد ادعى ملك ما آثـر به غيره والملك في الحقيقة إنما هو لله الذي له كل شيء فإذا خرج العبد عن دعوى الملك فقد آثر إيثار الله وهو إعطاؤه على إيثار نفسه وشهد أن الله وحده هو المؤثر بملكه وأما من لا ملك له فأي إيثار لـه؟!.

## فصل
## منزلة الخلق

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: [٦٨: ٤] ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ قال ابن عباس ومجاهد لعلى دين عظيم. لا دين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام وقال الحسن رضي الله عنه هو آداب القرآن. وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله وينهى عنه من نهي الله والمعنى إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن. وفي الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: [٧: ١٩٩] ﴿**خذ العفو وأمُرْ بالعُرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ قال جعفر بن محمد أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما هذا قال: لا أدري حتى أسأل فسأل ثم رجع إليه فقال: إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك. وتعطي من حرمك. وتعفو عمن ظلمك.

قال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وقال مجاهد يعني: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس مثل قبول الأعذار والعفو والمساهلة وترك الاستقصاء في البحث والتفتيش عن حقائق بواطنهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما خذ ما عفا لك من أموالهم وهو الفاضل عن العيال وذلك معنى قوله تعالى: [٢: ٢١٩] ﴿**ويسألونك ماذا**

**ينفقون قل العفو﴾** ثم قال تعالى: **﴿وأمر بالعرف﴾** وهو كل معروف وأعرفه التوحيد ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد.

ثم قال تعالى: **﴿وأعرض عن الجاهلين﴾** يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه كقوله تعالى: [٢٥ : ٦٣] **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾** وعلى هذا فليست منسوخة بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه ولا ينتقم لنفسه. وهكذا كان خلقه ﷺ قال أنس رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً وقال ما مسستُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أف. ولا قال لشيء فعلته لما فعلته ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا متفق عليه.

وأخبر رسول الله ﷺ أن البر هو حسن الخلق.

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» فقابل البر بالإثم وأخبر أن البر حسن الخلق والإثم حوازُّ الصدور وهذا يدل على أن حسن الخلق هو الدين كله وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ولهذا قابله بالإثم. وفي حديث آخر: «البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في الصدر» وقد فسر حسن الخلق بأنه البر فدل على أن حسن الخلق طمأنينة النفس والقلب والإثم حواز الصدور وما حاك فيها واسترابت به وهذا غير حسن الخلق ،وسوئه في عرف كثير من الناس كما سيأتي في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً» وفي الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء» قال الترمذي حديث حسن صحيح وفيه أيضاً وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: «الفم والفرج».

وفيـه أيضاً عن عـائشة رضي الله عنهـا عن النبي ﷺ وصححـه «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهـم» وفي الصحيح عن عـائشة عنـه ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقـه درجة الصـائم القائم» رواه أبو داود.

وعن ابن عمـر رضي الله عنهما عنــه ﷺ: «أنـا زعيم ببيت في رَبَض الجنـة لمن تـرك المـراء وإن كـان محقـاً. وببيت في وسط الجنـة لمن تــرك الكـذب وإن كـان مـازحـاً. وببيت في أعلى الجنـة لمن حسن خلقـه». رواه الطبراني وإسناده صحيح فجعـل البيت العلوي جزاء لأعلى المقـامات الثـلاثة وهي حسن الخلق. والأوسط لأوسطها وهو ترك الكذب. والأدنى لأدناهـا وهو ترك المماراة وإن كـان معه حق. ولا ريب أن حسن الخلق مشتمـل على هذا كله.

وفي التـرمذي عن جـابـر رضي الله عنـه عنـه ﷺ: «إن من أحبكم إليَّ وأقـربكم مني مجلساً يـوم القيامـة أحـاسنكم أخـلاقـاً. وإن من أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيْهقون» قالوا: يا رسـول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال: «المتكبرون».

الثرثار هـو كثير الكـلام بغير فـائدة دينية. والمتشدق المتكلم بمـلء فيه تفـاصحاً وتعـاظماً وتـطاولاً وإظهاراً لفضلة على غيـره وأصله من الفَهْق وهـو الامتلاء.

وقد قيل: إن حسن الخلق بذل الندى وكف الأذى واحتمال الأذى.

وقيل: حسن الخلق بذل الجميل وكف القبيح.

وقيل التخلي من الرذائل والتحلي بالفضائل.

وحسن الخلق يقـوم على أربعة أركـان لا يتصور قيـام سـاقـه إلا عليهـا الصبر، والعفة، والشجـاعة، والعـدل. فالصبـر يحمله على الاحتمال وكـظم الغيظ وكف الأذى والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة.

والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبـائح من القـول والفعل وتحمله

على الحياء وهو رأس كل خير وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة. والشجاعة تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن النزع والبطش كما قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» وهو حقيقة الشجاعة وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه. والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقِحَة وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة. ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان الجهل والظلم والشهوة والغضب. ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق أخلاق مذمومة وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف وإفراطها في القوة فيتولد من إفراطها في الضعف المهانة والبخل والخسة واللؤم والذل والحرص والشح وسفساف الأمور والأخلاق ويتولد من إفراطها في القوة الظلم والغضب والحدة والفحش والطيش ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر أولاد غِيَّة كثيرون فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر وأذلَّهم إذا قُهر ظالم عنوف جبار فإذا قُهر صار أذل من امرأة جبان عن القوي جريء على الضعيف. فالأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً.

وكل خلق محمود مكتنَفٌ بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما وطرفاه خلقاه ذميمان. كالجود الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير والتواضع الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة. والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولا بد.

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخُلُق كسبياً أو هو أمر خارج عن الكسب قلت: يمكن أن يقع كسبياً بالتخلق والتكلف حتى يصير له سَجية وملكة وقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس رضي الله عنه: «إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والأناة» فقال أخلقين تخلقت بهما أم جبلني الله عليهما فقال: «بل جبلك الله عليهما» فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله. فدل على أن من الخلق ما هو طبيعة وجبلة وما هو مكتسب وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت» فذكر الكسب والقَدَر والله أعلم.

وهنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه أحدها مشهد القدر وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره فيراه كالتأذي بالحر والبرد والمرض والألم وهبوب الرياح وانقطاع الأمطار فإن الكل أوجبته مشيئة الله فما شاء الله كان ووجب وجوده. وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده وإذا شهد هذا استراح وعلم أنه كائن لا محالة فما للجزع منه وجه وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

## فصل

المشهد الثاني مشهد الصبر فيشهده ويشهد وجوبه وحسن عاقبته وجزاء أهله وما يترتب عليه من الغبطة والسرور[1] ويخلصه من ندامة المقابلة

---

(١) تقدم ما وعد الله تعالى أهل الصبر من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة في منزلة الصبر.

والانتقام فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة وعلم أنه إن لم يصبر اختياراً على هذا وهو محمود صبر اضطراراً على أكبر منه وهو مذموم.

## فصل

المشهد الثالث مشهد العفو والصفح والحلم فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزه لم يعدل عنه إلا لعشىً في بصيرته فإنه «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» كما صح ذلك عن النبي ﷺ وعلم بالتجربة والوجود وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ. هذا وفي الصفح والعفو والحلم من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

## فصل

المشهد الرابع مشهد الرضى وهو فوق مشهد العفو والصفح وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة سيما إن كان ما أصيب به سببه القيام لله فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته رضيت بما نالها في الله وهذا شأن كل محب صادق يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره ومتى تسخط به وتشكى منه كان ذلك دليلاً على كذبه في محبته والواقع شاهد بذلك ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه فلينزل عن درجة المحبة وليتأخر فليس من ذا الشأن.

## فصل

المشهد الخامس مشهد الإحسان وهو أرفع مما قبله وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان فيحسن إليه كلما أساء هو إليه. ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه وأنه قد أهدى إليه حسناته ومحاها من صحيفته وأثبتها في صحيفة من أساء إليه فينبغي لك أن تشكره وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم وأهل العزائم.

ويهونه عليك أيضاً علمك بأن الجزاء من جنس العمل فإن كان هذا

عملك في إساءة المخلوق إليك عفوت عنه وأحسنت إليه مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلِّك فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك فهذا لا بد منه وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأملها.

## فصل

المشهد السادس مشهد السلامة وبرد القلب وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه وذاق حلاوته وهو أن لا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره وشفاء نفسه بل يفرغ قلبه من ذلك ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له وألذ وأطيب وأعون على مصالحه فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه فيكون بذلك مغبوناً والرشيد لا يرضى بذلك ويرى أنه من تصرفات السفيه فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس وإعمال الفكر في إدراك الانتقام.

## فصل

المشهد السابع مشهد الأمن فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام أمن ما هو شر من ذلك وإذا انتقم واقعه الخوف ولا بد فإن ذلك يزرع العداوة والعاقل لا يأمن عدوه ولو كان حقيراً فكم من حقير أردى عدوه الكبير فإذا غفر ولم ينتقم ولم يقابل أمن من تولد العداوة أو زيادتها ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه ويكف من جزعه بعكس الانتقام والواقع شاهد بذلك أيضاً.

## فصل

المشهد الثامن مشهد الجهاد وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإقامة دين الله وإعلاء كلمته وصاحب هذا المقام قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن فإن أراد أن يُسلَّم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها

فلا حق له على من آذاه ولا شيء له قبله إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع فإنه قد وجب أجره على الله. وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة أعزها الله ولم يَرُدَّ على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله. ولما عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم تلك دماء وأموال ذهبت في الله وأجورها على الله ولا دية لشهيد فأصفق الصحابة على قول عمر ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذي في الله حرم الله عليه الانتقام كما قال لقمان لابنه [٣١:١٧] **﴿وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾**.

## فصل

المشهد التاسع مشهد النعمة وذلك من وجوه أحدها أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين ولا بد من أحدهما لاختار أن يكون مظلوماً. ومنها أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه فإنه ما أصاب المؤمن هَمٌّ ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياه فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه كلها وأسقامه ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء فهو مغبون سفيه. فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبه لك وبعثه إليك على يدي من نفعك بمضرته. ومنها أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها فإنه ما من محنة إلا فوقها ما هو أقوى منها وأمر فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة وإنها في الحقيقة نعمة والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين[1].

---

(١) في هامش أحد الأصول ما نصه: حبس السلطان رجلاً فكبت إليه بعض إخوانه الصالحين =

ومنها توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة وفي بعض الآثار أنه يتمنى أناس يوم القيامة لو أن جلودهم كانت تُقْرض بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء. هذا وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض فالعاقل يَعُدُّ هذا ذخراً ليوم الفقر والفاقة ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً.

## فصل

المشهد العاشر مشهد الأسوة وهو مشهد شريف لطيف جداً فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برُسل الله وأنبيائه وأوليائه وخاصته من خلقه فإنهم أشد الخلق امتحاناً بالناس وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور ويكفي في تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يُؤذَه مَنْ قبله وقد قال له وَرَقَة بن نوفل لَتُكَذَّبن، ولَتُخْرجَنَّ ولتُؤذَيَنَّ وقال له ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ. أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله وخواص عباده الأمثل فالأمثل ومن أحب معرفة ذلك فليقف على مِحَنِ العلماء وأذى الجهال لهم وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتاباً سماه محن العلماء.

المشهد الحادي عشر مشهد التوحيد وهو أجل المشاهد وأرفعها فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله والإخلاص له ومعاملته وإيثار مرضاته والتقرب إليه وقرة العين به والإنس به واطمأن إليه وسكن إليه واشتاق إلى لقائه واتخذه ولياً دون من سواه بحيث فَوَّض إليه أموره كلها ورضي به وبأقضيته وفني بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه عن كل ما سواه فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له ألبتة فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسِرُّه بتطلب الانتقام

---

= اشكر الله ثم ضرب فكتب إليه اشكر الله ثم قيد هو ومجوسي مبطون بقيد واحد فكان المجوسي يقوم بالليل لقضاء الحاجة مرات وكلما ذهب ذهب معه الرجل فيقف على رأسه حتى يقضي حاجته فكتب إليه صاحبه اشكر الله فقال على ماذا أشكر الله وأي بلاء فوق ما أنا فيه فكتب إليه لو جعل الزنار الذي في وسطه في وسطك كما جعل القيد في رجلك ما كنت تصنع فاشكر الله على سلامة الدين.

والمقابلة فهذا لا يكـون إلا من قلب ليس فيه مـا يغنيه عن ذلـك ويعوضـه منه فهو قلب جائـع غير شبعـان فإذا رأى أيَّ طعـام رآه هَفَتْ إليه نـوازعه وانبعثت إليه دواعيه. وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشـرفها فـإنه لا يلتفت إلى مـا دونها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

## فصل

ومدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق على حرفين ذكرهما عبدالقادر الكيلاني فقال: كن مع الحق بلا خَلْق ومـع الخلق بلا نفس. فتـأمل مـا أجل هـاتين الكلمتين مع اختصـارهما ومـا أجمعهمـا لقـواعـد السلوك ولكـل خلق جميل.

وفساد الخلق إنما ينشـأ من توسط الخلق بينـك وبين الله تعالى وتـوسط النفس بينك وبين خلقه فمتى عزلت الخلق حال كونك مـع الله تعالى وعـزلت النفس حال كونك مع الخلق فقد فزت بكـل ما أشـار إليه القـوم وشمروا إليـه وحاموا حوله والله المستعان.

## فصل
## منزلة التواضع

قال الله تعالى: [٢٥: ٦٣] ﴿**وعباد الرحمٰن الـذين يمشون على الأرض هَوْناً**﴾ أي سكينة ووقاراً متـواضعين غير أشريـن ولا مرحين. ولا متكبـرين. قـال الحسن علماء حلماء. وقال محمـد بن الحنفيـة أصحـاب وقـار وعفـة لا يسفهون وإن سُفه عليهم حلموا.

والهَون بالفتح في اللغة: الرفق واللين. والهُون بالضم الهوان فالمفتوح منـه صفة أهـل الإيمـان. والمضمـوم صفـة أهـل الكفـران وجـزاؤهم من الله النيران. وقال تعالى: [٥: ٥٤] ﴿**يا أيها الذين آمنـوا من يرتـد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾ لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة (على) تضميناً لمعاني هذه الأفعال فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل وإنمـا هو ذل

اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول فالمؤمن ذلول كما في الحديث «المؤمن كالجمل الذلول» والمنافق والفاسق ذليل وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب، والنمام والبخيل والجبار. وقوله: (أعزة على الكافرين) هو من عزة القوة والمنعة والغلبة قال عطاء رضي الله عنه للمؤمنين كالوالد لولده وعلى الكافرين كالسبع على فريسته كما قال في الآية الأخرى: [٤٨ : ٢٩] **﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾** وهذا عكس حال من قيل فيهم:

كِبْـراً علينـا وجُبْنـاً عن عـدوكـم ... لَبِئس الخُـلتـان الكبـر والجبـن

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يَفْخَر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد» وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» وفي الصحيحين مرفوعاً «ألا أخبركم بأهل النار كل عُتُلٍ جَوَّاظ مستكبر» وفي حديث احتجاج الجنة والنار «إن النار قالت: مالي لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطهم» وهو في الصحيح. وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما قالا قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل العزّة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني عذبته» وفي جامع الترمذي مرفوعاً عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين فيصيبه ما أصابهم». وكان النبي ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

وكانت الأمَة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله ولم يكن ينتقم لنفسه قط.

وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم ويجالس المساكين ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء.

وكـان ﷺ هين المؤنة لين الخلق كـريم الطبـع، جميل المعـاشرة طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غيـر ذِلَّة. جـواداً من غير سـرف رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين لين الجانب لهم وقـال ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحـرم على النار أو تحـرم عليـه النـار، تحـرم على كـل قـريب هَيِّن لَيِّن سهل» رواه الترمذي وقال: حديث حسن وقال: «لـو دُعيت إلى ذراع أو كُراع لأجبت. ولو أُهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت» رواه البخاري.

وكان ﷺ يعود المريض ويشهد الجنـازة ويركب الحمـار، ويجيب دعوة العبـد، وكان يـوم قريـظة على حمار مخـطوم بحبل من ليف عليـه إكـاف من ليف.

وقال الجنيد بن محمد التواضع هو خفض الجناح ولين الجانب.

وقال ابن عطاء هو قبول الحق ممن كان. والعِزُّ في التواضع فمن طلبـه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع والعز في التقوى والحـرية في القناعة.

ويذكر عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قـال: أعز الخلق خمسـة أنفس عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سُنِّي.

وقـال عروة بن الـزبير رضي الله عنهمـا: رأيت عمر بن الخـطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لـك هذا فقـال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها.

وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة فكان يحمل حُزْمة الحطب على ظهره ويقول طَرِّقوا للأمير.

ومر الحسن على صبيان معهم كِسرَ خبز فاستضافوه فنزل فأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وقال: اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه.

ويذكر أن أبا ذرّ رضي الله عنه عيـر بلالاً رضي الله عنـه بسواده ثم نـدم

فألقى بنفسه فحلف لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خَدِّي بقدمه فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال.

وقال رجاء بن حيوة قوَّمت ثياب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وهو يخطب باثني عشر درهماً وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة وقال بعضهم رأيت في الطواف رجلاً بين يديه شاكرية يمنعون الناس لأجله عن الطواف ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل شيئاً فتعجبت منه فقال لي: إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه.

وبلغ عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أن ابناً له اشترى خاتماً بألف درهم فكتب إليه عمر بلغني أنك اشتريت فِصّاً بألف درهم فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن واتخذ خاتماً بدرهمين واجعل فِصَّه حديداً صينياً واكتب عليه رحم الله امرأ عرف قدر نفسه. والله أعلم.

## فصل

أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين الكبر والحرص فكان الكبر ذنب إبليس اللعين فآل أمره إلى ما آل إليه. وذنب آدم على نبينا وعليه السلام كان من الحرص والشهوة فكان عاقبته التوبة والهداية وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه والاعتراف به والاستغفار فأهل الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس وأهل الشهوة المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لا يحتجون عليها بالقدر مع أبيهم آدم في الجنة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول التكبر شر من الشرك فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى والمشرك يعبد الله وغيره. قلت ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين كما قال تعالى في سورة الزمر آية ٧٢ وفي سورة غافر آية ٧٦: ﴿**ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين**﴾ وفي سورة النحل آية ٢٩: ﴿**فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين**﴾ وفي سورة تنزيل آية ٦٠ ﴿**أليس في جهنم مثوى المتكبرين**﴾ وأخبر أن أهل الكبر

والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم فقال تعالى: [٤٠: ٣٥] ﴿**كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾ وقال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمص الناس» وقال تعالى: [٤: ٤٨] ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾ تنبيهاً على أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك وكما أنّ (من تواضع لله رفعه) فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه وَصَغَّرَه وحقره ومن تكبر عن الانقياد للحق ولو جاءه على يد صغير أو من يبغضه أو يعاديه فإنما تكبره على الله فإن الله هو الحق وكلامه حق ودينه حق والحق صفته ومنه وله فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله فإنما رد على الله وتكبر عليه والله أعلم.

## فصل

(التواضع أن يتواضع العبد لصولة الحق) يعني أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له والذل والانقياد والدخول تحت رِقِّه بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه فبهذا يحصل للعبد خُلق التواضع ولهذا فسر النبي ﷺ الكبر بضده فقال: «الكبر بَطْر الحق وغَمْص الناس» فبطر الحق رَدُّه وجحده والدفع في صدره كدفع الصائل وغمص الناس احتقارهم وازدراؤهم ومتى احتقرهم وازدراهم منع حقوقهم وجحدها واستهان بها.

## فصل
## منزلة الفتوة

هذه المنزلة حقيقها هي منزلة الإحسان إلى الناس وكف الأذى عنهم واحتمال أذاهم فهي استعمال حسن الخلق معهم فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله والفرق بينها وبين المروءة أن المروءة أعم منها فالفتوة نوع من أنواع المروءة فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد أو متعد إلى غيره وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضاً به أو متعلق بغيره.

وهذه منزلة شريفة لم تعبر عنها الشريعة باسم الفتوة بل عبرت عنها

باسم مكارم الأخلاق كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال».

وأصل الفتوة من الفتى وهو الشاب الحديث السن قال الله تعالى عن أهل الكهف: [١٨ :١٣] ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ وقال عن قوم إبراهيم إنهم: [٢١ : ٦٠] ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ وقال تعالى عن يوسف: [١٢ : ٣٦] ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ [١٢ : ٦٢] ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾ فاسم الفتى لا يشعر بمدح ولا ذم كاسم الشاب والحدث ولذلك لم يجيء اسم الفتوة في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف وإنما استعمله مَنْ بعدهم في مكارم الأخلاق وأصلها عندهم أن يكون العبد أبداً في أمر غيره. وأقدم من علمته تكلم في الفتوة جعفر بن محمد، ثم الفضيل بن عياض والإمام أحمد وسهل بن عبدالله والجنيد ثم الطائفة.

وقال الفضيل بن عياض الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان. وقال الإمام أحمد رضي الله عنه في رواية ابنه عبدالله عنه وقد سئل عن الفتوة فقال: ترك ما تهوى لما تخشى ولا أعلم لأحد من الأئمة الأربعة فيها سواه.

وقال الحارث المحاسبي الفتوة أن تنصف ولا تنتصف.

وقال عمر بن عثمان المكي: الفتوة حسن الخلق.

وقال محمد بن علي الترمذي: الفتوة أن تكون خصماً لربك على نفسك.

وقيل: الفتوة أن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك.

وقال الدقاق: هذا الخُلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ فإن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي وهو يقول: أمتي أمتي.

وقيل: الفتوة كسر الصنم الذي بينك وبين الله تعالى وهو نفسك فإن الله حكى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه جعل الأصنام جذاذاً فكسر الأصنام له فالفتى من كسر صنماً واحداً في الله.

وقيل: الفتوة أن لا تكون خصماً لأحد: يعني في حفظ نفسك وأما في حق الله فالفتوة أن تكون خصماً لكل أحد ولو كان الحبيب المصافيا.

وقال الجنيد أيضاً: الفتوة كف الأذى وبذل الندى.

وقال سهل: هي اتباع السنة. وقيل: هي الوفاء والحفاظ.

وقيل: فضيلة تأتيها، ولا ترى نفسك فيها، وقيل: أن لا تحتجب ممن قصدك.

وقيل: أن لا تهرب إذا أقبل العافي. يعني طالب المعروف وقيل: إظهار النعمة وإسرار المحنة. وقيل: ليس من الفتوة أن تربح على صديقك.

ومن الفتوة التي لا تُلحق ما يذكر أن رجلاً نام من الحاج في المدينة ففقد همياناً فيه ألف دينار فقام فزعاً فوجد جعفر بن محمد فعلق به وقال: أخذت همياني فقال: أي شيء كان فيه قال: ألف دينار فأدخله داره ووزن له ألف دينار ثم إن الرجل وجد هميانه فجاء إلى جعفر معتذراً بالمال فأبى أن يقبله منه وقال: شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبداً فقال الرجل للناس: من هذا فقالوا: هذا جعفر بن محمد رضي الله عنه.

## فصل

قال: (نكتة الفتوة أن لا تشهد لك فضلاً ولا ترى لك حقاً) يقول قلب الفتوة وإنسان عينها أن تفنى بشهادة نقصك وعيبك عن فضلك وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم والناس في هذا مراتب فأشرفها أهل هذه المرتبة وأخسها عكسهم وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم وشهود حقوقهم على الناس عن شهود حقوق الناس عليهم وأوسطهم من شهد هذا وهذا فيشهد ما في العيب والكمال ويشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم.

وأما التغافل عن الزلة فهو أنه إذا رأى من أحد زَلَّة يوجب عليه الشرع أخذه بها أظهر أنه لم يرها لئلا يعرض صاحبها للوحشة ويريحه من تحمل العذر. وفتوة التغافل أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية.

قال أبو علي الدقاق: جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة فخجلت فقال حاتم: ارفعي صوتك فأوهمها أنه أصم فسُرَّت المرأة بذلك وقالت إنه لم يسمع الصوت فلقب بحاتم الأصم وهذا التغافل هو نصف الفتوة.

وأما نسيان الأذية فهو بأن تنسى أذية من نالك بأذى ليصفو قلبك له ولا تستوحش منه. قلت: وهنا نسيان آخر أيضاً وهو من الفتوة وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه حتى كأنه لم يصدر منك وهذا النسيان أكمل من الأول وفيه قيل:

ينسى صنائعه والله يظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

## فصل

قال: (الدرجة الثانية أن تُقَرِّبَ من يقصيك. وتكرم من يؤذيك وتعتذر إلى من يجني عليك سماحة لا كظماً ومودة لا مصابرة).

هذه الدرجة أعلى مما قبلها وأصعب فإن الأولى تتضمن ترك المقابلة والتغافل وهذه تتضمن الإحسان إلى من أساء إليك ومعاملته بضد ما عاملك به فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خِطَّتين فخطتُك الإحسان وخطته الإساءة وفي مثلها قال القائل:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم ... وتُذنبون فنأتيكم ونعتذر

ومن أراد فَهْم هذه الدرجة كما ينبغي فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط وكان يدعو لهم. وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له فنهرني وتنكر لي واسترجع ثم

قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم وقال: إني لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه ونحو هذا من الكلام فسروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه فرحمه الله ورضي عنه.

وأما (الاعتذار إلى من يجني عليك) فإنه غير مفهوم في بادي الرأي إذ لم يصدر منك جناية توجب اعتذاراً وغايتك أنك لا تؤاخذه فهل تعتذر إليه من ترك المؤاخذة. ومعنى هذا أنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه والجاني خليق بالعذر والذي يُشهدك هذا المشهد أنك تعلم أنه إنما سلط عليك بذنب كما قال تعالى: [٤٢ : ٣٠] **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم الله منك على يده كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار. والذي يهون عليك هذا كله مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة فعليك بها فإن فيها كنوز المعرفة والبر. وقوله: (سماحة لا كظماً ومودة لا مصابرة) يعني اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة وطيب نفس وانشراح صدر لا عن كظم وضيق ومصابرة فإن ذلك دليل على أن هذا ليس في خلقك وإنما هو تكلف يوشك أن يزول ويظهر حكم الخُلق صريحاً فتفتضح وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب. وهذا الذي قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور على جسر المصابرة والكظم فإذا تمكن منه أفضى به إلى هذه المنزلة بعون الله والله أعلم.

## فصل
## منزلة المروءة

المروءة فَعولة من لفظ المرء كالفتوة من الفتى والإنسانية من الإنسان ولهذا كان حقيقتها اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم والشيطان الرجيم فإن في النفس ثلاثة دواع متجاذبة داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان من الكبر والحسد والعلو والبغي والشر والأذى والفساد والغش وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان وهو داعي الشهوة. وداع يدعوها إلى أخلاق الملك من الإحسان والنصح والبر والعلم والطاعة.

فحقيقة المروءة بغض ذينك الداعيين وإجابة الداعي الثالث وقلة

المروءة وعدمها هو الاسترسال مع ذينك الداعيين والتوجه لدعوتهما أين كانت فالإنسانية والمروءة والفتوة كلها في عصيان الداعيين وإجابة الداعي الثالث. كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة وخلق البهائم شهوة بلا عقول وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة فمن غلب عقله شهوته التحق بالملائكة ومن غلبت شهوته عقله التحق بالبهائم ولهذا قيل في حد المروءة بأنها غلبة العقل للشهوة. وقال الفقهاء في حدها هي استعمال ما يجمل العبد ويزينه وترك ما يدنسه ويشينه.

وحقيقة المروءة تجنب الدنايا والرذائل من الأقوال والأخلاق والأعمال. فمروءة اللسان حلاوته وطيبه ولينه واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر. ومروءة الخُلُق سعته وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال الإصابة ببذله بمواقعه المحمودة عقلاً وعرفاً وشرعاً. ومروءة الجاه بذله للمحتاج إليه.

وأما مروءة الترك: فترك الخصام والمعاتبة والمطالبة والمماراة والإغضاء عن عيب ما يأخذه من حقك وترك الاستقصاء في طلبه والتغافل عن عثرات الناس وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عثرة والتوقير للكبير. وحفظ حرمة النظير ورعاية أدب الصغير وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى مروءة المرء مع نفسه وهي أن يحملها قَسْراً على ما يُجَمِّل ويزين وترك ما يدنس ويشين ليصير لها ملكة في العلانية فمن أراد شيئاً في سره وخلوته ملكه في جهره وعلانيته فلا يكشف عورته في الخلوة ولا يتجشأ بصوت مزعج ما وجَد إلى خلافه سبيلاً ولا يُخرج الريح بصوت وهو يقدر على خلافه ولا يَجْشَعْ وَيَنْهَم عند أكله وحده. وبالجملة فلا يفعل خالياً ما يستحي من فعله في الملأ إلا ما لا يحظره الشرع والعقَل ولا يكون إلا في الخلوة كالجماع والتخلي ونحو ذلك.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء والخلق الجميل ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه وليتخذ الناس مرآة لنفسه فكل ما كرهه ونفر عنه من قول أو فعل أو خلق فليجتنبه وما

أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه من كامل وناقص وسيء الخلق وحسنه وعديم المروءة وغزيرها.

وكثير من الناس يتعلم المروءة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها كما روي عن بعض الأكابر أنه كان له مملوك سيء الخُلق فظّ غليظ لا يناسبه فسئل عن ذلك فقال أدرس عليه مكارم الأخلاق وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضد أخلاقه ويكون بتمرين النفس على مصاحبته ومعاشرته والصبر عليه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه بالاستحياء من نظره إليك واطلاعه عليك في كل لحظة ونَفَس وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان فإنه قد اشتراها منك وأنت ساع في تسليم المبيع وتقاضي الثمن وليس من المروءة تسليمه على ما فيه من العيوب وتقاضي الثمن كاملاً أو رؤية مِنَّته في هذا الإصلاح وأنه هو المتولي له لا أنت فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك وشهود الحقيقة عن رؤية فعلك وصلاحك وكل ما تقدم في منزلة الخلق والفتوة فإنه بعينه في هذه المسألة فلذلك اقتصرنا منها على هذا القدر.

## فصل
## منزلة الأدب

قال الله تعالى: [٦٦: ٦] ﴿**يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**﴾ قال ابن عباس وغيره أدبوهم وعلموهم. وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع فالأدب اجتماع خصال الخير في العبد ومنه المأدبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

وعلم الأدب هو علم إصلاح اللسان والخطاب وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه وصيانته عن الخطأ والخلل وهو شعبة من الأدب العام.

## فصل

والأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله ﷺ وشرعه، وأدب مع خلقه، فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك عليه.

قال أبو علي الدقاق: العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة ويصل بأدبه في طاعته إلى الله. وقال: رأيت من أراد أن يمد يده في الصلاة إلى أنفه فقبض على يده. وقال ابن عطاء الأدب الوقوف مع المستحسنات فقيل له: وما معناه فقال: أن تعامله سبحانه بالأدب سراً وعلناً ثم أنشد:

إذا نطقت جاءت بكل ملاحة وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال أبو علي من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل.

وقال يحيى بن معاذ: إذا ترك العارف أدبه مع معروفه فقد هلك مع الهالكين. وقال أبو علي: ترك الأدب يوجب الطرد فمن أساء الأدب على البساط رُدَّ إلى الباب ومن أساء الأدب على الباب رُدّ إلى سياسة الدواب.

وقال يحيى بن معاذ: من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله. وقال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

وسئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب فقال: النفقة في الدين والزهد في الدنيا والمعرفة بما لله عليك.

وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون.

وقال: الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف.

وقال أبو نصر السراج الناس في الأدب على ثلاث طبقات أما أهل الدنيا فأكبر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب. وأما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح

وحفظ الحدود وترك الشهوات وأما أهل الخصوصية فأكبر آدابهم في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحظور ومقامات القرب.

وقال سهل: من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص.

وقال عبدالله بن المبارك: قد أكثر الناس القول في الأدب ونحن نقول إنه معرفة النفس ورعوناتها وتجنب تلك الرعونات.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله وخطابهم وسؤالهم كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به قال المسيح عليه السلام: [٥: ١١٦] ﴿إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه﴾ ولم يقل لم أقله وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره فقال: ﴿تعلم ما في نفسي﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه فقال: ﴿ولا أعلم ما في نفسك﴾ ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به وهو محض التوحيد فقال: ﴿ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال: ﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم فقال: ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ ثم قال: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك فإذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم لهم له: لم تعذبهم لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحساناً عبيده لولا فرط عُتُوِّهم وإباؤهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب. وقد تقدم قوله: ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ أي هم عبادك وأنت أعلم بسرهم

وعلانيتهم فإذا عـذبتهم عذبتهم على علم منـك بما تعـذبهم عليه فهم عبـادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال. ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة كما تظنه القدرية وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب. ثم قال: [٥ : ١١٨] ﴿**وإن تغفر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم**﴾ ولم يقل ﴿**الغفور الرحيم**﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى فـإنه قـالـه في وقت غضب الـرب عليهم والأمـر بهم إلى النـار فليس هـو مقـام استعـطاف ولا شفاعـة بـل مقـام بـراءة منهم فلو قـال: ﴿**فـإنـك أنت الغفـور الـرحيم**﴾ لأشعر بـاستعطافـه رَبَّه على أعـدائه الـذين قد اشتـد غضبـه عليهم فالمقام مقـام موافقـة للرب في غضبه على مَنْ غضب الـرب عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمـة المتضمنتين لكمـال القدرة وكمـال العلم. والمعنى إن غفرت لهم فمغفـرتـك تكون عن كمال القدرة والعلم ليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجـزه عن الانتقام منـه ولجهله بمقدار إساءته إليه والكمال هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم وكان ذكر هـاتين الصفتين في هذا المقـام عين الأدب في الخطاب وفي بعض الآثار: حملة العرش أربعة: اثنان يقـولان سبحانـك اللهم ربنا وبحمـدك لك الحمد على حلمك بعد علمـك، واثنان يقولان سبحـانك اللهم ربنـا وبحمدك لـك الحمد على عفـوك بعد قـدرتك. ولهـذا يقترن كـل من هـاتين الصفتين بالأخرى كقوله: ﴿**والله عليم حليم**﴾ وقوله: ﴿**وكان الله عفواً قديراً**﴾.

وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ: [٢٦ : ٧٨ - ٨٠] ﴿**الذي خلقني فهـو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ ولم يقل وإذا أمرضني حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قـول الخضر عليـه السلام في السفينـة [١٨ : ٧٩] ﴿**فأردت أن أعيبها**﴾ ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها وقال في الغـلامين: [١٨ : ٨٢] ﴿**فأراد ربك أن يبلغا أشدهما**﴾ وكذلك قول مؤمني الجن [٧٢ : ١٠] ﴿**وأنا لا نـدري أشَـرٌ أُريد بمن في الأرض**﴾ ولم يقـولوا أراده ربهم ثم قـالـوا: ﴿**أم أراد بهم ربهم**

رشداً﴾ وألطف من هذا قول موسى عليه السلام: [٢٨ : ٢٤] ﴿رَبِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير﴾ ولم يقل أطعمني وقول آدم عليه السلام: [٧ : ٢٣] ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ ولم يقل ربِّ قدرت عليَّ وقضيت عليَّ وقول أيوب عليه السلام: [٢١ : ٨٣] ﴿مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ ولم يقل فعافني واشفني وقول يوسف لأبيه وإخوته: [١٢ : ١٠٠] ﴿هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن﴾ ولم يقل أخرجني من الجب حفظاً للأدب مع إخوته وتَفَتِّياً عليهم أن لا يخجلهم بما جرى في الجب وقال: ﴿وجاء بكم من البدو﴾ ولم يقل رفع عنكم جهد الجوع والحاجة أدباً معهم وأضاف ما جرى إلى السبب ولم يصفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه فقال: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل أن يستر عورته وإن كان خالياً لا يراه أحد أدباً مع الله على حسب القرب منه وتعظيمه وإجلاله وشدة الحياء منه ومعرفة وقاره.

وقال بعضهم: ألزم الأدب ظاهراً وباطناً فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهراً وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

وقال عبدالله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة. وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل ولهذا كان الأدب استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد فألهمه ومَكَّنه وعرفه وأرشده وأرسل إليه رسله وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهَّله بها لكماله إلى الفعل قال الله تعالى: [٩١: ٧ ـ ١٠] ﴿ونفس وما سوّاها، فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها﴾ فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام ثم أخبر عن قبولها

للفجور والتقوى وأن ذلك نالها منه امتحاناً واختباراً ثم خص بالفلاح من زكاها فَنَمَّاها وعَلَّاها ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه وهي التقوى ثم حكم بالشقاء على من دساها فأخفاها وحقرها وصغرها وقمعها بالفجور والله سبحانه وتعالى أعلم.

## فصل

وجرت عادة القوم أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه ﷺ حين أراه ما أراه [٥٣:١٧] ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾ وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية وكذلك غيره وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانباً ولا تجاوز ما رآه وهذا كمال الأدب والإخلال به أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله أو يتطلع أمام المنظور فالالتفات زيغ والتطلع إلى ما أمام المنظور طغيان ومجاوزة فكمال إقبال الناظر على المنظور أن لا يصرف بصره عنه يَمنة ولا يَسرة ولا يتجاوزه. هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ؛ تواطأ هناك بصره وبصيرته وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره فالبصيرة مواطئة له وما شاهدته بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: [٥٣: ١١ و١٢] ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى**﴾ أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره. فلمواطأة قلبه لقالبه وظاهره لباطنه وبصره لبصيرته لم يكذب الفؤاد البصر ولم يتجاوز البصر حَدَّه فيطغى ولم يمل عن المرئي فيزيغ بل اعتدل البصر نحو المرئي ما جاوزه ولا مال عنه كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عما سواه فإنه أقبل على الله بكليته وللقلب زيغ وطغيان كما للبصر زيغ وطغيان وكلاهما منتف عن قلبه وبصره فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فلم يـزل ﷺ في خفارة كمـال أدبـه مـع الله سبحـانـه وتكميـل مـراتب عبوديته لـه حتى خرق حجب السمـاوات وجاوز السبـع الطبـاق وجاور سـدرة المنتهى ووصـل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخـرين فـانصبت إليـه هنـاك أقسام القـرب انصبابـاً وانقشعت عنه سحـائب الحجب ظاهـراً وبـاطنـاً حجاباً حجاباً وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً يغبطه به الأولون والآخرون واستقام هنـاك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله ما زاغ البصر عنه ومـا طغى فأقـامه في هـذا العالم على أقـوم صراط من الحق والهـدى وأقسم بكلامـه على ذلك في الـذكـر الحكيم فقـال تعالى: ﴿**يس. والقـرآن الحكيم، إنـك لمن المـرسلين، على صـراط مستقيم**﴾ فإذا كان يومُ المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامـة لأتباعـه وأهل سنته حتى يجوزونه إلى جنات النعيم وذلـك فضل الله يؤتيـه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

## فصل

والأدب هو الدين كله فإن ستر العورة من الأدب والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتـطهـر من الخبث من الأدب حتى يقف بين يـدي الله طـاهــراً ولهذا كانـوا يستحبون أن يتجمـل الرجـل في صلاتـه للوقوف بين يـدي ربه. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمه الله تعـالى يقول: أمـر الله بقدر زائـد على ستر العورة في الصـلاة وهو أخـذ الزينـة فقال تعـالى: [٧: ٣١] ﴿**خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾ فعلق الأمر بـأخذ الـزينة لا بستـر العورة إيـذاناً بـأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة. وكـان لبعض السلف حلة بمبلغ عـظيم من المال وكـان يلبسها وقت الصـلاة ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثـر نعمته على عبده لا سيما إذا وقف بين يديه فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهراً وباطناً.

ومن الأدب نهي النبي ﷺ المصلي أن يرفع بصـره إلى السماء فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول هـذا من كمال أدب الصـلاة أن

يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً خافضاً طرفه إلى الأرض ولا يرفع بصره إلى فوق. قال: والجهمية لما لم يفقهوا هذا الأدب ولا عرفوه ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سماواته على عرشه كما أخبر به عن نفسه واتفقت عليه رسله وجميع أهل السنة قال: وهذا من جهلهم بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول ﷺ على نقيض قولهم إذ من الأدب مع الملوك أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض ولا يرفع بصره إليهم فما الظن بملك الملوك سبحانه. وسمعته يقول في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود إن القرآن هو أشرف الكلام وهو كلام الله وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد فمن الأدب مع كلام الله أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به.

ومن الأدب مع الله أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم. والصحيح أن هذا الأدب يعم الفضاء والبنيان كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصلاة وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد: أنه من السنة. وكان الناس يؤمرون به ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء فعظيم العظماء أحق به. ومنها السكون في الصلاة وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: [٧٠: ٢٣] ﴿**الذين هم على صلاتهم دائمون**﴾ قلت: هما أمران الدوام عليها والمداومة عليها فهذا الدوام والمداومة في قوله تعالى: [٧٠: ٣٤] ﴿**والذين هم على صلاتهم يحافظون**﴾ وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة. وأدبه في استماع القراءة أن يلقي السمع وهو شهيد. وأدبه في الركوع أن يستوي. ويعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ويتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء والمقصود أن الأدب مع الله تبارك وتعالى هو القيام بدينه والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً. ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته،

ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً والله المستعان.

## فصل

وأما الأدب مع الرسول ﷺ فالقرآن مملوء به فرأس الأدب معه كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولاً أو يحمله شبهة أو شكاً أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحد المرسِل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل. فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما توحيد المرسِل وتوحيد متابعة الرسول فلا يحاكم إلى غيره. ولا يرضى بحكم غيره. ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره وإلا فإن طلب السلامة أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه تأويلاً وحملاً فقال نؤوله ونحمله فلأن يلقى العبدُ ربه بكل ذنب على الإطلاق ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بهذه الحال. ولقد خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء فقلت له: سألتك بالله لو قُدِّر أن الرسول ﷺ حي بين أظهرنا وقد واجهنا بكلامه وبخطابه أكان فرضاً علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم. فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه. فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا وبأي شيء نسخ فوضع إصبعه على فيه وبقي باهتاً متحيراً وما نطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه لا مخالفة أمره والشرك به ورفع الأصوات وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم وعزل كلامه عن اليقين وأن يستفاد منه معرفة الله أو يتلقى منه أحكامه بل المعول في باب معرفة الله على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة وفي الأحكام على تقليد الرجال وآرائها والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركاً لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه ومن

طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأفته [ ٢٣ : ٦٣ - ٧٤] **﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون. حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون، قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون، مستكبرين به سامراً تهجرون، أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون، أم يقولون به جِنّة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون، أم تسألهم خَرْجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين، وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم. وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾**.

والناصح لنفسه العامل على نجاتها يتدبر هذه الآيات حق تدبرها ويتأملها حق تأملها وينزلها على الواقع فيرى العجب ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا. فالحديث لك. واسمعي يا جارة. والله المستعان.

ومن الأدب مع الرسول ﷺ أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما قال تعالى: [٤٧ : ١] **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾** وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ.

ومن الأدب معه أن لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نَصُّه بقياس بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ وهو عين الجرأة.

## فصل

وأما الأدب مع الخلق فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم فلكل مرتبة أدب والمراتب فيها أدب خاص فمع الوالدين أدب خاص وللأب منهما أدب هو أخص به ومع العالم أدب آخر ومع السلطان أدب يليق به وله مع الأقران أدب يليق بهم ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أُنسه ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته. ولكل حال أدب فللأكل آداب وللشراب آداب وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب وللبول آداب وللكلام آداب وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره فما استُجْلِب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب. فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نَجَّى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة[1]. والإخلال به مع الأم تأويلاً وإقبالاً على الصلاة كيف امتُحِن صاحبه بهدم صومعته[2] وضرب الناس له ورميه بالفاحشة. وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان.

وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي ﷺ في الصلاة أن يتقدم بين يديه فقال: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ. كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده فكان ذلك التأخر إلى خلفه وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك جمزاً وسعياً إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي والله أعلم.

## فصل

قال: (الأدب حفظ الحد بين الغلو والجفاء بمعرفة ضرر العدوان) هذا

---

(١) حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فأصبحوا وقد أطبقت عليهم صخرة فقالوا: لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تسألوا الله بصالح أعمالكم، الحديث رواه البخاري وغيره.

(٢) حديث جريج الراهب من بني إسرائيل. رواه البخاري وغيره.

من أحسن الحدود فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء هو قلّة الأدب. والأدب الوقوف في الوسط بين الطرفين فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها ولا يتجاوز بها ما جعلت حدوداً له فكلاهما عدوان والله لا يحب المعتدين. والعدوان هو سوء الأدب.

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه. فإضاعة الأدب بالجفاء كمن لم يكمل أعضاء الوضوء ولم يوف الصلاة آدابها التي سَنَّها رسول الله ﷺ وفعلها وهي قريب من مائة أدب ما بين واجب ومستحب. وإضاعته بالغلو كالوسوسة في عقد النية ورفع الصوت بها والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سراً وتطويل ما السنةُ تخفيفه وحذفه كالتشهد الأول والسلام الذي حَذْفُه سنة وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله ﷺ لا على ما يظنه سُرّاق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه فإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه وقد صانه الله من ذلك وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات ويأمرهم بالتخفيف وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضأ ويدرك رسول الله ﷺ في الركعة الأولى فهذا هو التخفيف الذي أمر به لا نقر الصلاة وسرقها فإن ذلك اختصار بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ويسمى به مصلياً وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه فليته شبع على القول الآخر وهو كجائع قدم إليه طعام لذيذ جداً فأكل منه لقمة أو لقمتين فماذا يغنيان عنه ولكن لو أحسّ بجوعه لما قام من الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك لكن القلب شبعان من شيء آخر ومثال هذا التوسط في حق الأنبياء عليهم السلام أن لا يغلو فيهم كما غلت النصارى في المسيح ولا يجفو عنهم كما جفت اليهود فالنصارى عبدوهم واليهود كذبُوهم وقتلوهم والأمة الوسط آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم واتبعوا ما جاؤوا به. ومثال ذلك في حقوق الخلق أن لا يفرط في القيام بحقوقهم ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله أو عن تكميلها أو عن مصلحة دينه وقلبه وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية فإن الطرفين من العدوان الضار وعلى هذا الحد فحقيقة الأدب هي العدل والله أعلم.

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته وتشبهه في صفاته ومواهب الرب

تبارك وتعالى تنزل على القلب والروح فالنفس تسترق السمع فإذا نـزلت على القلب تلك المواهب وثَبَتْ لتأخذ قسطهـا منها وتُصَيِّـره من عدتهـا وحواصلهـا فالمسترسل معها الجاهل بها يدعهـا تستوفي ذلـك فبينا هـو في موهبـة القلب والـروح وعدة وقـوة له إذ صـار ذلك كله من حـاصـل النفس وآلتهـا وعـددهـا فصالت به وطغت لأنها رأت غناها به. والإنسان يطغى أن رآه استغنى بـالمال فكيف بما هو أعظم خطراً وأجل قدراً من المال بما لا نسبة بينهما من علم أو حال أو معرفة أو كشف. فإذا صار ذلك من حـاصلها انحـرف العبد بـه ولا بد إلى طـرف مذمـوم من جرأة أو شـطح أو إدلال ونحو ذلـك فوالله كم ههنـا من قتيل وسليب وجريح يقول من أين أتيت ومن أين دُهيت ومن أين أصبت وأقـل ما يعاقب به من الحرمان بذلك أن يغلق عنه باب المزيد ولهذا كـان العارفـون وأربـاب البصائـر إذا نالـوا شيئاً من ذلـك انحرفـوا إلى طرف الـذل والانكسار ومطالعة عيوب النفس واستدعوا حارس الخوف وحافـظوا على الرباط بملازمة الثغـر بين القلب وبين النفس ونظروا إلى أقـرب الخلق من الله وأكرمهم عليـه وأدناهم منه وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً وقد دخل مكـة يوم الفتـح وَذَقنه تَمَسُّ قُربوس سرجه انخفاضاً وانكساراً وتواضعاً لربه تعالى في مثل تلك الحال التي عادةُ النفوس البشرية فيها أن يملكها سرورها وفرحها بـالنصر والـظفر والتـأييد ويرفعها إلى عنان السماء. فالرجـل من صان فتحـه ونصيبه من الله وواراه عن استراق نفسه وبخل عليها به والعاجز من جاد لها به فيـا له من جـود ما أقبحـه وسماحة ما أسفه صاحبها والله المستعان.

## فصل
## منزلة اليقين

وهو من الإيمان بمنـزلة الـروح من الجسد وبـه تفاضـل العارفـون وفيه تنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون وعمـلُ القوم إنمـا كان عليـه وإشاراتهم كلها إليه وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة في الدين قال الله تعالى وبقوله يهتدي المهتدون [٣٢: ٢٤] **﴿وجعلنا منهم أئمـة يهدون بـأمرنـا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾** وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات

والبـراهين فقـال وهـو أصـدق القـائلين: [٥١ : ٢٠] **﴿وفي الأرض آيـات للموقنين﴾** وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين فقال: [٢ : ٤ و٥] **﴿والـذين يؤمنون بمـا أنزل إليـك وما أنـزل من قبـلـك وبـالآخـرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾** وأخبـر عن أهل النار بأنهم لم يكـونوا من أهـل اليقين فقال تعـالى: [٤٥ : ٣٢] **﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ماندري ما الساعة إن نظن إلا ظنـاً وما نحن بمستيقنين﴾** فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح وهو حقيقة الصديقية وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره. وروى خالـد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خيثمة عن عبـدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا تُرضينَّ أحداً بسخط الله ولا تَحْمَدَنَّ أحـداً على فضل الله ولا تَـذُمَنَّ أحـداً على ما لم يؤتـك الله فإن رزق الله لا يسـوقه إليـك حرص حـريص ولا يرده عنك كراهية كاره وإن الله بِعَدْلِه وقسطه جعـل الروح والفـرح في الرضى واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

واليقين قرين التوكل ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين والصواب أن التوكـل ثمـرتـه ونتيجتـه ولهـذا حسن اقتـران الهـدى بـه قـال الله تعـالى: [٢٨ : ٧٩] **﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾** فالحق هو اليقين وقالت رسل الله: [١٤ : ١٢] **﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا﴾** ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً وانتفى عنـه كل ريب وشـك وسخط وَهَمٍّ وغمٍّ فامتلأ محبة لله وخوفاً منه ورضى به وشكراً له وتوكلاً عليه وإنابة إليه فهو مـادة جميع المقامات والحامل لها. واختلف فيه هل هـو كسبي أو موهبي فقيـل هو العلم المستودع في القلوب. يشير إلى أنه غير كسبي. وقـال سهل: اليقين من زيادة الإيمان ولا ريب أن الإيمان كسبي. والتحقيق أنه كسبي بـاعتبار أسبـابه موهبي باعتبار نفسه وذاته.

وقال ذو النون: اليقين يدعو إلى قصر الأمل وقصر الأمل يدعو إلى الـزهد والزهد يورث الحكمة وهي تورث النظر في العـواقب. قال: وثلاثة من أعـلام اليقين قلة مخالطة الناس في العشرة وتـرك المدح لهم في العـطية والتنـزه عن

ذمهم عند المنع. وثلاثة من أعلامه أيضاً النظر إلى الله في كل شيء. والرجوع إليه في كل أمر. والاستعانة به في كل حال.

وقيل اليقين هو المكاشفة وهو على ثلاثة أوجه مكاشفة في الأخبار ومكاشفة بإظهار القدرة. ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان ومراد القوم بالمكاشفة ظهور الشيء للقلب بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئي إلى العين فلا يبقى معه شك ولا ريب أصلاً وهذا نهاية الإيمان وهو مقام الإحسان.

وقد يريدون بها أمراً آخر وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة عند أوائل تجرد الروح عن البدن.

ومن أشار منهم إلى غير هذين فقد غلط ولُبِّس عليه.

وقال السري: اليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضياً.

وقال أبو بكر الوراق اليقين ملاك القلب وبه كمال الإيمان وباليقين عرف الله وبالعقل عقل عن الله. وقال أيضاً اليقين على ثلاثة أوجه: يقين خبر، ويقين دلالة، ويقين مشاهدة. يريد بيقين الخبر سكون القلب إلى خبر المخبر وتوثقه به، وبيقين الدلالة ما هو فوقه وهو أن يقيم له مع وثوقه بصدقه الأدلة الدالة على ما أخبر به وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن فإنه سبحانه مع كونه أصدق الصادقين. يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره فيحصل لهم اليقين من الوجهين من جهة الخبر ومن جهة الدليل فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة وهي يقين المكاشفة بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين وهذا أعلى أنواع المكاشفة وهي التي أشار إليها عامر بن عبدقيس في قوله: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ ولا من قول علي كما يظنه من لا علم له بالمنقولات.

وقال بعضهم: رأيت الجنة والنار حقيقة قيل له وكيف قال: رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ ورؤيتي لهما بعينه آثر عندي من رؤيتي لهما بعيني فإن بصري

قد يطغى ويزيغ بخلاف بصره ﷺ واليقين يحمله على الأهوال وركوب الأخطار وهو يأمر بالتقدم دائماً فإن لم يقارنه العلم حمل على المعاطب.

قال: (وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى علم اليقين وهو قبول ما ظهر من الحق. وقبول ما غاب للحق. والوقوف على ما قام بالحق) ذكر الشيخ في هذه الدرجة ثلاثة أشياء هي متعلق اليقين وأركانه الأولى قبول ما ظهر من الحق تعالى والذي ظهر منه سبحانه أوامره ونواهيه وشرعه ودينه الذي ظهر لنا منه على ألسنة رسله فنتلقاه بالقبول والانقياد والإذعان والتسليم للربوبية والدخول تحت رق العبودية الثاني قبول ما غاب للحق وهو الإيمان بالغيب الذي أخبر به الحق سبحانه على لسان رسله من أمور المعاد وتفصيله والجنة والنار وما قبل ذلك من الصراط والميزان والحساب. وما قبل ذلك من تشقق السماء وانفطارها وانتثار الكواكب ونسف الجبال وطَيِّ العالم وما قبل ذلك من أمور البرزخ ونعيمه وعذابه. فقبول هذا كله إيماناً وتصديقاً وإيقاناً هو اليقين بحيث لا يخالج القلب فيه شبهة ولا شك ولا تناسٍ ولا غفلة عنه فإنه إن لم يهلك يقينه أفسده وأضعفه. الثالث الوقوف على ما قام بالحق سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله وهو علم التوحيد الذي أساسه إثبات الأسماء والصفات. وضده التعطيل والنفي والتجهم فهذا التوحيد يقابله التعطيل. وأما التوحيد القصدي الإرادي الذي هو إخلاص العمل لله وعبادته وحده فيقابله الشرك والتعطيل شر من الشرك فإن المعطل جاحد للذات أو لكمالها وهو جحد لحقيقة الآلهية فإن ذاتاً لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا ترضى ولا تغضب ولا تفعل شيئاً وليست داخل العالم ولا خارجه ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة ولا مجانبة له ولا مباينة له ولا مجاورة ولا مجاوزة ولا فوق العرش ولا تحت العرش ولا خلفه ولا أمامه ولا عن يمينه ولا عن يساره: سواء هي والعدم. والمشرك مقر بالله وصفاته لكن عبد معه غيره فهو خير من المعطل للذات والصفات[1].

---

(١) ليس في واحد منهما ولا ذرة من خير فكان الأولى أن يقول فهو أقل فساداً وكفراً وشراً وكلام الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى وغفر لنا له يعني مقراً بالصفات بلسانه وإن كان في الواقع أعمى أصم أبكم عنها غارقاً في بحر الجهالة بها لأنه لو علمها على الحقيقة وعرف الرب =

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته ونعوت كماله وتوحيده وهـذه الثلاثـة أشرف علوم الخـلائق علم الأمر والنهي وعلم الأسمـاء والصفات والتوحيد وعلم المعاد واليوم الآخر والله أعلم.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية عين اليقين وهو المُغْنِي بالاستدلال عن الاستدلال وعن الخبر بالعيان. وخرق الشهود حجاب العلم).

الفـرق بين علم اليقين وعين اليقين كالفـرق بين الخبر الصـادق والعيان وحق اليقين فوق هذا وقـد مثلت المراتب الثـلاثة بمن أخبـرك أن عنده عسـلاً وأنت لا تشك في صدقه ثم أراك إياه فازددت يقيناً ثم ذقت منه؛ فالأول علم اليقين. والثاني عين اليقين. والثالث حق اليقين فعلمنا الآن بالجنة والنار علم يقين فـإذا أزلفت الجنة في المـوقف للمتقين وشـاهـدهـا الخلائـق، وَبُـرِّزت الجحيم للغاوين، وعاينها الخلائق فذلك عين اليقين. فـإذا أدخل أهـل الجنة الجنة وأهل النار النار فذلك حينئذ حق اليقين. قوله: (هو المغني بالاستدلال عن الاستدلال) يريد بالاستدلال الإدراك والشهود يعني صاحبه قـد استغنى به عن طلب الدليل فإنه إنما يطلب الدليل ليحصل له العلم بـالمدلـول فإذا كـان المدلول مشاهداً لـه وقد أدركـه بكشفه فـأي حاجـة به إلى الاستـدلال. وهذا معنى الاستغناء عن الخبر بالعيان وأمـا قولـه: (وخرق الشهـود حجاب العلم) فيـريد بـه أن المعارف التي تحصـل لصاحب هـذه الـدرجـة هي من الشهـود الخارق لحجاب العلم فإن العلم حجاب عن الشهود ففي هذه الدرجة يـرتفع الحجاب ويفضي إلى المعلوم بحيث يكافح بصيرته وقلبه مكافحة.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة حق اليقين).

اعلم أن هـذه الدرجـة لا تنال في هـذا العـالم إلا للرسـل صلوات الله

---

= بأسمائـه وصفاتـه ما اتخـذ من دونه وليـاً ولا نصيراً ولا واسـطة ولا شفيعاً ولا عبـد من دونه إلهاً.

وسلامه عليهم أجمعين فإن نبينا ﷺ رأى بعينه الجنة والنار وموسى عليه السلام سمع كلام الله منه إليه بلا واسطة وكلمه تكليماً وتجلى للجبل وموسى ينظر فجعله دَكّاً هشيماً. نعم يحصل لنا حق اليقين من مرتبة. وهي ذوق ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان المتعلقة بالقلوب وأعمالها فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقه حق يقين.

وأما في أمور الآخرة والمعاد ورؤية الله جهرة عياناً وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة فحظ المؤمن منه في هذه الدار الإيمان وعلم اليقين وحق اليقين يتأخر إلى وقت اللقاء.

## فصل
## منزلة الأنس بالله

وهو روح القرب ولهذا صَدَّر منزلته بقوله تعالى: [٢: ١٨٦] ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان**﴾ فاستحضار القلب هذا البر والإحسان واللطف يوجب قربه من الرب سبحانه وتعالى وقربه منه يوجب له الأنس والأنس ثمرة الطاعة والمحبة فكل مطيع مستأنس وكل عاصٍ مستوحش كما قيل:

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب    فدعها إذا شئت واستأنس

والقرب يوجب الأنس والهيبة والمحبة.

قوله: (والتغذي بالسماع) فإن كان محباً صادقاً طالباً لله عاملاً على مرضاته كان غذاؤه بالسماع القرآني الذي كان غذاء سادات العارفين من هذه الأمة وأبرها قلوباً وأصحها أحوالاً وهم الصحابة رضي الله عنهم.

وإن كان منحرفاً فاسد الحال ملبوساً عليه مغروراً مخدوعاً كان غذاؤه بالسماع الشيطاني الذي هو قرآن الشيطان المشتمل على محاب النفوس ولذاتها وحظوظها وأصحابه أبعد الخلق من الله وأغلظهم عنه حجاباً وإن كثرت إشارتهم إليه. وهذا السماع القرآني سماع أهل المعرفة بالله والاستقامة على صراطه المستقيم ويحصل للأذهان الصافية منه معان وإشارات ومعارف

وعلوم تتغذى بها القلوب المشرقة بنور الأنس فيجد بها ولها لذة روحانية يصل نعيمها إلى القلوب والأرواح وربما فاض حتى وصل إلى الأجسام فيجد من اللذة ما لم يعهد مثله من اللذات الحسية. وللتغذي بالسماع سر لطيف نذكره للطف موضعه وهو الذي أوقع كثيراً من السالكين في إيثار سماع الأبيات لما رأى فيه من غذاء القلب وقوته ونعيمه. فلو جئته بألف آية وألف خبر لما أعطاك شطراً من إصغائه وكان ذلك عنده أعظم من الظواهر التي يعارض بها الفلاسفة وأرباب الكلام.

اعلم أن الله عز وجل جعل للقلوب نوعين من الغذاء نوعاً من الطعام والشراب الحسي وللقلب منه خلاصته وصفوه ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله. والثاني غذاء روحاني معنوي خارج عن الطعام والشراب. من السرور والفروح والابتهاج واللذة والعلوم والمعارف وبهذا الغذاء كان سماوياً علوياً وبالغذاء المشترك كان أرضياً سفلياً وقوامه بهذين الغذائين وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس وغذاء يصل إليه منها. فله ارتباط بحاسة اللمس ويصل إليه منها غذاء وكذلك حاسة الشم وكذلك حاسة الذوق وكذلك ارتباطه بحاستي السمع والبصر أشد من ارتباطه بغيرهما ووصول الغذاء منهما إليه أكمل وأقوى من سائر الحواس وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما بل لا يكاد يُقرن إلا بهما أو بإحداهما قال الله تعالى: [١٦: ٧٨] **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** وقال تعالى: [٤٦: ٢٦] **﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** وقال تعالى: [٧: ١٧٩] **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾** وقال تعالى في صفة الكفار: [٢: ١٧١] **﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾** وقال تعالى: [٢٢: ٤٦] **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان**

**يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** وهذا كثير جداً في القرآن لأن تأثره بما يراه ويسمعه أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويَشُمُّه ولأن هذه الثلاثة هي طرق العلم وهي السمع والبصر والعقل وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به أشد من تعلقه بالبصر وارتباطه به ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملذوذات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات وكذلك في المكروهات سماعاً ورؤية ولهذا كان الصحيح من القولين أن حاسة السمع أفضل من حاسة البصر لشدة تعلقها بالقلب وعظم حاجته إليها وتوقف كماله عليها ووصول العلوم إليه بها وتوقف الهدى على سلامتها[1].

ورجحت طائفة حاسة البصر لكمال مدركها وامتناع الكذب فيه وزوال الريب والشك به ولأنه عين اليقين وغاية مدرك حاسة السمع علم اليقين وعين اليقين أفضل وأكمل من علم اليقين ولأن متعلقها رؤية وجه الرب عز وجل في دار النعيم ولا شيء أعلى وأجل من هذا التعلق وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكماً حسناً فقال المدرك بحاسة السمع أعم وأشمل والمدرك بحاسة البصر أتم وأكمل فللسمع العموم والشمول والإحاطة بالموجود والمعدوم والحاضر والغائب والحسي والمعنوي وللبصر التمام والكمال. وإذا عرف هذا فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها.

فمن الناس من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمية منها فهو بمنزلتها وبينه وبينها أول درجة الإنسانية ولهذا شبه الله سبحانه أولئك بالأنعام بل جعلهم أضل فقال تعالى: [٢٥: ٤٤] **﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾** ولهذا نفى الله عن الكفار السمع والبصر والعقول إما لعدم انتفاعهم بها فَنُزِّلت منزلة المعدوم وإما لأن النفي توجه إلى أسماع قلوبهم وأبصارها وإدراكها ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور كقول أصحاب السعير: [٦٧: ١٠] **﴿لو كنا**

---

(١) الصواب أن الحواس كلها مرتبطة بالقلب واللب والفؤاد ارتباطاً قوياً متناسقاً متناسباً بحسب وظيفة كل حاسة وما خلقها الله له. والله أعلم.

نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: [١٩٨:٧] ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ فإنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي ﷺ بالحواس الظاهرة ولا يبصرون صورة نبوته ومعناها بالحاسة الباطنة التي هي بصر القلب والقول الثاني أن الضمير عائد على الأصنام ثم فيه قولان أحدهما أنه على التشبيه أي كأنهم ينظرون إليك ولا أبصار لهم يرونك بها. والثاني: المراد به المقابلة تقول العرب داري تنظر دارك أي تقابلها. وكذلك السمع ثابت لهم وبه قامت الحجة عليهم ومنتف عنهم وهو سمع القلب فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء ولم يسمعوه بالروح الحقيقي الذي هو روح حاسة السمع التي هي حظ القلب فلو سمعوه من هذه الجهة لحصلت لهم الحياة الطيبة التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب ولزال عنهم الصمم والبكم ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة مَنْ عدم السمع والعقل فحصول السمع الحقيقي مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته وإذا فقد غذاءه الصالح احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث وإذا فسد غذاؤه خبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص.

فلما كان تعلق السمع الظاهر الحسي بالقلب أشد والمسافة بينهما أقرب من المسافة بين البصر وبينه ولذلك يؤدي آثار ما يتعلق بالسمع الظاهر إلى القلب أسرع مما يؤدي إليه آثار البصر الظاهر ولهذا ربما غُشي على الإنسان إذا سمع كلاماً يسره أو يسؤه أو صوتاً لذيذاً طيباً مطرباً مناسباً ولا يكاد يحصل له ذلك من رؤية الأشياء المستحسنة بالبصر الظاهر وقد يكون هذا المسموع شديد التأثير في القلب ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله بغيره ولمباينة ظاهره لباطنه ذلك الوقت فإذا حصل له نوع تجرد ورياضة ظهرت قوة ذلك التأثير والتأثر. فكلما تجردت الروح والقلب وانقطعتا عن علائق البدن كان حظهما من ذلك السماع أوفى وتأثرهما به أقوى. فإن كان المسموع معنى

شريفاً بصوت لذيذ حصل للقلب حظه ونصيبه من إدراك المعنى وابتهج به أتم ابتهاج على حسب إدراكه له وللروح حظها ونصيبها من لذة الصوت ونغمته وحسنه فابتهجت به فتتضاعف اللذة ويتم الابتهاج ويحصل الارتياح حتى ربما فاض على البدن والجوارح وعلى الجليس وهذا لا يحصل على الكمال في هذا العالم ولا يحصل إلا عند سماع كلام الله فإذا تجردت الروح وكانت مستعدة وباشر القلب روح المعنى وأقبل بكليته على المسموع فألقى السمع وهو شهيد وساعده طيب صوت القارىء كاد القلب يفارق هذا العالم ويلج عالماً آخر ويجد له لذة وحالة لا يعهدها في شيء غيره ألبتة وذلك رقيقة من حال أهل الجنة في الجنة فيا له من غذاء ما أصلحه وما أنفعه.

وحرام على قلب قد تربَّى على غذاء السماع الشيطاني أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن بل إن حصل له نوع لذة فهو من قبل الصوت المشترك لا من قبل المعنى الخاص. وليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم سبحانه وتعالى عياناً وسماع كلامه منه. وذكر عبدالله بن الإمام أحمد في كتاب السنة أثراً لا يحضرني الآن هل هو موقوف أو مرفوع «إذا سمع الناس القرآن يوم القيامة من الرحمٰن عز وجل فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك» وإذا امتلأ القلب بشيء وارتفعت المباينة الشديدة بين الظاهر والباطن أدت الأذن إلى القلب من المسموع ما يناسبه وإن لم يدل عليه ذلك المسموع ولا قصده المتكلم ولا يختص ذلك بالكلام الدال على معنى بل قد يقع في الأصوات المجردة.

وأكمل السماع سماع من يسمع بالله ما هو مسموع من الله وهو كلامه وهو سماع المحبين المحبوبين كما في الحديث الذي في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي».

والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة فإذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوبه أي بمصاحبته وحضوره في قلبه فله من سماعه هذا شأن ولغيره شأن آخر والله أعلم.

فبين القلب والنفس منازلات ووقائع والحرب بينهما دول وسجال تدال النفس عليه تارة ويدال عليها تارة فهذا حظه من السماع حظ بين الحظين ونصيبه منه بين النصيبين فإن صادفه وقت دولة القلب كان حظه منه قوياً وإن صادفه وقت دولة النفس كان ضعيفاً ومن ههنا يقع التفاوت في الفقه عن الله والفهم عنه والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

## فصل
## منزلة الذكر

في كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها. وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضاً من كل شيء. به يزول الوقْر عن الأسماع والبكم عن الألسن وتنقشع الظلمة عن الأبصار زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين فاللسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصماء واليد الشلاء وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم؛ وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر يَصرع العبدُ الشيطان كما يصرع الشيطانُ أهل الغفلة والنسيان قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان فيجتمع عليه الشياطين فيقولون ما لهذا فيقال قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه والله أعلم.

## فصل

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

## فصل
## في تفصيل ذلك

أما الأول فكقوله تعالى: [٣٣: ٤١ - ٤٤] ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً، وسبحوه بكرة وأصيلاً. هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً**﴾ وقوله تعالى: [٧: ٢٠٤] ﴿**واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة**﴾ وفيه قولان: أحدهما في سرك وقلبك والثاني بلسانك بحيث تسمع نفسك وأما النهي عن ضده فكقوله تعالى: [٧: ٢٠٤] ﴿**ولا تكن من الغافلين**﴾ وقوله تعالى: [٥٩: ١٩] ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾ وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه

فكقوله: [٨: ٤٥ و٦٢: ١٠] ﴿**واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾ وأمَّا الثناء على أهله وحسن جزائهم فكقوله: [٣٣: ٣٥] ﴿**إن المسلمين والمسلمات ـ إلى قوله ـ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾ وأما خسران من لها عنه فكقوله تعالى: [٦٣: ٩] ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهِكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون**﴾ وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له فكقوله تعالى: [٢: ١٥٢] ﴿**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾ وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى: [٢٩: ٤٥] ﴿**اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر**﴾ وفيها أربعة أقوال أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء فهو أفضل الطاعات لأن المقصود بالطاعات كلها إقامة ذكره فهو سر الطاعات وروحها. الثاني: أن المعنى أنكم إذا ذكرتموه ذكركم فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له فعلى هذا المصدر مضاف إلى الفاعل وعلى الأول مضاف إلى المذكور. الثالث: أن المعنى ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر بل إذا تَمَّ الذكر مَحَقَ كل خطيئة ومعصية هذا ما ذكره المفسرون وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معنى الآية أن في الصلاة فائدتين إحداهما نهيها عن الفحشاء والمنكر. والثانية اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر. وأما ختم الأعمال الصالحة به فكما ختم به عمل الصيام بقوله: [٢: ١٨٥] ﴿**ولتكملوا العِدَّة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**﴾ وختم به الحج في قوله: [٢: ٢٠٠] ﴿**فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً**﴾ وختم به الصلاة كقوله: [٤: ١٠٣] ﴿**فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**﴾ وختم به الجمعة كقوله: [٦٢: ١٠] ﴿**فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾ ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا وإذا كان آخر كلام العبد أدخله الله الجنة. وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته وهم أولو الألباب والعقول فكقوله تعالى: [٣: ١٩٠ و١٩١] ﴿**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات**

لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ وأما مصاحبته لجميع الأعمال واقترانه بها وأنه روحها فإنه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله: [٢٠ : ١٤] ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه بل هو روح الحج ولُبُّه ومقصوده كما قال النبي ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله» وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران ومكافحة الأعداء فقال تعالى: [٨ : ٤٥] ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فِئة فاثبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون﴾ وفي أثر إلٰهي يقول الله تعالى: (إن عبدي كُلَّ عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قِرنه) سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يتشهد به.

## فصل

والذاكرون هم أهل السبق كما روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جُمْدان فقال: «سيروا هذا جمدان سبق المُفَرِّدون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» والمفردون إما الموحدون وإما الآحاد الفرادى.

وفي المسند مرفوعاً من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله عز وجل» وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت الأغر قال أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» وهو في صحيح مسلم ويكفي في شرف الذكر أن الله يباهي ملائكته بأهله كما في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا قال: «آللهِ ما أجلسكم إلا ذلك» قالوا: آللهِ ما أجلسنا

إلا ذلك قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة» وسأل أعرابي رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل فقال: «أن تفارق الدنياولسانك رطب من ذكر الله» وقال له رجل: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فمرني بأمر أتشبث به فقال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» وفي المسند وغيره من حديث جابر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس ارتعوا في رياض الجنة» قلنا يا رسول الله وما رياض الجنة فقال: «مجالس الذكر» وقال: «اغدوا وروحوا واذكروا من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله يُنزِل العبد منه حيث أنزله من نفسه» وروى النبي ﷺ عن أبيه إبراهيم ﷺ ليلة الأسراء أنه قال له: «أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» رواه الترمذي وأحمد وغيرهما. وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت» ولفظ مسلم «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت» فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر وفي اللفظ الأول جعل الذاكر بمنزلة الحي والغافل بمنزلة الميت فتضمن اللفظان أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الأحياء والغافل كالميت في بيوت الأموات ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم وقلوبهم فيها كالأموات في القبور كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

وفي أثر إلٰهي يقول الله تعالى: (إذا كان الغالب على عبدي ذكري أحبني وأحببته) وفي آخر: (فَبِي فافرحوا وبذكري فتنعموا) وفي آخر: (ابن آدم ما أنصفتني أذكرك وتنساني وأدعوك وتهرب إلى غيري وأذهب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا يا بن آدم ما تقول غداً إذا جئتني).

وفي آخر: (ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب وارض

بنصرتي لك فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك).

وفي الصحيح في الأثر الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه تبارك وتعالى: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وقد ذكرنا في الذكر نحو مائة فائدة في كتابنا (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب) وذكرنا هناك أسرار الذكر وعظم نفعه وطيب ثمرته وذكرنا فيه أن الذكر ثلاثة أنواع: ذكر الأسماء والصفات ومعانيها والثناء على الله بها وتوحيد الله بها وذكر الأمر والنهي والحلال والحرام وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي وأنه ثلاثة أنواع أيضاً: ذكر يتوطأ عليه القلب واللسان وهو أعلاها وذكر بالقلب وحده وهو في الدرجة الثانية وذكر باللسان المجرد وهو في الدرجة الثالثة.

## فصل

قال: (والذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان).

والفرق بين الغفلة والنسيان أن الغفلة ترك باختيار الغافل والنسيان ترك بغير اختياره ولهذا قال تعالى: [٧: ٢٠٥] ﴿**ولا تكن من الغافلين**﴾ ولم يقل ولا تكن من الناسيين فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف فلا ينهى عنه.
قال: (وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى الذكر الظاهر ثناء أو دعاء أو رعاية) يريد بالظاهر الجاري على اللسان المطابق للقلب لا مجرد الذكر اللساني فإن القوم لا يعتدون به. فأما ذكر الثناء فنحو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وأما ذكر الدعاء فنحو [٧: ٢٣] ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنالنكونن من الخاسرين**﴾ و(يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث) ونحو ذلك وأما ذكر الرعاية فمثل قول الذاكر: الله معي. الله ناظر إليّ. الله شاهدي.. ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله. وفيه رعاية لمصلحة القلب ولحفظ الأدب مع الله والتحرز من الغفلة والاعتصام من الشيطان والنفس. والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة فإنها متضمنة للثناء

على الله والتعـرض للدعاء والسؤال والتصـريح بـه كما في الحـديث «أفضـل الدعاء الحمد لله» قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلهـا دعاء قـال: أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت لعبدالله بن جُدعان يرجو نائله:

أأذكـر حـاجـتي أم قـد كـفـانـي حـيـاؤك إن شـيـمـتـك الـحـيـاء
إذا أثـنـى عـلـيـك الـمـرء يـومـاً كـفـاه مـن تـعـرضـه الـثـنـاء

فهـذا مخلوق واكتفى من مخلوق بـالثنـاء عليـه من سؤالـه فكيف بـرب العالمين والأذكار النبوية متضمنة أيضاً لكمال الرعاية ومصلحـة القلب والتحرز من الغفلات والاعتصام من الوساوس والشيطان والله أعلم.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية: الذكر الخفي وهو الخلاص من القيود والبقاء مع الشهود ولزوم المسامرة) يريد بالخفي ههنا الذكر بمجرد القلب بما يعـرض له من الواردات وهذا ثمرة الذكر الأول ويريـد بالخـلاص من القيود التخلص من الغفلة والنسيـان والحجب الحائلة بين القلب وبين الـرب سبحانـه والبقاء مـع الشهود ملازمة الحضور مع المذكور ومشاهدة القلب له حتى كأنه يراه. ولزوم المسـامرة هي لـزوم مناجـاة القلب لربـه تملقاً تـارة وتضرعـاً تارة وثنـاء تارة واستعظاماً تارةً وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة: الذكر الحقيقي وهو شهود ذكر الحق إياك).

إنما سمى هذا الذكر في هـذه الدرجـة حقيقياً لأنـه منسوب إلى الـرب تعالى وأما نسبة الذكر للعبد فليست حقيقية فذكر الله لعبده هو الذكر الحقيقي وهو شهود ذكر الحق عبده وأنـه ذكره فيمن اختصـه وأهّله للقرب منـه ولذكـره فجعله ذاكراً له ففي الحقيقة هو الذاكر لنفسـه بأن جعـل عبده ذاكـراً له وأهّله لذكره.

# فصل
# منزلة الفقر

هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عنـد القوم الـخ. وحقيقة الفقـر أن لا تكون لنفسك ولا يكون لها منك شيء بحيث تكون كلك لله وإذا كنت لنفسك فثم مِلك واستغناء مناف للفقر.

وهذا الفقر الذي يشيرون إليه لا تنافيه الجِدَة ولا الأملاك فقد كان رسل الله وأنبيـاؤه في ذروتـه مـع جِـدتهم وملكهم كـإبـراهيم الخليـل ﷺ كـان أبـا الضيفان وكانت له الأموال والمواشي وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام وكـذلك كـان نبينا ﷺ كـان كما قـال الله تعالى: [٩٣:٨] ﴿**ووجـدك عـائـلاً فأغنى**﴾ فكانوا أغنياء في فقرهم فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقي دوام الافتقار إلى الله في كل حـال وأن يشهد العبـد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حـالاً وإلا فهو حقيقـة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقـر لي وصف ذات لازم أبـداً كمـا الغنى أبـداً وصـف لـه ذاتي

وقيل: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه. وقال الشبلي: حقيقة الفقر أن لا يستغني بشيء دون الله.

وقال أبوحفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال وملازمة السنة في جميع الأفعال وطلب القوت من وجه حلال.

وقيل: من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيراً، ومن أراده لئلا يشتغل عن الله بشيء مات غنياً.

والفقر له بداية ونهاية وظاهر وباطن فبدايته الذل. ونهايته العـز وظاهـره العُدْم وباطنـه الغنى كما قـال رجل لآخـر فقر وذل؟ فـقـال: لا بـل فقر وعـز. فقال: فقر وثَراء قال: لا بل فقر وعرش. وكلاهما مصيب.

وأما كلامهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر وترجيح أحدهما على صاحبه فعند أهل التحقيق والمعرفة أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق فالمسألة أيضاً فاسدة في نفسها فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى وحقائق الإيمان لا بفقر ولا غنى كما قال تعالى: [٤٩: ١٣] **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** ولم يقل أفقركم ولا أغناكم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده كما قال تعالى: [٨٩: ١٦ و١٧] **﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فَقَدر عليه رزقَه فيقول ربي أهانن. كلا﴾** أي ليس كل مَنْ وسَّعتُ عليه وأعطيته أكون قد أكرمته. ولا كل من ضيقت عليه وقَتَّرت أكون قد أهنته. فالإكرام أن يكرم الله العبد بطاعته والإيمان به ومحبته ومعرفته والإهانة أن يسلبه ذلك. قال ـ يعني ابن تيمية ـ ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر بل بالتقوى فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة. وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ فقال: لا يوزن غداً الفقر ولا الغنى وإنما يوزن الصبر والشكر.

وقال غيره: هذه المسألة محال من وجه آخر وهو أن كلاً من الغني والفقير لا بد له من صبر وشكر فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر بل قد يكون نصيب الغني وقسطه من الصبر أوفر لأنه يصبر عن قدره فصبره أتم من صبر من يصبر عن عجز. ويكون شكر الفقير أتم لأن الشكر هو استفراغ الوسع في طاعة الله والفقير أعظم فراغاً للشكر من الغني فكلاهما لا تقوم قائمة إيمانه إلا على ساقي الصبر والشكر.

## فصل
## منزلة الاحسان

وهي لب الإيمان وروحه وكماله وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها وكل ما قيل من أول الكتاب إلى ههنا فهو من الإحسان.

فالإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق. وهو أن تعبد الله كأنك تراه. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ: **﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾** ثم قال:

«هل تدرون ماذا قال ربكم» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وأما الحديث فإشارة إلى كمال الحضور مع الله عز وجل ومراقبته الجامعة لخشيته ومحبته ومعرفته والإنابة إليه والإخلاص له ولجميع مقامات الإيمان.

## فصل

(قوله: الإحسان في الأحوال) منها أن يراعيها بالانقياد إلى حكمها والإذعان لسلطانها إذا وافق الأمر. ويراعيها أيضاً بسترها تظرفاً وهو أن يسترها عن الناس ما أمكنه لئلا يعلموا بها ولا يظهرها إلا لحجة أو حاجة أو مصلحة راجحة فإن في إظهارها بدون ذلك آفات عديدة مع تعريضها للصوص والسراق والمغيرين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين حمق وعجز وهو من حظوظ النفس والشيطان. وأهل الصدق والعزم لها أستر وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم حتى أن منهم من يُظهر أضدادها نفياً وجحداً.

واتفقت الطائفة على أن من أطلع الناس على حاله مع الله فقد دنس طريقته إلا لحجة أو حاجة أو ضرورة.

وقوله: (وتصحيحها تحقيقاً) أي يجتهد في تحقيق أحواله وتصحيحها وتخليصها فإن الحال قد يمتزج بحق وباطل ولا يميزه إلا أولو البصائر والعلم. وأهل هذه الطريقة يقولون: إن الوارد الذي يبتدىء العبد من جانبه الأيمن والهواتف والخطاب يكون في الغالب حقاً. والذي يبتدىء من الجانب الأيسر يكون في الغالب باطلاً وكذباً. فإن أهل اليمين هم أهل الحق وبأيمانهم يأخذون كتبهم ونورهم الظاهر على الصراط بأيمانهم وكان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وشأنه كله والله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف. وأخبر أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله وحظه من ابن آدم جهة الشمال ولهذا تكون اليد الشمال للاستجمار وإزالة النجاسة والأذى ويبدأ بالرجل الشمال عند دخول الخلاء.

ومن الفرقان أيضاً أن كل وارد يبقى الإنسان بعد انفصاله نشيطاً مسروراً نَشْواناً فإنه وارد ملكي. وكل وارد يبقى الإنسان بعد انفصاله خبيث النفس كسلان ثقيل الأعضاء والروح يجنح إلى فتور فهو وارد شيطاني.

ومن الفرقان أيضاً أن كل وارد أعقب في القلب معرفة بالله ومحبة له وإنساً به وطمأنينة بذكره وسكوناً إليه فهو ملكي إلٰهي وخلافه بخلافه.

ومن الفرقان أيضاً أن كل وارد أعقب صاحبه تقدماً إلى الله تعالى والدار الآخرة وحضوراً فيها حتى كأنه يشاهد الجنة قد أزلفت والجحيم قد سُعِّرت فهو إلهي ملكي وخلافه شيطاني نفساني.

ومن الفرقان أيضاً أن كل وارد كان سببه النصيحة في امتثال الأمر والإخلاص والصدق فيه فهو إلٰهي ملكي وإلا فهو شيطاني.

ومن الفرقان أيضاً أن كل وارد استنار به القلب وانشرح له الصدر وقوي به القلب إلٰهي ملكي وإلا فهو شيطاني. ومن الفرقان أيضاً أن كل وارد جمعك على الله فهو منه وكل وارد فرقك عنه وأخذك عنه فمن الشيطان.

ومن الفرقان أيضاً أن الوارد الإلٰهي لا يُصَرِّف إلا في قربة وطاعة ولا يكون سببه إلا قربة وطاعة فمستخرِجُهُ الأمر ومُصَرِّفه الأمر والشيطاني بخلافه.

ومن الفرقان أيضاً أن الوارد الرحماني لا يتناقض ولا يتفاوت ولا يختلف بل يصدق بعضه بعضاً والشيطاني بخلافه يكذب بعضه بعضاً والله سبحانه أعلم.

قوله: (وأن تجعل هجرتك إلى الحق سرمداً) يعني أن كل متوجه إلى الله بالصدق والإخلاص فإنه من المهاجرين إليه فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة بل ينبغي أن يصحبها سرمداً حتى يلحق بالله عز وجل.

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويحمد غِبُّ السير من هو سائر

ولله على كل قلب هجرتان وهما فرض لازم له على الأنفاس: هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية.

وهجرة إلى رسول الله ﷺ بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل ومتاهات الطريق فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد وليراجع الإيمان من أصله فيرجع وراءه ليقتبس نوراً قبل أن يحال بينه وبينه ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور والله المستعان.

## فصل
## منزلة العلم

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق وهو مقطوع عليه طريق الوصول مسدود عليه سبل الهدى والفلاح مغلقة عنه أبوابه وهذا إجماع من الشيوخ العارفين ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم ونواب إبليس وشُرطه قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة. وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله من عمل عملاً بلا اتباع سنة فباطل عمله. وقال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله: الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة. والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم. ومع أولياء الله بالاحترام والخدمة ومع الأهل بحسن الخلق ومع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً ومع الجهال بالدعاء لهم والرحمة. زاد غيره ومع الحافظين بإكرامهما واحترامهما وإملائهما ما يحمدانك عليه ومع النفس بالمخالفة ومع الشيطان بالعداوة. وقال أبو عثمان أيضاً: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق الحكمة. ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة قال الله تعالى: [٢٤: ٥٤] ﴿**وإن تطيعوه تهتدوا**﴾ وقال عمرو بن عثمان المكي: العلم قائد. والخوف سائق. والنفس حرون بين ذلك جموح خداعة رواغة فاحذرها وراعها بسياسة العلم وسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد.

ومن أحالك على غير (أخبرنا) و(حدثنا) فقد أحالك إما على خيال صوفي. أو قياس فلسفي. أو رأي نفسي. فليس بعد القرآن وأخبرنا وحدثنا إلا شبهات المتكلمين وآراء المنحرفين وخيالات المتصوفين وقياس المتفلسفين. ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم.

والعلم ما قام عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول والعلم خير من الحال. دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة. ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه وربما ضاقت عنه. العلم هاد والحال الصحيح مهتد به وهو تركة الأنبياء وتراثهم وأهله عصبتهم ووراثهم وهو حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ورياض العقول ولذة الأرواح وأنس المستوحشين ودليل المتحيرين وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين والغي والرشاد والهدى والضلال به يعرف الله ويعبد ويذكر ويوحد ويحمد ويمجد وبه اهتدى إليه السالكون ومن طريقه وصل إليه الواصلون ومن بابه دخل عليه القاصدون به تعرف الشرائع والأحكام ويتميز الحلال من الحرام وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضي الحبيب وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام والعمل مأموم وهو قائد والعمل تابع وهو الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والأنيس في الوحشة والكاشف عن الشبهة والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه والكَنَف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه مذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه قربة وبذله صدقة ومدارسته تعدل بالصيام والقيام والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه. وروينا عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه

قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه.

قال ابن وهب كنت بين يدي مالك رضي الله عنه فوضعت ألواحي وقمت أصلي فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه. ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجَلِّ مشهود به وهو التوحيد وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح. ومن ههنا والله أعلم يؤخذ الحديث المعروف «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل المبطلين» وهو حجة الله في أرضه ونوره بين عباده وقائدهم ودليلهم إلى جنته ومدنيهم من كرامته. ويكفي في شرفه أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها وتظلهم بها وأن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر وحتى النمل في جحرها وأن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير.

ولقد رحل كليم الرحمٰن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام في طلب العلم هو وفتاه حتى مسهما النصَب في سفرهما في طلب العلم حتى ظفر بثلاث مسائل وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به. وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: [٢٠ : ١١٤] ﴿**وقل ربي زدني علماً**﴾.

وأما قوله: (الأبدان الزكية) فهي التي زكت بطاعة الله ونبتت على أكل الحلال فمتى خلصت الأبدان من الحرام وأدناس البشرية التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة وطهرت الأنفس من علائق الدنيا زكت أرض القلب فقبلت بذر العلوم والمعارف فإن سُقيت بعد ذلك بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية وهي التي لا تخرج عن علم ولا تبعد عن واجب ولا تعطل سنة أنبتت من كل زوج كريم من علم وحكمة وفائدة وتعرف فاجتنى منها صاحبها ومَنْ جالسه أنواعَ الطُّرَف والفوائد والثمار المختلفة الألوان والأذواق كما قال

بعض السلف إذا عقدت القلوب على ترك المعاصي جالت في الملكوت ثم رجعت إلى أصحابها بأنواع التحف والفوائد.

وقوله: (في الأحايين الخالية) يريد بها ساعات الصفاء مع الله تعالى وأوقات النفحات الإلهية التي من تعرض لها يوشك أن لا يحرمها ومن أعرض عنها فهي عنه أشد إعراضاً. وقوله: (في الأسماع الصاخية) فهي التي صحت من تعلقها بالباطل واللغو وأصاخت لدعوة الحق ومنادي الإيمان فإن الباطل واللغو خمر الأسماع والعقول فصحوها بتجنبه والإصغاء إلى دعوة الحق.

(والعلم اللدني) ثمرة العبودية والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله وكمال الانقياد له فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سئل هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس فقال: لا والذي فَلَق الحبة وبرأ النَّسَمَةَ إلا فَهْماً يؤتيه الله عبداً في كتابه فهذا هو العلم اللدني الحقيقي. وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة ولم يتقيد بهما فهو من لدن النفس والهوى والشيطان. فهو لدني لكن من لدن مَنْ. وإنما يعرف كون العلم لدنياً رحمانياً بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عز وجل فالعلم اللدني نوعان لدني رحماني. ولدني شيطاني بطناوي والمَحكُّ هو الوحي ولا وحي بعد رسول الله ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر مخرج عن الإسلام موجب لإراقة الدم والفرق أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته ولو كان مأموراً بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه[1] ولهذا قال له (أنت موسى بني إسرائيل قال نعم) ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان ولو كان موسى

(١) قد حقق العلماء المحققون كالحافظ ابن حجر وغيره من علماء السلف أن الخضر كان رسولاً كموسى عليهما السلام والقرآن يشير إلى ذلك بقوله: [١٨ : ٨٢] **﴿وما فعلته عن أمري﴾**.

وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه وإذا نزل عيسى بن مريم عليهما السلام فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى أو جوّز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه وليتشهد شهادة الحق فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه. وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم وبين أهل الاستقامة منهم.

## فصل
## منزلة الحكمة

قال الله تعالى: [٢: ٦٩] ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتِيَ خيراً كثيراً**﴾ وقال تعالى: [٤: ١١٣] ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً**﴾ وقال عن المسيح عليه السلام: [٣: ٤٨] ﴿**ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾ الحكمة في كتاب الله نوعان مفردة ومقترنة بالكتاب فالمفردة فسرت بالنبوة. وفسرت بعلم القرآن قال ابن عباس رضي الله عنهما هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل. وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها. وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها. وأما الحكمة المقرونة بالكتاب فهي السنة كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة. وقيل هي القضاء بالوحي. وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك أنها معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل. وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان.

والحكمة حكمتان: علمية، وعملية، فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خَلْقاً وأمراً قدراً وشرعاً.

والعملية كما قال صاحب المنازل (وهي وضع الشيء في موضعه) قال: (وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى أن تعطي كل شيء حَقَّه ولا تعديه حَدَّه ولا تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه) لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعاً وقدراً ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقّه الله لها بشرعه وقدره ولا تتعدى بها حدها فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة ولا تؤخرها عنه فتفوتها. وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض. وتعدي الحق كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد وتعجيلها عن وقتها كحصاده قبل إدراكه وكماله. وكذلك ترك الغذاء والشراب واللباس إخلال بالحكمة وتعدي الحد المحتاج إليه خروج عنها أيضاً وتعجيل ذلك قبل وقته إخلال بها وتأخيره عن وقته إخلال بها. فالحكمة إذاً فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه فالرجل الكامل من له إرث كامل من أبيه ونصف الرجل ـ كالمرأة ـ له نصف ميراث والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى. وأكمل الخلق في هذا الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأكملهم أولو العزم وأكملهم محمد ﷺ ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة كما قال تعالى: [٤: ١١٣] ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم**﴾ وقال تعالى: [٢: ١٥١] ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾ فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة وكل خلل في الوجود وفي العبد فسببه الإخلال بها فأكمل الناس أوفرهم منها نصيباً وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال أقلهم منها ميراثاً. ولها ثلاثة أركان العلم والحلم والأناة. وآفاتها وأضدادها الجهل والطيش والعجلة فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول والله أعلم.

# فصل

قال: (الدرجة الثانية أن تشهد نظر الله في وعده. وتعرف عدله في حكمه وتلحظ بره في منعه) أي تعرف الحكمة في الوعد والوعيد وتشهد حكمه في قوله: [٤ : ٤٠] **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾** فتشهد عدله في وعيده وإحسانه في وعده وكل قائم بحكمته. وكذلك تعرف عدله في أحكامه الشرعية والكونية الجارية على الخلائق فإنه لا ظلم فيها ولا حيف ولا جور وإن أجراها على أيدي الظلمة فهو أعدل العادلين ومن جرت على يديه هو الظالم.

وكذلك تعرف بِرَّه في منعه: فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق ولا يغيض ما في يمينه سعة عطائه فما منع من منعه فضله إلا لحكمة كاملة في ذلك فإنه الجواد الحكيم. وحكمته لا تناقض جوده فهو سبحانه لا يضع بِرَّه وفضله إلا في موضعه ووقته بقدر ما تقتضيه حكمته ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا ولو علم في الكفار خيراً وقبولاً لنعمة الإيمان وشكراً له عليها ومحبة له واعترافاً بها لهداهم إلى الإيمان ولهذا لما قالوا للمؤمنين [٦ : ٣٥] **﴿أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا﴾** أجابهم بقوله: **﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾** سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان ويشكرون الله عليها. فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته ولا منع إلا بحكمته ولا أضل إلا بحكمته. وإذا تأمل البصير أحوال العالم وما فيه من النقص رآه عين الحكمة وما عمرت الدنيا والآخرة والجنة والنار إلا بحكمته.

وفي الحكمة ثلاثة أقوال للناس: أحدها أنها مطابقة علمه لمعلومه وإرادته ومشيئته لمراده هذا تفسير الجبرية. وهو في الحقيقة نفي حكمته. إذ مطابقة المعلوم والمراد أعم من أن يكون حكمه أو خلافها فإن السفيه من العباد يطابق علمه وإرادته لمعلومه ومراده مع كونه سفيهاً.

الثاني: مذهب القدرية النفاة. أنها مصالح العباد ومنافعهم العائدة عليهم وهو إنكار لوصفه تعالى بالحكمة وردوها إلى مخلوق من مخلوقاته.

الثالث: قول أهل الإثبات والسنة أنها الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره التي أمر لأجلها وقَدَّر وخلق لأجلها وهي صفته القائمة به كسائر صفاته من سمعه وبصره وقدرته وإرادته وعلمه وحيائه وكلامه.

وللرد على طائفتي الجبرية والقدرية موضع غير هذا والله أعلم.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة أن تبلغ في استدلالك البصيرة وفي إرشادك الحقيقة وفي إشارتك الغاية) يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهي البصيرة التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئيّ إلى البصر وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة وهي درجات العلماء قال تعالى: [١٢:١٠٨] ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾ أي أنا وأتباعي على بصيرة وقيل: ومن اتبعني: عطف على المرفوع: بأدعو: أي أنا أدعو إلى الله على بصيرة ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله على بصيرة. وعلى القولين فالآية تدل أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى.

## فصل
## منزلة الفراسة

قال الله تعالى: [١٥: ٧٥] ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسِّمين**﴾ قال مجاهد رحمه الله المتفرسين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما للناظرين. وقال قتادة للمعتبرين. وقال مقاتل للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم أورثه فراسة وعبرة وفكرة وقال تعالى في حق المنافقين: [٤٧: ٣٠] ﴿**ولو نشاء لأريناكهم فلعَرَفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول**﴾ فالأول فراسة النظر والعين والثاني فراسة الأذن والسمع.

والمقصود أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم فإن معرفة

المتكلم وما في ضميره من كلامه أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه فإن دلالة الكلام على قصدقائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم تلا قوله تعالى: [١٥ : ٧٥] ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾.

## فصل

والفراسة ثلاثة أنواع إيمانية وهي المتكلم فيها في هذه المنزلة وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل والحالي والعاطل والصادق والكاذب. وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة لكن الفريسة فعيلة بمعنى مفعولة وبناء الفراسة كبناء الولاية والإمارة والسياسة وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان فمن كان أقوى إيماناً فهو أَحَدُّ فراسة.

وقال عمرو بن نجيد كان شاه الكرماني حاد الفراسة لا يخطىء ويقول من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال. لم تخطىء فراسته.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف حيث قال لامرأته: ﴿**أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**﴾ وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى: [٢٨ : ٣٦] ﴿**استأجره**﴾ وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه. وفي رواية أخرى وامرأة فرعون حين قالت: [٢٨ : ٩] ﴿**قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**﴾.

وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ووقائع فراسته مشهورة فإنه ما قال لشيء: أظنه كذا: إلا كان كما قال ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع المعروفة.

وفراسة الصحابة رضي الله عنهم أصدق الفراسة.

وأصل هذا النوع من الفراسة من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى

لمن يشاء من عباده فيحيا القلب بذلك ويستنير فلا تكاد فراسته تخطىء قال الله تعالى: [٦: ١٢٢] ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾ كان ميتاً بالكفر والجهل فأحياه الله بالإيمان والعلم وجعل له بالقرآن والإيمان نوراً يستضيء به في الناس على قصد السبيل ويمشي به في الظلم والله أعلم.

## فصل

الفراسة الثانية فراسة الرياضة والجوع والسهر والتخلي فإنّ النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ولا تدل على إيمان ولا على ولاية وكثير من الجهال يغتر بها وللرهبان فيها وقائع معلومة وهي فراسة لا تكشف عن حق نافع[1] ولا عن طريق مستقيم بل كشفها جزئي من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبارة الرؤيا والأطباء ونحوهم.

وللأطباء فراسة معروفة من حذقهم في صناعتهم ومن أحب الوقوف عليها فليطالع تاريخهم وأخبارهم وقريب من نصف الطب فراسة صادقة يقترن بها تجربة والله سبحانه أعلم.

## فصل

الفراسة الثالثة الفراسة الخَلْقية وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم واستدلوا بِالْخَلْق على الخُلُقِ لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله سبحانه وتعالى وأصل هذه الفراسة أن اعتدال الخلقة والصورة هو من اعتدال المزاج والروح ومن اعتدالها يكون اعتدال الأخلاق والأفعال وبحسب انحراف الخلقة والصورة عن الاعتدال يقع الانحراف في الأخلاق والأعمال. هذا إذا خُلِّيت النفسُ وطبيعتُها. ولكن صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب

---

(١) الأصح أنها ليست فراسة فإنهم برياضتهم السحرية الشيطانية أظلم خلق الله نفوساً وقلوباً وإنما هي نوع من استمتاع الشياطين بهم واستمتاعهم بالشياطين. أو هي غباوة وبلادة من المخدوعين بهم.

بـالمقارنـة والمعاشـرة أخلاق من يقـارنه ويعـاشره ولـو أنه من الحيـوان البهيم فيصير من أخبث الناس أخلاقاً وأفعالاً وتعود له تلك طباعاً ويتعذر، أو يتعسر، عليه الانتقال عنها. وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحـرفة عن الاعتـدال يكتسب بصحبة الكاملين بخلطتهم أخلاقاً وأفعالاً شريفة تصير له كالطبيعة فإن العوائد والمزاولات تعطي الملكات والأخلاق.

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء: بعينه، وأذنه، وقلبـه فعينه للسيمـا والعلامات وأذنه للكلام وتصريحه وتعريضه ومنطوقه ومفهومه وفحواه وإشارتـه ولحنه وإيمانـه ونحو ذلـك. وقلبه للعبـور والاستدلال من المنـظور والمسموع إلى باطنه وخفيه فَيَعْبُر إلى ما وراء ظاهره كعبور النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى بـاطن النقد والاطـلاع عليـه هـل هـو صحيـح أو زغـل. وكـذلـك عبـور المتفرس من ظاهر الهيئة والدَّلِّ إلى باطن الروح والقلب فنسبة نقـده للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصيرفي ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد. وكذلك نقد أهل الحديث فإنه يمر إسناد ظاهـر كالشمس على متن مكـذوب فيخرجـه نـاقدهم كمـا يخرج الصيـرفي الزغـل من تحت الظاهـر من الفضة. وكـذلك فـراسـة التمييز بين الصـادق والكاذب في أقـواله وأفعـاله وأحـواله. وللفـراسة سببان أحدهما جودة ذهن المتفرس وحدة قلبـه وحسن فطنتـه. والثاني ظهـور العـلامات والأدلـة على المتفرَّس فيـه. فإذا اجتمـع السببان لم تكـد تخـطىء للعبـد فراسـه وإذا انتفيا لم تكـد تصح لـه فراسـة وإذا قوي أحـدهما وضعف الآخر كانت فراسـة بين بين. وكان إياس بن معـاوية من أعـظم الناس فـراسة وله الوقائع المشهورة وكذلك الشافعي رحمه الله وقيل: إن له فيها تآليف.

ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أموراً عجيبـة وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً.

قوله: (ولا يؤبه لصاحبها) لأنه ليس هناك.

قلت: وهذا من جنس الفال وكـان رسول الله ﷺ يحب الفـال ويعجبه. والطِّيَرة من هذا ولكن المؤمن لا يتطير فإن التطير شرك ولا يصده ما سمع عن مقصده وحاجته بل يتوكل على الله ويثق به ويدفـع شر التـطير عنـه بالتـوكل.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الطيرة شرك وما منا إلا. ولكن الله يذهبه بالتوكل وهذه الزيادة وهي قوله: وما منا إلا يعني من يعتريه ولكن الله يذهبها بالتوكل مدرجة في الحديث من قول ابن مسعود وجاء ذلك مبيناً. ومن له يقظة يرى ويسمع من ذلك عجائب وهي من إلقاء الملك تارة على لسان الناطق وتارة من إلقاء الشيطان فالإلقاء الملكي تبشير وتحذير وإنذار. والإلقاء الشيطاني تحزين وتخويف وشرك وصد عن المطالب وصاحب الهمة والعزيمة لا يتقيد بذلك ولا يصرف إليه همته وإذا سمع ما يسره استبشر وقوي رجاؤه وحسن ظنه وحمد الله وسأله إتمامه واستعان به على حصوله وإذا سمع ما يسوؤه استعاذ بالله ووثق به وتوكل عليه ولجأ إليه والتجأ إلى التوحيد وقال: (اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك).

ومن جعل هذا نُصب قلبه وعلق به همته كان ضرره به أكثر من نفعه.

## فصل
## منزلة التعظيم

وهذه المنزلة تابعة للمعرفة فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته ولا عرفه حق معرفته ولا وصفه حق صفته. وأقوالهم تدور على هذا فقال تعالى: [٧١:١٣] ﴿**ما لكم لا ترجون لله وقاراً**﴾ قال ابن عباس ومجاهد لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: مالكم لا تعظمون الله حق عظمته. وقال الكلبي لا تخافون لله عظمة. قال البغوي والرجاء بمعنى المَخُوف: والوقار العظمة اسم من التوقير وهو التعظيم.

وقال الحسن: لا تعرفون لله حقاً. ولا تشكرون له نعمة. وقال ابن كيسان لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً.

وروح العبادة هو الإجلال والمحبة فإذا تخلى أحدهما عن الآخر

فسدت فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد والله سبحانه أعلم.

## فصل

قال: (التعظيم معرفة العظمة مع التذلل لها وهو على ثلاث درجات الأولى تعظيم الأمر والنهي وهو أن لا يعارَضا بترخيص جاف ولا يُعرَّضا لتشدد غال ولا يحملا على علة توهن الانقياد).

ههنا ثلاثة أشياء تنافي تعظيم الأمر والنهي أحدهما الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال. والثاني الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي فالأول تفريط والثاني إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وإضاعة وإما إلى إفراط وغلو ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه كالوادي بين جبلين والهدى بين ضلالتين والوسط بين طرفين ذميمين فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له فالغالي فيه مضيع له هذا بتقصيره عن الحد وهذا بتجاوزه الحد وقد نهى الله عن الغلو بقوله: [٥ : ٧٧] ﴿**يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق**﴾ قال النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر ولن يشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحة وشيء من الدُّلجة» يعني استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها. وقال ﷺ: «لِيُصَلِّ أحدكم نَشَاطه فإذَا فَتَر فليرقد» رواهما البخاري. وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً وهم المتعمقون المتشددون وفي صحيح البخاري عنه ﷺ: «عليكم من الأعمال ما تطيقون فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تملوا» وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «إن هذا الدين متين فأوْغِلْ فيه بِرِفْق ولا تُبَغِّضَنَّ إلى نفسك عبادة الله» أو كما قال.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية تعظيم الحكم) الدرجة الأولى تتضمن تعظيم

الحكم الديني الشرعي وهـذه الدرجـة تتضمن تعظيم الحكم الكـوني القدري وكمـا يجب على العبد أن يـرعى حكم الله الديني بـالتعظيم فكـذلـك يـرعى حكمه الكوني به فذكر من تعظيمـه قولـه (أن لا يبغي له عـوج) أي يطلب لـه عوج أو يرى فيه عوج بـل يراه كله مستقيمـاً لأنه صـادر عن عين الحكمة فـلا عوج فيه وهذا موضـع أشكل على النـاس جداً فقـال نفاة القدر: ما في خلق الرحمٰن من تفاوت ولا عوج. والكفر والمعاصي مشتملة على أعظم التفـاوت والعوج فليـست بخلقه ولا مشيئته ولا قدره. وقـالت فرقـة تقابلهم بـل هي من خلق الرحمٰن وقدره فلا عوج فيها وكل ما في الوجود مستقيم.

والطائفتان ضالتان منحرفتان عن الهدى وهذه الثانية أشـد انحرافـاً لأنها جعلت الكفر والمعاصي طريقاً مستقيماً لا عوج فيه وعدم تفريق الطائفتين بين القضاء والمقضي والحكم والمحكوم بـه هو الـذي أوقعهم فيما أوقعهم فيـه. وقول سلف الأمة وجمهورها أن القضاء غير المقضي فالقضاء فعله ومشيئته وما قام به والمقضي مفعـوله المبـاين له المنفصـل عنه وهـو المشتمل على الخيـر والشر والعوج والاستقـامة. فقضـاؤه كله حق. والمقضي منه حق ومنـه باطـل وقضـاؤه كله عـدل. والمقضي منـه عـدل ومنـه جـور. وقضــاؤه كله مـرضي والمقضي منـه مرضي ومنـه مسخوط وقضـاؤه كله مسـالم. والمقضي منـه مـا يُسالَم ومنه ما يحارب.

وهـذا أصل عـظيم تجب مراعـاته وهـو موضـع مزلـة أقـدام كمـا رأيت والمنحرف عنه إما جاهل للحكمة أو القدرة أو للأمر والشرع ولا بد.

وقضاء الله وقدره وحكمه الكوني لا يناقض دينه وشـرعه وحكمـه الديني بحيث تقع المدافعة بينهما لأن هذا مشيئته الكونية وهذا إرادته الدينية وإن كان المرادان قد يتدافعان ويتعارضان لكن من تعظيم كل منهما أن لا يدافع بالآخر ولا يعارض فإنهما وصفان للرب تعـالى وأوصافـه لا يدافـع بعضها ببعض وإن استعيذ ببعضها من بعض فالكل منه سبحانه وهو المعيـذ من نفسه بنفسـه كما قال أعلم الخلق به: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافـاتك من عقـوبتك وأعوذ بك منك» فرضـاه وإن أعاذ من سخـطه فإنـه لا يبطله ولا يـدفعه وإنمـا

يدفع تعلقه بالمستعيذ وتعلُقه بأعدائه باق غير زائل فهكذا أمره وقدره سواء فإن أمره لا يبطل قدرَه. ولا قدره يبطل أمرَه. ولكن يدفع ما قضاه وقدره بما أمر به وأحبه وهو أيضاً من قضائه فما دُفع قضاؤه إلا بقضائه وأمره فلم يدفع العلم الحكم بل المحكوم به والعلم والحكم دفعا المحكوم به الذي قَدَّر دفعه وأمر به. فتأمل هذا فإنه محض العبودية والمعرفة والإيمان بالقدر والاستسلام له والقيام بالأمر والتنفيذ له بالقدر فما نفذ المطيع أمر الله إلا بقدر الله ولا دفع مقدور الله إلا بقدر الله وأمره.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة تعظيم الحق سبحانه) هذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه صاحب الخلق والأمر وذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء أحدها (أن لا تجعل دونه سبباً) أي لا تجعل للوصلة إليه سبباً غيره بل هو الذي يوصل عبده إليه فلا يوصِل إلى الله إلا الله ولا يقرب إليه سواه ولا يدني إليه غيره ولا يتوصل إلى رضاه إلا به فما دل على الله إلا الله ولا هدى إليه سواه ولا أدنى إليه غيره فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سبباً فالسبب وسببيته وإيصاله كله خلقه وفعله. الثاني (أن لا يرى عليه حقاً) أي لا ترى لأحد من الخلق لا لك ولا لغيرك؛ حقاً على الله بل الحق لله على خلقه. وأما حقوق العبيد على الله تعالى من إثابته لمطيعهم وتوبته على تائبهم وإجابته لسائلهم فتلك حقوق أحقها الله سبحانه على نفسه بحكم وعده وإحسانه لا أنها حقوق أحقوها هم عليه فالحق في الحقيقة لله على عبده وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه. هذا قول أهل التوفيق والبصائر وهو وسط بين قولين منحرفين قد تقدم ذكرهما مراراً والله سبحانه أعلم.

وأما قوله: (أو ينازع له اختياراً) أي إذا رأيت الله عز وجل قد اختار لك أو لغيرك شيئاً إما بأمره ودينه وإما بقضائه وقدره فلا تنازع اختياره بل ارض باختيار ما اختاره لك فإن ذلك من تعظيمه سبحانه ولا يرد عليه قدره من المعاصي فإنه سبحانه وإن قدرها لكنه لم يخترها له فمنازعتها غير اختياره من عبده وذلك من تمام تعظيم العبد له سبحانه والله أعلم.

# فصل
# منزلة السكينة

هذه المنزلة من منازل المواهب لا من منازل المكاسب وقد ذكر الله سبحانه السكينة في كتابه في ستة مواضع: في سورة البقرة آية ٢٤٨ التوبة آية ٢٦ وآية ٤٠ الفتح آية ٤ وآية ١٨ وآية ٢٦ وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة. وقد جربت أنا أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات. ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب كيوم الهجرة إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما. وكيوم حُنَين حين وَلُّوا مدبرين من شدة بأس الكفار لا يلوي أحد منهم على أحد. وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكّم الكفار عليهم ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس. قال ابن عباس رضي الله عنهما كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة إلا التي في سورة البقرة. وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلدة بطنه وهو يرتجز بكلمة عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزل سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة (إني باعث نبياً أمياً ليس بفَظٍّ ولا غليظ ولا صَخَّاب في الأسواق ولا متزين بالفحش ولا قَوَّل للخَنا أُسدّده لكل جميل وأَهَبُ له كل خُلُقٍ كريم ثم أجعل السكينة لباسه والبِرَّ شِعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو

والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمدَ اسمه).

السكينة إذا نزلت على القلب اطمأن بها وسكنت إليها الجوارح وخشعت واكتسبت الوقار وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش واللغو والهجر وكل باطل قال ابن عباس رضي الله عنهما كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه.

وكثيراً ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة منه ولا روية ولا هبة ويستغربه هو من نفسه كما يستغرب السامع له وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه. وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة وصدق الرغبة من السائل والمجالس وصدق الرغبة منه هو إلى الله والإسراع بقلبه إلى بين يديه وحضرته مع تجرده من الأهواء وتجريده النصيحة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين وإزالة نفسه من البين. ومن جرب هذا عرف قدر منفعته وعظمها وساء ظنه بما يحسن به الغافلون ظنونهم من كثير من كلام الناس.

قوله: (وليست شيئاً يملك) يعني هي موهبة من الله تعالى ليست بسببية ولا كسبية وليست كالسكينة التي كانت في التابوت تنقل معهم كيف شاؤوا.

وقوله: (تلقي على لسان المحَدث الحكمة) أي تجري الصواب على لسانه.

وقوله: (كما يلقي الملك الوحي على قلوب الأنبياء) عليهم السلام يعني أنها بواسطة الملائكة بحيث تلقي في قلوب أربابها الحكمة عنهم والطمأنينة والصواب كما أن الأنبياء تتلقى الوحي عن الله بواسطة الملائكة ولكن ما للأنبياء مختص بهم، ولا يشاركهم فيه غيرهم وهو نوع آخر.

## فصل

قال: (السكينة التي نزلت على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين وهي شيء يجمع قوة وروحاً يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين والضجر ويكن إليه العَصِيُّ والجريء والأبي) ذكر أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب

رسوله ﷺ وقلوب عباده المؤمنين يشتمل على ثلاثة معان: النور، والقوة، والروح، وذكر له ثلاث ثمرات سكون الخائف إليه. وتسلي الحزين والضجر به. واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه. فبالروح الذي فيها حياة القلب وبالنور الذي فيها استنارته وضياؤه وإشراقه وبالقوة ثباته وعزمه ونشاطه فالنور يكشف له عن دلائل الإيمان وحقائق اليقين ويميز له بين الحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشد والشك واليقين. والحياة توجب كمال يقظته وفطنته وحضوره وانتباهه من سِنَة الغفلة وتأهبه للقائه والقوة توجب له الصدق وصحة المعرفة وقهر داعي الغَيِّ والعنت وضبط النفس عن جزعها وهلعها واسترسالها في النقائص والعيوب ولذلك ازداد بالسكينة إيماناً مع إيمانه. والإيمان يثمر له النور والحياة والقوة وهذه الثلاثة تثمره أيضاً وتوجب زيادته فهو محفوف بها قبلها وبعدها فبالنور يكشف دلائل الإيمان. وبالحياة ينتبه من سنة الغفلة ويصير يقظاناً. وبالقوة يقهر الهوى والنفس والشيطان.

## فصل

فإذا حصلت هذه الثلاثة بالسكينة وهي النور، والحياة والروح سكن إليها العصي وهو الذي سكونه إلى المعصية والمخالفة لعدم سكينة الإيمان في قلبه صار سكونه إليها عوض سكونه إلى الشهوات والمخالفات فإنه قد وجد فيها مطلوبه وهو اللذة التي كان يطلبها من المعصية ولم يكن له ما يعيضه عنها فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها ونعيمها عن لذة المعصية فاستراحت بها نفسه وهاج إليها قلبه ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية فصارت لذته روحانية قلبية بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها وحبس عنها وخلصته فإذا تألقت بروقها قال:

تألق البرق نَجْدياً فقلت له ... يا أيها البرق إني عنك مشغول

وإذا طرقته طيوفها الخيالية في ظلام ليل الشهوات نادى لسان حاله وتمثل بمثل قوله:

طَرقَتْكَ صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل وودعته بالموافاة تمثل بقول الآخر:

قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تريد فقلت أن لا ترجعي

فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سكّنت خوفه وهو قوله (يسكن إليها الخائف) وسلت حزنه فإنها لا حزن معها فهي سلوة المحزون ومذهبة الهموم والغموم وكذلك تذهب عنه وخم ضجره وتبعث نشوة العزم. وحالت بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر وبين إباء النفس والانقياد إليه والله أعلم.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية السكينة عند المعاملة بمحاسبة النفوس وملاطفة الخلق. ومراقبة الحق) هذه الدرجة هي التي يحوم عليها أهل التصوف والعلم الذي يشمرون إليه للمعاملة التي بينهم وبين الله وبينهم وبين خلقه وتحصل بثلاثة أشياء أحدها محاسبة النفس حتى تعرف ما لها وما عليها ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالاً فيضيعها ويهملها وأيضاً فإن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها.

قال الحسن رضي الله عنه إن المؤمن والله لا تراه إلا قائماً على نفسه ما أردت بكلمة كذا ماأردت بأكلة ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا. ما أردت بهذا ما لي ولهذا. والله لا أعود إلى هذا ونحو هذا من الكلام. فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها فيمكنه السعي في إصلاحها.

الثاني :ملاطفة الخلق وهي معاملتهم بما يجب أن يعاملوه به من اللطف ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة فإن ذلك ينفرهم عنه ويغريهم به ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف فإن معاملة الناس بذلك إما أجنبي فتكسب مودته ومحبته وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عدو ومبغض فتطفىء بلطفك جمرته وتستكفي شره ويكون احتمالك لمضض لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحق سبحانه وتعالى وهي الموجبة لكل صلاح وخير

عاجل وآجل ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه وهي المقصود لذاته وما قبله وسيلة إليه وعون عليه فمراقبة الحق سبحانه وتعالى توجب إصلاح النفس واللطف بالخلق.

## فصل
## منزلة الطمأنينة

قال الله تعالى: [١٣: ٢٨] ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ وقال تعالى: [٨٩: ٢٧ ـ ٣٠] ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾.

الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه ومنه الأثر المعروف (الصدق طمأنينة والكذب ريبة) أي الصدق يطمئن إليه قلب السامع ويجد عنده سكوناً إليه. والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً ومنه قوله ﷺ: «البر ما اطمأن إليه القلب» أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفي ذكر الله هاهنا قولان: أحدهما أنه ذكر العبد ربه فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه؛ فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين إذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت ويروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه يسكن إليه قلبه ويطمئن. والقول الثاني: أن ذكر الله هاهنا القرآن وهو ذكره الذي أنزله على رسوله به طمأنينة قلوب المؤمنين فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه واضطرابه وقلقه من شكه والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به وهذا القول هو المختار. وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: [٤٣: ٣٦] ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عن ذكر الرحمٰن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين**﴾ والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله وهو كتابه من أعرض عنه قَيَّضَ له

شيطاناً يُضِلُّه ويصده عن السبيل وهو يحسب أنه على هدى. وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: [٢٠: ١٢٤ - ١٢٦] ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾ والصحيح أنه ذكره الذي أنزله على رسوله وهو كتابه ولهذا يقول المعرض عنه ﴿**رب لم حَشَرْتَني أعمى وقدكنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾ وأما تأويل من تأوله على الحلف ففي غاية البعد عن المقصود فإن ذكر الله بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب والبر والفاجر والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه ولو حلف وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة فطوبى لهم وحسن مآب وفي قوله تعالى: ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك**﴾ دليل على أنها لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة فهناك ترجع إليه وتدخل في عباده وتدخل جنته وكان من دعاء بعض السلف: اللهم هب لي نفساً مطمئنة إليك.

## فصل

قوله: (طمأنينة القلب بذكر الله وهي طمأنينة الخائف إلى الرجاء. والضَّجِر إلى الحكم والمبتلى إلى المثوبة) ذكر طمأنينة الخائف إلى الرجاء فإن الخائف إذا طال عليه الخوف واشتد به وأراد الله عز وجل أن يريحه ويحمل عنه أنزل عليه السكينة فاستراح قلبه إلى الرجاء واطمأن به وسكن لهيب خوفه وأما طمأنينة الضجر إلى الحكم فالمراد بها أن من أدركه الضجر من قوة التكاليف وأعباء الأمر وأثقاله ولا سيما من أقيم مقام التبليغ عن الله ومجاهدة أعداء الله وقطاع الطريق إليه فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه فلا بد أن يدركه الضجر ويضعف صبره فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه أنزل عليه سكينته فاطمأن إلى حكمه الديني وحكمه القدري لا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق وهو على صراط مستقيم وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم. وإذا اطمأن إلى حكمه

الكوني علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له وأنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان فإن المحذور والمخوف إن لم يُقَدَّر فلا سبيل إلى وقوعه وإن قُدِّر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أبرم تقديره فلا جزع حينئذ لا مما قدر ولا مما لم يقدر. نعم إن كان له في هذه النازلة حيلة فلا ينبغي أن يضجر عنها وإن لم يكن فيها حيلة فلا ينبغي أن يضجر منها فهذه طمأنينة الضجر إلى الحكم وفي مثل هذا قال القائل:

ما قد قضي يا نفس فاصطبري له ولك الأمان من الذي لم يُقْدَر
وتحققي أن المقدر كائن يجري عليك حَذِرْتِ أم لم تحذر

وأما طمأنينة المبتلَى إلى المثوبة: فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب وقد تقوى ملاحظة العوض حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمة ولا تستبعد هذا فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به وملاحظته لنفعه تغيبه عن تألمه بمذاقه أو تخففه عنه والعمل المعول عليه إنما هو على البصائر والله أعلم.

**انتهى الجزء الثاني**

* * *

# الجزء الثالث

## فصل
## منزلة المحبة

وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون وإليها شخص العاملون. وإلى عَلَمها شمر السابقون. وعليها تفانى المحبون. وبِرَوْحِ نسيمها تروّح العابدون. فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون. وهي الحياة التي مَنْ حُرمها فهو من جملة الأموات والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات. والشفاء الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام. وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متى خَلَت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بِشِقِّ الأنفس بالغيها. وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها. وتُبَوِّؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب. وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب فيا لها من نعمة على المحبين سابغة. تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً وتجي في الأول

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم حَيَّ على الفلاح. وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرضى والسماح. وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم وشكروا مولاهم على ما أعطاهم وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

فحيَّهلاً إن كنت ذا همة فقد حدا بك حادي الشوق فاطوِ المراحلا
وقل لمنادي حبهم ورضاهم إذا ما دعا لبيك ألفاً كواملا
ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن نظرت إلى الأطلال عُدْنَ حوائلا
ولا تنتظر بالسير رُفقة قاعد ودَعْه فإن الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهمُ زاداً إليهم وسِرْ على طريق الهدى والفقر تصبح واصلا
وأحْيِ بذكراهم سُراك إذا وَنَتْ ركابك فالذكرى تعيدك عاملا
وإما تخافَنَّ الكلال فقل لها أمامك ورد الوصل فابغ المناهلا
وخذ قَبَساً من نورهم ثم سِرْ به فنورهم يهديك ليس المشاعلا
وحَيَّ على واد الأراك فَقِلْ به عساك تراهم فيه إن كنت قائلا
وإلا ففي نَعْمَانَ عند مُعَرَّف الـ أحبة[1] فاطلبهم إذا كنت سائلا
وإلا ففي جَمْعٍ[2] بليلته فإن تَفُتْ فمتى يا ويح من كان غافلا
وحيَّ على جنات عدن بقربهم منازلك الأولى بها كنت نازلا
ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا وقفت على الأطلال تبكي المنازلا
فدعها رسوماً دارسات فما بها مقيل فجاوزها فليست منازلا
رسوم عَفَتْ يَفْنَى بها الخلق كَمْ بها قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلا
وخُذْ يَمْنة عنها على المنهج الذي عليه سرى وفد المحبة آهلا
وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة فعند اللقا ذا الكدُّ يصبح زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

أول نقدة من أثمان المحبة بذل الروح فما للمفلس الجبان البخيل وسومها.

---

(١)يقصد عرفة.

(٢) جمع: مزدلفة.

بـدم المحب يبـاع وصلهم فمن الـذي يبتـاع بـالثمـن

تـالله مـا هُـزِلت فيستـامهـا المفلسـون. ولا كَسَـدت فيبيعهـا بـالنسيئـة المعسرون لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد فلم يرض لها بثمن دون بذل النفـوس فتأخـر البطالـون وقام المحبـون ينـظرون أيهم يصلح أن يكـون ثمنـاً فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد [٥: ٥٤] **﴿أذلة على المؤمنين أعـزة على الكافرين﴾** لما كثر المدعون للمحبة طولبوابإقامة البينة على صحة الدعوى فلو يُعْـطَى الناس بـدعواهم لا دعى الخَلِيُّ حـرقة الشَّجِيِّ فتنـوع المـدعـون في الشهود فقيل لا تقبل هذه الدعوى إلا ببيِّنَة [٣: ٣١] **﴿قل إن كنتم تحبـون الله فـاتبعـوني يحببكم الله﴾** فتـأخـر الخلق كلهم وثبت أتبـاع الحبيب في أفعـالـه وأقواله وأخلاقه فطولبوا بعدالة البينة بتزكية [٥: ٥٤] **﴿يجاهـدون في سبيل الله ولا يخـافون لـومة لائم﴾** فتـأخر أكثـر المحبين وقام المجـاهدون فقيـل له إن نفـوس المحبين وأمـوالهم ليست لهم فهلمـوا إلى بيعـة [٩: ١١١] **﴿إن الله اشتـرى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بـأن لهم الجنة﴾** فلمـا عرفـوا عـظمـة المشترى وفضل الثمن وجـلالة من جـرى على يديـه عقد التبـايع عـرفوا قـدر السلعة وأن لها شأناً فرأوا من أعظم الغَبْن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس فعقدوا معـه بيعة الـرضوان بـالتراضي من غيـر ثبوت خيـار وقـالـوا والله لا نقيلك ولا نستقيلك. فلمـا تم العقـد وسلمـوا المبيـع قيـل لهم مـذ صـارت نفـوسكم وأمـوالكم لنا رددنـاها عليكم أوفـر ما كـانت وأضعافهـا معاً [٣: ١٦٩ و١٧٠] **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمـواتاً بـل أحياء عنـد ربهم يرزقـون. فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾** إذا غُرست شجـرة المحبة في القلب وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كـل حين بإذن ربها أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهى. لا يزال سعي المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء [٣٥: ١٠] **﴿إليه يصعـد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾**.

## فصل

في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنه داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايب التمر ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمتَ أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب ومِلاك ذلك كله أمران استعداد الروح لهذا الشأن وانفتاح عين البصيرة وبالله التوفيق.

## فصل

قال: ( والمحبة هي سِمَة الطائفة. وعنوان الطريقة ومعقد النسبة) يعني سِمَة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم الذين ركبوا جناح السفر إليه ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء وهم الذين قعدوا على الحقائق وقعد من سواهم على الرسوم و(عنوان طريقتهم) أي دليلها فإن العنوان يدل على الكتاب والمحبة تدل على صدق الطالب وأنه من أهل الطريق. (ومعقد النسبة) أي النسبة التي بين الرب وبين العبد فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والربوبية من الرب وليس في العبد شيء من الربوبية ولا في الرب شيء من العبودية فالعبد عبد من كل وجه والرب تعالى هو الإله الحق من كل وجه. ومعقد نسبة العبودية هو المحبة فالعبودية معقودة بها بحيث متى انحلت المحبة انحلت العبودية والله أعلم.

## فصل

قال: (وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى محبة تقطع الوساوس وتَلِذُّ الخدمة وتسلي عن المصائب) قوله: (تقطع الوساوس) فإن الوساوس والمحبة متناقضان فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب والوساوس تقتضي غيبته عنه حتى توسوس له نفسه بغيره فبين المحبة والوساوس تناقض شديد كما بين الذكر والغفلة فعزيمة المحبة تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره وذلك سبب الوساوس وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس الغير لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى ومن أين يجتمع الحب والوسواس.

لا كان من لسواك فيه بقية ... فيها يُقَسِّم فكره ويوسوس

قوله: (وتلذ الخدمة) أي المحب يلتذ بخدمة محبوبه فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخَلِيُّ في أثناء الخدمة وهذا معلوم بالمشاهدة.

قوله: (وتسلي عن المصائب) فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه

المصائب ولا يجد من مسها ما يجد غيره حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق بل يقوى سلطان المحبة حتى يلتذ المحب بكثير من المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته والذوق والوجود شاهد بذلك والله أعلم.

## فصل

قال: (وهي محبة تنبت من مطالعة المنة وتثبت باتباع السنة وتنمو على الإجابة بالفاقة) قوله: (تنبت من مطالعة المنة) أي تنشأ من مطالعة العبد مِنَّةَ الله عليه ونعمه الباطنة والظاهرة فبقدر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبُغْض من أساء إليها وليس للعبد قط إحسان إلا من الله ولا إساءة إلا من الشيطان ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده تأهيله لمحبته ومعرفته وإرادة وجهه ومتابعة حبيبه وأصل هذا نور يقذفه الله في قلب العبد فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته أشرقت ذاته فرأى فيه نفسه وما أُهِّلت من الكمالات والمحاسن فَعَلَتْ به همته وقويت عزيمته وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه فرقيت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وهذا النور كالشمس في قلوب المقرّبين السابقين وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين وكالنجم في قلوب عامة المؤمنين وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسُّهى.

قوله: (وتثبت باتباع السنة) أي ثباتها إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله وأقواله وأخلاقه فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها وبحسب نقصانه يكون نقصانها كما تقدم أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معاً ولا يتم الأمر إلا بهما فليس الشأن في أن تحب الله بل الشأن في أن يحبك الله ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً وصدقتَه

خَبَراً وأطعته أمراً وأجبته دعوة وآثرته طوعاً وفنيت عن حكم غيره بحكمه وعن محبة غيره من الخلق بمحبته وعن طاعة غيره بطاعته وإن لم يكن ذلك فلا تتعن وارجع من حيث شئت فالتمس نوراً فلست على شيء.

وتأمل قوله: [٣: ٣١] ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ أي الشأن في أن الله يحبكم لا في أنكم تحبونه وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ.

قوله: (وتنمو على الإجابة بالفاقة) الإجابة بالفاقة أن يجيب الداعي بموفور الأعمال وهو خال منها كأنه لم يعملها بل يجيب دعوته بمجرد الإفلاس والفقر التام فإن طريقة الفقر والفاقة تأبى أن يكون لصاحبها عمل أو حال أو مقام وإنما يدخل على ربه بالإفلاس المحض والفاقة المجردة ولا ريب أن المحبة تنمو على هذا المشهد وهذه الإجابة وما أعزه من مقام وأعلاه من مشهد وما أنفعه للعبد وما أجلبه للمحبة والله المستعان.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية محبة تبعث على إيثار الحق على غيره وتُلْهِج اللسان بذكره وتُعَلِّق القلبَ بشهوده وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر إلى الآيات والارتياض بالمقامات) هذه الدرجة أعلى مما قبلها باعتبار سببها وغايتها فإن سبب الأولى مطالعة الإحسان والمنة وسبب هذه مطالعة الصفات وشهود معاني آياته المسموعة والنظر إلى آياته المشهودة وحصول الملكة في مقامات السلوك وهو الإرتياض بالمقامات ولذلك كانت غايتها أعلى من غاية ما قبلها فقوله (تبعث على إيثار الحق على غيره) أي لكمالها وقوتها فإنها تقتضي من المحب أن يترك لأجل الحق ما سواه فيؤثره على غيره ولا يؤثر غيره عليه ويجعل اللسان لَهِجاً بذكره فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره (وتعلق القلب بشهوده) لفرط استيلائه على القلب وتعلقه به حتى كأنه لا يشاهد غيره وقوله: (وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات) يعني إثباتها أولاً ومعرفتها ثانياً ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثاً. ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعاً. فلا يصح له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة. وكلما أكثر قلبه من مطالعتها ومعرفة معانيها

ازدادت محبته للموصوف بها ولذلك كانت الجهمية قطاعُ طريق المحبة بين المحبين وبينهم السيف الأحمر. وقوله: (والنظر إلى الآيات) أي نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة وفي آياته المسموعة وكل منهما داع قوي إلى محبته سبحانه لأنها أدلة على صفات كماله ونعوت جلاله وتوحيد ربوبيته وإلهيته وعلى حكمته وبره وإحسانه ولطفه وجوده وكرمه وسعة رحمته وسبوغ نعمته فإدامة النظر فيها داع لا محالة إلى محبته وكذلك الارتياض بالمقامات فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان كانت محبته أقوى لأن محبة الله له أتم وإذا أحب الله عبداً أنشأ في قلبه محبته.

## فصل
## منزلة الغيرة

قال الله تعالى: [٧: ٣٣] ﴿**قل إنما حَرَّمَ رَبِّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾ وفي الصحيح عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحدٌ أغيرَ من الله ومن غَيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أَحَدٌ أَحَبَّ إليه المدح من الله ومن أجل ذلك أثنى على نفسه وما أَحَدٌ أَحَبَّ إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين» وفي الصحيح أيضاً من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يغار وإن المؤمن يغار وَغَيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه» وفي الصحيح أيضاً أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني» ومما يدخل في الغيرة قوله تعالى: [١٧: ٤٥] ﴿**وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً**﴾ قال السرى لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة ولا أحد أغير من الله إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلاً لفهم كلامه ولا أهلاً لمعرفته وتوحيده ومحبته فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون غيرة عليه أن يناله من ليس أهلاً له.

والغيرة نوعان: غيرة من الشيء. وغيرة على الشيء. والغيرة من الشيء هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك. والغيرة على الشيء

هي شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أن يشاركك في الفوز به. والغيرة أيضاً نوعان: غيرة العبد من نفسه على نفسه كغيرته من نفسه على قلبه ومن تفرقته على جمعيته ومن إعراضه على إقباله ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب. وعلى قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة. ثم الغيرة أيضاً نوعان: غيرة الحق تعالى على عبده وغيرة العبد لربه لا عليه فأما غيرة الرب على عبده فهي أن لا يجعله للخلق عبداً بل يتخذه لنفسه عبداً فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين بل يفرده لنفسه ويضن به على غيره وهذه أعلى الغيرتين. وغيرة العبد لربه نوعان أيضاً غيرة من نفسه وغيرة من غيره فالتي من نفسه أن لا يجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه والتي من غيره أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

## فصل

قال: (وهي على ثلاث درجات: الدرجة الأولى غيرة العابد على ضائع يسترد ضياعه ويستدرك فواته ويتدارك قواه).

العابد هو العامل بمقتضى العلم النافع للعمل الصالح فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح فهو يسترد ضياعه بأمثاله ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعل أمثالها من جنسها وغير جنسها فيقضي ما ينفع فيه القضاء ويعوض ما يقبل العوض ويجبر ما يمكن جبره.

وقوله: (ويستدرك فواته) الفرق بين استرداد ضائعه واستدراك فائته أن الأول يمكن أن يُستردَّ بعينه كما إذا فاته الحج في عام تمكّن منه فأضاعه في ذلك العام استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أخر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها ونحو ذلك.

وأما الفائت فإنما يستدرك بنظيره كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته أو يكون مراده باسترداد الضائع واستدراك الفائت نوعي التفريط في الأمر

والنهي فيسترد ضائع هذا بقضائه وفعل أمثاله ويستدرك فائت هذا أي سالفه بالتوبة والندم.

وأما (تدارك قواه) فهو أن يتدارك قوته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف فهو يغار عليها أن تذهب في غير طاعة الله ويتدارك قوى العمل الذي لحقه الفتور عنه بأن يكسوه قوة ونشاطاً غيرة له عليه فهذا غيرة العباد على الأعمال والله أعلم.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية غيرة المريد وهي غيرة على وقت فات وهي غيرة قاتلة فإن الوقت وَحِيُّ التقضِّي أبِيُّ الجانب بَطِيُّ الرجوع) والمريدون هم أرباب الأحوال والعبّاد أرباب الأوراد والعبادات وكل مريد عابد. وكل عابد مريد لكن القوم خصوا أهل المحبة وأذواق حقائق الإيمان باسم المريد وخصوا أصحاب العمل المجرد باسم العابد وكل مريد لا يكون عابداً فزنديق. وكل عابد لا يكون مريداً فمراء.

والوقت عند العابد هو وقت العبادة والأوراد وعند المريد هو وقت الإقبال على الله والجمعية عليه والعكوف عليه بالقلب كله. والوقت أعز شيء عليه يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه كما في المسند مرفوعاً «من أفطر يوماً من رمضان متعمداً من غير عذر لم يقضه عنه صيام الدهر وإن صامه» وقوله: (وهي غيرة قاتلة) يعني مضرة ضرراً شديداً بيناً يشبه القتل لأن حَسْرة الفوت قاتلة ولا سيما إذا علم المتحسر أنه لا سبيل له إلى الاستدراك. وأيضاً فالغيرة على التفويت تفويت آخر كما يقال الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر ولذلك يقال الوقت سيف إن لم تقطعه وإلا قطعك.

ثم بين الشيخ السبب في كون هذه الغيرة قاتلة فقال: (فإن الوقت وحي التقضي) أي سريع الانقضاء كما تقول العرب: الوحا الوحا. العَجَلَ العجل والوَحْيُ الإعلام في خفاء وسرعة. ويقال: جاء فلان وَحِيّاً أي مجيئاً سريعاً

فالوقت منقضٍ بذاته ومنصرم بنفسه فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته وعظم فواته واشتدت حسراته فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع وطلب الرُّجْعَى فحيل بينه وبين الاسترجاع وطلب تناول الفائت وكيف يرد الأمس في اليوم الجديد [٣٤ : ٥٢] ﴿**وأنَّى لهم التناوش من مكان بعيد**﴾ ومُنع مما يحبه ويرتضيه وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

فيا حسرات ما إلى رَدِّ مثلها سبيل ولو رُدَّتْ لهان التحسر
هي الشهوات اللاء كانت تحولت إلى حسرات حين عزَّ التصبر
فلو أنها رُدَّت بصبر وقوة تَحَوَّلنَ لَذَّات وذو اللب يبصر

ويقال: إن أصعب الأحوال المنقطعة انقطاع الأنفاس فإن أربابها إذا صعد النفَس الواحد صَعَّدوه إلى نحو محبوبهم صاعداً إليه متلبساً بمحبته والشوق إليه فإن أرادوا دفعه لم يدفعوه حتى يتبعوه نفساً آخر مثله فكل أنفاسهم بالله وإلى الله متلبسة بمحبته والشوق إليه والأنس به فلا يفوتهم نَفَس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم وكثير منهم يرى في نومه أنه كذلك لالتباس روحه وقلبه فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته ولا تستنكر هذه الحال فإن المحبة إذا غلبت على القلب وملكته أوجبت له ذلك لا محالة.

والمقصود أن الواردات سريعة الزوال تمر أسرع من السحاب وينقضي الوقت بما فيه فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك فإنه عائد عليك لا محالة لهذا يقال للسعداء: [٦٨ : ٢٤] ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية**﴾ ويقال للأشقياء: [٤٠ : ٧٥] ﴿**ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون**﴾.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة غيرة العارف على عين غطَّاها غيْنٌ وسِرٍّ غَشِيَهُ رَيْن ونفس علق برجاء أو التفت إلى عطاء) أي يغار على بصيرة غطاها ستر أو حجاب فإن الغين بمنزلة الغطاء والحجاب وهو غطاء رقيق جداً وفوقه الغَيم وهو لعموم المؤمنين وفوقه الرين والران وهو للكفار وقوله: (وسر غشيه رين)

أي حجاب أغلظ من الغيم الأول و(السر) ههنا إما اللطفية المدركة من الروح وإما الحال التي بين العبد وبين الله عز وجل فإذا غشيه رين النفس والطبيعة استغاث صاحبه كما يستغيث المعذب في عذابه غيرة على سره من ذلك الرين وقوله (ونفس علق برجاء والتفت إلى عطاء) يعني أن صاحب النفس يغار على نفسَه إذا تعلق برجاء من ثواب منفصل ولم يتعلق بإرادة الله ومحبته فإن بين النفسين كما بين متعلقهما وكذلك قوله: (أو التفت إلى عطاء) يعني أنه يلتفت إلى عطاء من دون الله فيرضى به ولا ينبغي أن يتعلق إلا بالله ولا يلتفت إلا إلى المعطي الغني الحميد وهو الله وحده والله أعلم.

## فصل
## منزلة الشوق

قال الله تعالى: [٢٩ : ٥] ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجلَ الله لآتٍ﴾ قيل هذا تعزية للمشتاقين وتسلية لهم أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليَّ فقد أجَّلتُ له أجلاً يكون عن قريب فإنه آت لا محالة وكل آتٍ قريب. وفيه لطيفة أخرى وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء.

لولا التعلل بالسرجاء لقُطِّعت نفس المحب صبابة وتشوقا
ولقد يكاد يذوب منه قلبه مما يقاسي حسرة وتحرقا
حتى إذا رَوْحُ الرجاء أصابه سكن الحريقُ إذا تعلل باللقا

وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك».

## فصل

الشوق أثر من آثار المحبة وحكم من أحكامها فإنه سَفَر القلب إلى المحبوب في كل حال. وقيل: هو اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب. وقيل هو احتراق الأحشاء ومنها يتهيج ويتولد ويُلهِب القلوب ويقطع الأكباد.

قال الجنيد: سمعت السري يقول: الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه وإذا تحقق في الشوق لَهَا عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه وعلى هذا

فأهل الجنة دائماً في شوق إلى الله مع قربهم منه ورؤيتهم له.

وقيل: إن أهل الشوق إلى لقاء الله يَتَحَسَّون حلاوة القرب عند وروده لما قد كشف لهم من روح الوصول أحلى من الشّهد فهم في سكراته في أعظم لذة وحلاوة وقيل: من اشتاق إلى الله اشتاق إليه كل شيء.

وكانت عجوز مُغيبة فقدم غائبها من السفر ففرح به أهله وأقاربه وقعدت هي تبكي فقيل لها ما يبكيك فقالت: ذكَّرني قدومُ هذا الفتى يومَ القدوم على الله عز وجل.

يا من شكا شوقه من طول فرقته اصبر لعلك تلقَى من تُحِبُّ غدا

## فصل

قال: (وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى شوق العابد إلى الجنة. ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل) يعني شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث: أحدها: حصول الأمن الباعث على الأمل فإن الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه لا ينبعث صاحبه لعمل ألبتة إن لم يقارنه أمل فإن تجرد عنه قُطع وصار قنوطاً. الثاني: فرح الحزين فإن الحزن المجرد أيضاً إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه فلولا روح الفرح لتعطلت قوى الحزين وقعد حزنه به ولكن إذا قعد به الحزن قام به روح الفرح. الثالث: روح الظفر فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر مات أمله والله أعلم.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية شوق إلى الله عز وجل، زرعه الحب الذي يَنْبُت على حافات المنن فعلق قلبه بصفاته المقدسة فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وأعلام فضله وهذا شوق تغشاه المبارُّ. وتخالجه المسارُّ. ويقاومه الاصطبار) الشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة فإن أطيب ما في الجنة قربه تعالى ورؤيته وسماع كلامه ورضاه. نعم الشوق إلى مجرد الأكل والشرب والحور العين في الجنة ناقص جداً بالنسبة إلى شوق المحبين إلى الله تعالى بل لا نسبة له إليه ألبتة وهذا الشوق درجتان إحداهما شوق زرعه

الحب الـذي سببه الإحسـان والمنة وهـو الذي قـال فيـه (ينبت على حـافـات المنَنِ) فسببه مطالعة منة الله تعـالى وإحسانـه ونعمه وقـد تقدم بيـان ذلك في منـزلـة المحبـة وتبين أن محبـة الأسمـاء والصفـات أكمـل وأقـوى من محبــة الإحسان والآلاء. وفي قوله: (تنبت على حافات المنن) أي جوانبه إشارة إلى عـدم تمكنها وقـوتها وأنهـا من نبات الحـافات التي هي جـوانب المنن لا من نبات الأسماء والصفات وقوله: (فعلق قلبه بصفاته المقدسـة) يعني الصفات المختصة بالمنن والإحسان كالبرِّ والمنان والمحسن والجواد والمعطي والغفور ونحوها وقوله: (المقدسة) يعني المطهرة المنزهة عن تأويل المحـرفين وتشبيه الممثلين وتعـطيل المعـطلين. وإنما قلنـا: إن مراده هـذه الصفـات الخـاصـة لـوجهين أحدهمـا أن تعلق القلب بالصفـات العامـة إنمـا يكـون في الـدرجـة الثالثة. الثاني: أنه جعل ثمرة هذا التعلق شوق العبد إلى معاينـة لطائف كـرم الرب ومننه وإحسانه وآيات بره وهي علامات بره بالعبد وإحسانـه إليه وكـذلك أعلام فضله وهو ما يُفْضِل عليـه به ويفضله بـه على غيره قـوله: (وهـذا شوق تغشاه المبار) يعني أنه شوق معلول ليس خالصاً لذات المحبوب بـل لما ينـال منـه من المبار فقـد غشيته أي أدركتـه المبار. قـوله: (وتخـالجه المسـار) أي تجاذبه فإن المخالجة هي المجاذبة فإذا خالط هذا الشوق الفرح كان ممزوجـاً بنوع من الحظ. وقوله: (ويقاومه الاصطبار) أي أن صاحبه يقوى على الصبـر فيقاوم صبرُه شوقَه ولا يغلبه بخلاف الشوق في الدرجة الثالثة.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة نار أضـرمها صفـو المحبة فنغصت العيش وسَلَبت السلوة ولم يُنَهْنهَهَا مَعْـزىًدون اللقـاء) يريـد أن الشوق في هـذه المرتبـة شبيه بالنار التي أضرمها صفو المحبة وهو خالصها وشبه بالنار لالتهـابه في الأحشـاء وفي قوله: (صفـو المحبة) إشـارة إلى أنها محبـة لم تكن لأجل المنـة والنعم ولكن محبـة متعلقـة بـالـذات والصفــات قـولــه (فنغصت العيش) أي منعت صـاحبها السكـون إلى لذيـذ العيش والتنغيص قـريب من التكـديـر. قـولـه: (وسلبت السلوة) أي نهبت السلو وأخذته قهراً.

و(السلوة) هي الخلاص من كرب المحبة وإلقاء حملها عن الظهر والإعراض عن المحبوب تناسياً. وقوله: (ينهنهها معْزىً دون اللقاء) أي لم يَكُفَّها ويردها قرار دون لقاء المحبوب وهذه لا يقاومها الاصطبار لأنه لا يكفها دون لقاء من يحب قرار.

## فصل
## منزلة الوجد

ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» وقد استشهد صاحب المنازل بقوله تعالى في أهل الكهف: [١٨ : ١٤] **﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلٰهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾** وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق وذاقوا حلاوته وباشر قلوبهم فقاموا من بين قومهم وقالوا: **﴿ربنا رب السموات والأرض﴾** الآية والربط على قلوبهم يتضمن الشدَّ عليها بالصبر والتثبيت وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب عكس الخذلان. فالخذلان حَلُّه من رباط التوفيق فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه ويصير أمره فرطاً. والربط على القلب شده برباط التوفيق فيتصل بذكر ربه ويتبع مرضاته ويجتمع عليه شمله فلهذا استشهد عليه بهذه الآية في مقام الوجد.

### الوجد

وهو ثمرة أعمال القلوب من الحب في الله والبغض فيه كما جعله النبي ﷺ ثمرة كون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما وثمرة الحب فيه

وكراهة عـوده في الكفر كمـا يكره أن يقـذف في النار فهـذا الوجـد ثمرة هـذه الأعمال القلبية التي هي الحب في الله والبغض في الله.

مرتبة الوجود وهي أعلى ذروة مقام الإحسان فمن مقـام الإحسان يـرقى إليه فإنـه إذا غلب على قلبه مشـاهدة معبـوده حتى كأنـه يراه وتمكن في ذلـك صار له ملكة أخمدت أحكام نفسه وتبـدل بها أحكـاماً أخـر وطبيعة ثـانية حتى كأنه أنشىء نشأة أخرى غيـر نشأتـه الأولى وولد ولاداً جـديداً وممـا يذكـر عن المسيح عليه السلام أنه قال: (يا بني إسرائيل لن تلجوا ملكوت السمـاء حتى تولدوا مرتين) سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يذكـر ذلك. ويفسـره بـأن الولادة نـوعـان أحـدهمـا هـذه المعـروفـة والثـانيـة ولادة القلب والـروح وخروجهما من مشيمة النفس وظلمة الطبع قال وهذه الـولادة لما كـانت بسبب الـرسول كـان كالأب للمؤمنين وقـد قرأ أبي بن كعب رضي الله عنـه: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم**﴾ قـال ومعنى هذه الآيـة والقراءة في قوله تعالى: ﴿**وأزواجه أمهاتهم**﴾ إذ ثبوت أمـومة أزواجـه لهم فرع عن ثبـوت أبوته، قال: فالشيخ والمعلم والمؤدب أب الروح. والوالد أبو الجسم.

ويقـال في الحب (وَجْد) وفي الغضب (موجدة) وفي الـظفـر (وجـدان ووجـود) قـولـه: (ويسلبـه من رق المـاء والـطين) أي يعتقـه ويحـرره من رق الـطبيعـة والجسم المـركب من المـاء والـطين إلى رق رب العـالمين فخـادم الجسم الشقي بخدمته عبد الماء والطين كما قيل:

يـا خادم الجسم كم تشقى بخـدمته      فـأنت بـالـروح لا بـالجسم إنســان

والناس في هذا المقام ثلاثة: عبد محض. وحـر محض. ومكاتب قـد أدى بعض كتابته وهو يسعى في بقية الأداء. فالعبد المحض عبدالماء والـطين الذي قد استعبدته نفسه وشهوته وملكته وقهرته فانقاد لها انقياد العبد إلى سيده الحاكم عليه. والحر المحض هو الذي قهر شهوته ونفسه وملكها فانقادت معه وذلت له ودخلت تحت رقه وحكمه.

والمكاتب من قد عقد له سبب الحرية وهـو يسعى في كمالهـا فهو عبـد من وجه حر من وجـه وبالبقيـة التي بقيت عليه من الأداء يكـون عبداً مـا بقي

عليه درهم فهو عبد ما بقي عليه حظ من حظوظ نفسه. فالحر من تخلص من رق الماء والطين وفاز بعبودية رب العالمين فاجتمعت له العبودية والحرية فعبوديته من كمال حريته وحريته من كمال عبوديته.

## فصل

قال: (الدرجة الثانية برق يلمع من جانب الوعيد في عين الحذر فيستقصر فيه العبد الطويلَ من الأمل) فإذا شام هذا البرق استقصر فيه الطويل من الأمل وتخيل في كل وقت أن المنية تعافصه وتفاجئه فاشتد حذره من هجومها مخافة أن تحل به عقوبة الله ويحال بينه وبين الاستعتاب والتأهب للقاء فيلقى ربه قبل التطهر التام فلا يؤذن له بالدخول عليه بغير طهارة كما أنه لم يؤذن له في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة بغير طهارة. وهذا يُذكِّر العباد بالتطهر للموافاة والقدوم عليه والدخول وقت اللقاء لمن عقل عن الله وفهم أسرار العبادات فإذا كان العبد لا يدخل عليه حتى يستقبل بيته المحرم بوجهه ويستر عورته ويطهر بدنه وثيابه وموضع مقامه بين يديه ثم يخلص له النية فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء لا يحصل إلا بأن يستقبل ربه بقلبه كله ويستر عوراته الباطنة بلباس التقوى ويطهر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظاهرة والباطنة ويتطهر لله طهراً كاملاً ويتأهب للدخول أكمل تأهب وأوقات الصلاة نظير وقت الموافاة. فإذا تأهب العبد قبل الوقت جاءه الوقت وهو متأهب فيدخل على الله وإذا فرط في التأهب خيف عليه من خروج الوقت قبل التأهب إذ هجوم وقت الموافاة مُضَيَّق لا يقبل التوسعة فلا يمكَّن العبد من التطهر والتأهب عند هجوم الوقت بل يقال له هيهات فات ما فات وقد بعدت بينك وبين الطهر المسافات فمن شام برق الوعيد بقصر الأمل لم يزل على طهارة.

## فصل

قال: (الدرجة الثالثة: برق يلمع من جانب اللطف في عين الافتقار فينشىء سحابَ السرور. ويمطر مطر الطرب. ويجري من نهر الافتخار) هذا

البرق يلمع من أفق ملاطفة الرب تعالى لعبده بأنواع الملاطفات ومطلع هذا البرق في عين الافتخار الذي هو باب السلوك إلى الله تعالى والطريق الأعظم الذي لا يدخل عليه إلا منه وكل طريق سواه فمسدود ومع هذا فلا يصل العبد منه إلا بالمتابعة فلا طريق إلى الله ألبتة أبداً ولو تَعَنَّى المتعنون وتمنى المتمنون. إلا الافتقار ومتابعة الرسول فقط فلا يتعب السالك نفسه في غير هذه الطريق فإنه على غير شيء وهو صيد الوحوش والسباع قوله: (فينشىء سحاب السرور) أي ينشىء للعبد سروراً خاصاً وفرحاً بربه لا عهد له بمثله ولا نظير له في الدنيا ونفحة من نعيم الجنة ونسمة من ريح شمالهم فإذا نشأ له ذلك السحاب أمطر عليه صَيِّب الطرب فطرب باطنه وسره لما ورد عليه من عند سيده ووليه وإذا اشتد ذلك الطرب جرى به نهر الافتخار يتميز به عن أبناء جنسه بما خصه الله به.

وإما إن يريد به افتخاره على الشيطان وهذه مخيلة محمودة طرباً وافتخاراً عليه فإن الله لا يكره ذلك ولهذا يحب المختال بين الصفين عند الحرب لما في ذلك من مراغمة أعدائه. ويحب الخيلاء عند الصدقة كما جاء ذلك مصرحاً به في الحديث لسرٍ عجيب يعرفه أولو الصدقات والبذل من نفوسهم عند ارتياحهم للعطاء وابتهاجهم به واختيالهم على النفس الشحيحة الأمارة بالبخل وعلى الشيطان المزين لها ذلك.

وهم ينفدون المال في أول الغنى ... ويستأنفون الصبر في آخر الصبر
مغاوير للعليا مغابير للحِمَى ... مفاريج للغُمَّى مداريك للوتر
وتأخذهم في ساعة الجود هزَّة ... كما تأخذ المطراب عن نزوة الخمر

فهذا الافتخار من تمام العبودية. أو يريد به أن حريٌّ بالافتخار بما تميز به ولم يفتخر به إبقاء على عبوديته وافتقاره وكلا المعنيين صحيح والله أعلم وسر ذلك أن العبد إذا لاحظ ما هو فيه من الألطاف وشهده من عين المنة ومحض الجود شهد مع ذلك فقره إليه في كل لحظة وعدم استغنائه عنه طرفة عين فكان ذلك من أعظم أبواب الشكر وأسباب المزيد وتوالي النعم عليه وكلما توالت عليه النعم أنشأت في قلبه سحائب السرور وإذا انبسطت هذه

السحائب في سماء قلبه وامتلأ بها أفقه أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور فإن لم يصبه وابل فَطَلٌّ وحينئذ يجري على لسانه وظاهره نهر الافتخار من غير عُجب ولا فخر بل فرحاً بفضل الله ورحمته كما قال تعالى: [١٠ : ٥٨] ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا**﴾ فالافتخار على ظاهره والافتقار والانكسار في باطنه ولا ينافي أحدهما الآخر. وتأمل قول النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» فكيف أخبر بفضل الله ومنته عليه وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخاراً به على من دونه ولكن إظهاراً لنعمة الله عليه وإعلاماً للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله وعلو منزلته لديه لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز: [١٢ : ٥٥] ﴿**اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾ فإخباره عن نفسه بذلك لما كان متضمناً لمصلحة تعود على العزيز وعلى الأمة وعلى نفسه كان حسناً إذ لم يقصد به الفخر عليهم فمصدر الكلمة والحامل عليها يُحَسِّنها ويُهَجِّنها وصورته واحدة.

## فصل
## منزلة الذوق

والذوق مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن بل ولا في لغة العرب قال الله تعالى: [٣ : ١٨١] ﴿**وذوقوا عذاب الحريق**﴾ وقال تعالى: [٣ : ١٠٦] ﴿**فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ وقال تعالى: [٣٨ : ٥٧] ﴿**هذا فليذوقوه حميم وغَسَّاق**﴾ وقال تعالى: [١٦ : ١١٢] ﴿**فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾ فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس ليدل على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله. فأفاد الإخبار عن إذاقته أنه واقع مباشر غير منتظر فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر وأفاد الإخبار عن لباسه أنه محيط شامل كاللباس للبدن وفي الصحيح عنه ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً» فأخبر أن للإيمان طعماً وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة

الإيمان والإحسان وحصوله للقلب ومباشرته له بالذوق تارة وبالطعام والشراب تارة وبوجود الحلاوة تارة كما قال: «ذاق طعم الإيمان» وقال: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» ولما نهاهم عن الوصال قالوا: إنك تواصل قال: «إني لست كهيئتكم إني أطعمَ وأسْقَى» وفي لفظ: «إني أظلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني» وفي لفظ: «إن لي مطعماً يطعمني وساقياً يسقيني» وقد غلظ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم ولو كان كما ظنه هذا الظان لما كان صائماً فضلاً عن أن يكون مواصلاً ولما صح جوابه بقوله: (إني لست كهيئتكم) فأجاب بالفرق بينه وبينهم ولو كان يأكل ويشرب بفيه الكريم حساً لكان الجواب أن يقول وأنا لست أواصل أيضاً فلما أقرهم على قولهم إنك تواصل عُلم أنه ﷺ كان يمسك عن الطعام والشراب ويكتفي بذلك الطعام والشراب العالي الروحاني الذي يغني عن الطعام والشراب المشترك الحسي.

وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل على صحة النبوة حيث قال لأبي سفيان فهل يرتد أحد منهم سَخَطة لدينه فقال: لا قال: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب. فاستدل بما يحصل لأتباعه من ذوق الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب لم يسخطه ذلك القلب أبداً على أنه دعوة نبوة ورسالة لا دعوى ملك ورياسة. والمقصود أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان أمر يجده القلب تكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم وذوق حلاوة الجماع إلى إلفة النفس كما قال النبي ﷺ: «حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد ولا تزول الشبه والشكوك عن القلب إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحال فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة فيذوق طعمه ويجد حلاوته والله الموفق.

والمقصود أن ذوق طعم الإيمان بوعد الله يمنع الذائق أن يحبسه ظن عن الجد في الطلب والسير إلى ربه وفي حديث: (سيد الاستغفار قوله وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت) أي مقيم على التصديق بوعدك وعلى القيام

بعهدك بحسب استطاعتي والحامل على هذه الإقامة والثبات ذوق طعم الإيمان ومباشرته للقلب ولو كان الإيمان مجازاً لا حقيقة لم يثبت القلب على حكم الوعد والوفاء بالعهد ولا يفيد في هذا المقام إلا ذوق طعم الإيمان وثوب العارية لا يجمل لابسه لا سيما إذا عرف الناس أنه ليس له وأنه عارية عليه كما قيل:

ثوب الرياء يشف عما تحته ... فإذا اشتملت به فإنك عاري

وكان بعض الصحابة يكثر التلبية في إحرامه ثم يقول: لبيك لو كان رياء لاضمحل. وقد نفى الله تعالى الإيمان عمن ادعاه وليس له فيه ذوق فقال تعالى: [٤٩ : ١٤] **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** فهؤلاء مسلمون وليسوا بمؤمنين لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه فذاق حلاوته وطعمه وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام وليس هؤلاء كفاراً فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله: **﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾** ولم يرد قولوا بألسنتكم من غير مواطأة القلب فإنه فرق بين قولهم: آمنا. وقولهم: أسلمنا. ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان قال: **﴿لم تؤمنوا﴾** ووعدهم سبحانه وتعالى مع ذلك على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئاً.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه وهم الذين آمنوا به وبرسوله ثم لم يرتابوا في إيمانهم وإنما انتفى عنهم الريب لأن الإيمان قد باشر قلوبهم وخالطتها بشاشته فلم يبق للريب فيه موضع وصَدَّق ذلك الذوق. بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى وهو أموالهم وأنفسهم ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان ووجود حلاوته فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد كما قال الحسن ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. فالذوق والوجد أمر باطن والعمل دليل عليه ومصدق له كما أن الريب والشك والنفاق أمر باطن والعمل دليل عليه ومصدق له فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد فاليقين يثمر الجهاد ومقامات الإحسان فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته والريب والشك يثمر الأعمال المناسبة له وبالله التوفيق.

قوله: (ولا يقطعه أمل) أي من علامات الذوق أن لا يقطع صاحبه عن طلبه أمر دنيا وطمع في غرض من أغراضها فإن الأمل والطمع يقطعان طريق القلب في سيره إلى مطلوبه. ولم يقل الشيخ أنه لا يكون له أمل بل قال لا يقطعه أمل فإن الأمل إذا قام به ولم يقطعه لم يضره وإن عوق سيره بعض التعويق وإنما البلاء في الأمل القاطع للقلب عن سيره إلى الله فإنه من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب منه والأنس به لم يكن له أمل في غيره وإن تعلق أمله بسواه فهو لإعانته على مرضاته ومحابه فهو يؤمله لأجله لا يؤمله معه. فإن قلت فما الذي يقطع به العبد هذا الأمل قلت: قوة رغبته في المطلب الأعلى الذي ليس شيء أعلى منه ومعرفته بخسة ما يؤمَّل دونه وسرعة ذهابه فيوشك انقطاعه وأنه في الحقيقة كخيال طيف أو سحابة صيف فهو ظل زائل ونجم قد تدلَّى للغروب فهو عن قريب آفل. قال النبي ﷺ: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكبٍ قالَ في ظل شجرة ثم راح وتركها» وقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ إصبعه في اليَّمِ فلينظر بم ترجع» فشبه الدنيا في جنب الآخرة بما يعلق على الإصبع من البلل حين تغمس في البحر. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل ثم جاءه الموت لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء. وقال مطرف بن عبدالله أو غيره نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا. ومن حَدَّقَ عين بصيرته في الدنيا والآخرة علم أن الأمر كذلك. فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول ولا يضمحل فضلاً عن أن يقطعه عن طلب مَن نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته والأنس به والفرح بقربه كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة قال الله تعالى: [٩:٧٢] ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر**﴾ فيسير من رضوانه ـ ولا يقال له يسير ـ أكبر من الجنات وما فيها وفي حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه» وفي حديث آخر: «إنهم إذا رأوه سبحانه لم يلتفتوا إلى شيء مما فيه من النعيم حتى يتوارى عنهم» فمن قطعه عن هذا

أمـل فقد فـاز بالحـرمان ورضي لنفسـه بغايـة الخسران والله المستعـان وعليـه التكلان. وما شاء الله كان.

قوله: (ولا تعوقه أمنية) الأمنية هي ما يتمناه العبد من الحظوظ وجمعهـا أماني والفرق بينهـا وبين الأمل أن الأمـل يتعلق بما يـرجى وجوده والأمنيـة قد تتعلق بما لا يرجى حصوله كما يتمنى العاجز المراتب العالية والأمـاني الباطلة هي رؤوس أموال المفاليس بها يقطعون أوقاتهم ويلتـذون بها كـالتذاذ من زال عقله بالمسكر أو بالخيالات الباطلة.

وفي الحديث المرفـوع: «الكَيِّس مَنْ دَانَ نفسه وعمـل لما بعـد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتَمَنَّى على الله الأماني» ولا يرضى بـالأماني عن الحقائق إلا ذوو النفوس الدنيئة الساقطة كما قيل:

واترك مُنَى النفس لا تحسبه يشبعهـا      إن المنَى رأس أمـوال المفـاليس

وأمنية الرجـل تدل على علو همتـه وخستها وفي أثـر إلٰهي (إني لا أنظر إلى كـلام الحكيم وإنما أنـظر إلى همته) والعـامة تقـول قيمة كـل امـرىء مـا يحسنه والعارفون يقولون: قيمة كل امرىء ما يطلب.

قـوله: (فـلا يعلق به شـاغـل) أي لا يتعلق بـه شيء يشغله عن سلوكـه وسيـره إلى الله لشـدة طلبـه البـاعث عليـه أنسـه الـذي قـد ذاق طعمـه وتلذذ بحلاوته والأنس بالله حالـة وجدانيـة وهي من مقامـات الإحسان تقـوى بثلاثـة أشياء: دوام الذكـر. وصدق المحبـة. وإحسان العمـل. وقوة الأنس وضعفـه على حسب قـوة القرب فكلمـا كان القلب من ربـه أقرب كـان أنسه بـه أقوى وكلما كان منه أبعد كانت الوحشة بينه وبين ربه أشد.

قوله: (ولا يفسـده عارض) العـارض المفسد هـو الذي يعـذل المحب ويلومـه على النشاط في رضى محبـوبه وطـاعتـه ويـدعـوه إلى الالتفـات إليـه والوقوف معه دون مطلبه العالي فهو كالذي يجيء عَرْضاً يمنع المـار في طريقـه عن المرور ويلفته عن جهة مقصده إلى غيرها.

قوله: (إلا ما يشوبـه من حذر المكـر) أي يمازجـه فإن الســرور والفرح

يبسط النفس وينميها وينسيها عيوبها وآفاتها ونقائصها إذ لو شهدت ذلك وأبصرته لشغلها ذلك عن الفرح وأيضاً فإن الفرح بالنعمة قد ينسيه المنعم فيشتغل بالخلعة التي خلعها عليه عنه فيطفح عليه السرور حتى يغيب بنعمته عنه وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للفم ولله كم هاهنا من مُسْتَرَدٍ منه ما وُهب له عزة وحكمة وربما كان ذلك رحمة به إذ لو استمر على تلك الولاية لخيف عليه من الطغيان كما قال تعالى: [٩٦: ٦] ﴿**كلا إن الإنسان لَيَطْغَى أن رآه استغنى**﴾ فإذا كان هذا غنى بالحطام الفاني فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر فصاحب هذا إن لم يصحبه حذر المكر خيف عليه أن يسلبه وينحط عنه. والمكر الذي يخاف عليه منه أن يُغَيِّب الله سبحانه عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضله وأنه محض منته عليه وأنه به وحده ومنه وحده فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى: [١٦: ٥٣] ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾ وقوله تعالى: [٣: ١٥٤] ﴿**قل إن الأمر كله لله**﴾ وقوله تعالى: [١٠: ١٠٧] ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو إن يردك بخير فلا رادَّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**﴾ وقوله: [٢٨: ٨٦] ﴿**وما كنت ترجو أن يُلقَى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك**﴾ وقوله تعالى: [٢٤: ٢١] ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء**﴾ وأمثال ذلك فيغيبه عن شهود ذلك ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذات ويحجبه عن الحوالة على الملي الوَفِيّ الذي له الغنى التام كله بالذات فهذا من أعظم أسباب المكر والله المستعان. ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر وقد خافه خيار خلقه وصفوته من عباده قال شعيب ﷺ وقد قال له قومه: [٧: ٨٨ و٨٩] ﴿**لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال: أو لو كنا كارهين. قد افترينا على الله كذباً إن عُدْنا في مِلَّتكم بعد إذ نجانا الله منها ـ إلى قوله ـ على الله توكلنا**﴾ فردَّ الأمر إلى مشيئة الله تعالى وعلمه أدباً مع الله ومعرفة بحق الربوبية ووقوفاً مع حد العبودية وكذلك قال إبراهيم ﷺ لقومه وقد خوفوه بآلهتهم فقال: [٦: ٨٠] ﴿**ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً**﴾ فرد

الأمـر إلى مشيئة الله وعلمـه وقد قـال تعالى: [٧: ٩٩] ﴿**أفـأمنوا مكـر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾.

ومـما يدل على أن الفـرح من أسباب المكـر ما لم يقـارنه خـوف قولـه تعالى: [٦: ٤٤] ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به فتحنـا عليهم أبواب كـل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخـذناهم بغتـة فإذا هم مبلسـون**﴾ وقال قـوم قارون لـه: [٢٨: ٧٦] ﴿**لا تفـرح إن الله لا يحب الفرحين**﴾ فـالفرح متى كـان بالله وبمـا مَنَّ الله به مقارناً للخوف والحذر لم يضر صاحبه ومتى خلا عن ذلك ضره ولا بد.

فالإسلام له نور. والإيمان له نـور أقوى منـه. والإحسان لـه نور أقـوى منهما فإذا اجتمع الإسلام والإيمان والإحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله تعالى امتلأ القلب والجوارح بذلك النور لا بالنور الذي هو صفة الرب تعـالى فـإن صفاتـه لا تحل في شيء من مخلوقـاته. كمـا أن مخلوقاتـه لا تحل فيـه فـالخالق سبحـانه بـائن عن المخلوق بذاتـه وصفاتـه فلا اتحـاد ولا حلول ولا ممازجة تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

قـولـه: (ويعصم من عـوار التسلي) العـوار العيب والتسلي السلوة عن المحبوب الذي لا حيـاة للقلب ولا نعيم إلا بحبه والقـرب منه والأنس بـذكره فـإن سُلُوَّ القلب وغفلته عن ذكـره هو من أعـظم العيوب فهـذه المـلاحـظة إذا صـدقت عصمت صاحبهـا عن عيب سلوته عن مـطلوبه ومـراده فإنـه في هذه الـدرجة مستغـرق في شهود الأسمـاء والصفـات وقـد استـولى على قلبـه نـور الإيمان بها ومعرفتها ودوام ذكرها ومع هذا فباب السلوة عليه مسـدود وطريقهـا عليه مقطوع. والمحب يمكنه التسلي قبل أن يشاهد جمال محبوبـه ويستغرق في شهود كماله ويغيب به عن غيره فإذا وصل إلى هذه الحال كان كما قيل:

مـــرت بـأرجـــاء الخيـــال طيـــوفـــه ... فبكـت على رسـم السـلو الـــدارس

وطريقة الأقـوياء أهـل الاستقامـة القيام بـالجمعية في التفـرقة مـا أمكن فيقوم أحدهم بالعبادات ونفع الخلق والإحسان إليهم مع جمعيته على الله فإن ضعف عن اجتماع الأمرين وضاق عن ذلك قام بالفـرائض ونزل عن الجمعيـة

ولم يلتفت إليها إذا كان لا يقدر على تحصيلها إلا بتعطيل الفرض فإن ربه سبحانه يريد منه أداء فرائضه ونفسه تريد الجمعية لما فيها من الراحة واللذة والتخلص من ألم التفرقة وشعثها فالفرائض حق ربه والجمعية حظه هو.

فالعبودية الصحيحة توجب عليه تقديم أحد الأمرين على الآخر فإذا جاء إلى النوافل وتعارض عنده الأمران فمنهم من يرجح الجمعية ومنهم من يرجح النوافل ومنهم من يؤثر هذا في وقت وهذا في وقت. والتحقيق إن شاء الله أن تلك النوافل إن كانت مصلحتها أرجح من الجمعية ولا تعوضه الجمعية عنها اشتغل بها ولو فاتت الجمعية كالدعوة إلى الله وتعليم العلم النافع وقيام وسط الليل والذكر أول الليل وآخره وقراءة القرآن بالتدبر ونفل الجهاد والإحسان إلى المضطر وإغاثة الملهوف ونحو ذلك فهذا كله مصلحته أرجح من مصلحة الجمعية.

وإن كانت مصلحته دون الجمعية كصلاة الضحى وزيارة الإخوان والغسل لحضور الجنائز وعيادة المرضى وإجابة الدعوات وزيارة القدس وضيافة الإخوان ونحو ذلك فهذا فيه تفصيل فإن قويت جمعيته فظهر تأثيرها فيه فهي أولى له وأنفع من ذلك وإن ضعفت الجمعية وقوي إخلاصه في هذه الأعمال فهي أنفع له وأفضل من الجمعية والمعول عليه في ذلك كله إيثار أحب الأمرين إلى الرب تعالى وذلك يعرف بنفع العمل وثمرته من زيادة الإيمان به وترتب الغايات الحميدة عليه وكثرة مواظبة الرسول ﷺ وشدة اعتنائه به وكثرة الوصية وإخباره أنَّ الله يحب فاعله ويباهي به الملائكة ونحو ذلك ونكتة المسألة وحرفها أن الصادق في طلبه يؤثر مرضاة ربه على حظه فإن كان رضى الله في القيام بذلك العمل وحظه في الجمعية خلَّى الجمعية تذهب وقام بما فيه رضى الله ومتى علم الله من قلبه أن تردده وتوقفه ليعلم أيَّ الأمرين أحب إلى الله وأرضى له أنشأ له من ذلك التوقف والتردد حالة شريفة فاضلة حتى لو قدم المفضول لظنه أنه الأحب إلى الله ردت تلك النية والإرادة عليه ما ذهب عليه وفاته من زيادة العمل الآخر وبالله التوفيق.

وبعد فالعبد وإن لاحظ عين الجمع ولم يغب عنها فهو سائر إلى الله ولا

ينقطع سيره إليه ما دام في قيد الحياة ولا يصل العبد ما دام حيّاً إلى الله وصولاً يستغني به عن السير إليه ألبتة وهذا عين المحال بل يشتد سيره إلى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده وأسمائه وصفاته ولهذا كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بالأعمال ومحافظة عليها إلى أن توفاه الله وهو أعظم ما كان اجتهاداً وقياماً بوظائف العبودية فلو أتى العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير إلى الله وكان بعدُ في طريق الطلب والإرادة.

وتأمل أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه فإنهم كانوا كلما ترقوا من القرب في مقام عظم جهادهم واجتهادهم لا كما ظنه بعض الملاحدة المنتسبين إلى الطريق حيث قال القرب الحقيقي تنقل العبد من الأحوال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة ويريح الجسد والجوارح من كد العمل. وهؤلاء أعظم كفراً وإلحاداً حيث عطلوا العبودية وظنوا أنهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة التي هي من أماني النفس وخدع الشيطان وكأن قائلهم إنما عنى نفسه وذوي مذهبه بقوله:

رضوا بالأماني وابْتُلُوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابْتَلُّوا
فهم في السُّرىَ لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا في السير عنه وقد كَلّوا

وقد صرح أهل الاستقامة وأئمة الطريق بكفر هؤلاء فأخرجوهم من الإسلام وقالوا: لو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة أي ما دام قادراً عليه. وهؤلاء يظنون أنهم يستغنون بهذه الحقيقة عن ظاهر الشريعة.

قوله: (وتخلص من رعونة المعارضات) قال أهل الإلحاد المراد بالمعارضات ها هنا الإنكار على الخلق فيما يبدو منهم من أحكام البشرية لأن المشاهد لعين الجمع يعلم أن مراد الله من الخلق ما هم عليه فإذا علم ذلك بحقيقة الشهودة كانت المعارضات والإنكار عليهم من رعونات الأنفس المحجوبة وقال قدوتهم في ذلك: العارف لا ينكر منكراً لاستبصاره بسر الله في القدر.

وهذا عين الاتحاد والإلحاد والانسلاخ من الدين بالكلية وقد أعاذ الله

شيخ الإسلام من ذلك وإذا كان الملحد يحمل كلام الله ورسولـه ما لا يحتمله فما الظن بكلام مخلوق مثله. فيقال: إنما بعث الله رسله وأنزل كتبه بالإنكـار على الخلق بمـا هم عليه من أحكـام البشريـة وغيرهـا فبهذا أرسلت الـرسـل وأنـزلت الكتب وانقسمت الدار إلى دار سعـادة للمنكرين ودار شقـاوة للمنكـرَ عليهم فالطعن في ذلك طعن في الرسـل والكتب والتخلص من ذلك انحـلال من ربقـة الدين ومن تـأمل أحـوال الرسـل مع أممهم وجـدهم كـانـوا قـائمين بالإنكار عليهم أشد القيام حتى لقـوا الله تعالى وأوصـوا من آمن بهم بالإنكـار على من خـالفهم وأخبر النبي ﷺ أن المتخلص من مقـامات الإنكـار الثـلاثـة ليس معه من الإيمان حبة خردل وبالغ في الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة حتى قال: «إن الناس إذا تركوه أوشك أن يعمهم الله بعقـاب من عنده» وأخبر أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيـار ويوجب تسلط الأشـرار. وأخبر أن تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه ويحـل لعنة الله كمـا لعن الله بني إسرائيل على تـركه. فكيف يكـون الإنكار من رعـونات النفـوس وهو مقصـود الشريعة وهل الجهاد إلا على أنواع الإنكار وهو جهاد باليد وجهـاد أهل العلم إنكار باللسان.

وأما قوله: (إن المشاهد أن مراد الله من الخلائق ما هم عليه) فيقال لـه الرب تعالى له مرادان كوني، وديني، فهب أن مراده الكوني منهم ما هم عليه فمراده الديني الأمري الشرعي هـو الإنكار على أصحـاب المراد الكـوني فإذا عطلت مراده الـديني لم تكن واقفاً مـع مراده الـديني الذي يحبـه ويرضـاه ولا ينفعك وقوفك مع مراده الكوني الـذي قدره وقضـاه إذ لو نفعـك ذلك لـم يكن للشرائع معنى ألبتة ولا للحدود والـزواجر ولا للعقـوبات الـدنيويـة ولا للأخـذ على أيدي الظلمة والفجار وكف عدوانهم وفجورهم فإن العارف عنـدك يشهد أن مراد الله منهم هو ذلك وفي هذا فساد الدنيـا قبل الأديـان. فهذا المـذهب الخبيث لا يصلح عليه دنيا ولا دين ولكنه رعونة نفس قد أخلدت إلى الإلحـاد وكفـرت بدين رب العبـاد واتخذت تعـطيل الشـرائـع دينـاً ومقـامـاً ووسـاوس الشيطان مسامرة وإلهامـاً وجعلت أقدار الـرب تعالى مبـطلة لما بعث بـه رسله ومعطلة لما أنزل به كتبـه وجعلوا هذا الإلحـاد غايـة المعارف الإلٰهيـة وأشرف

المقامات العلية ودعوا إلى ذلك النفوس المبطلة الجاهلة بالله ودينه فلبوا دعوتهم مسرعين واستخف الداعي منهم قومه فأطاعوه. إنهم كانوا قوماً فاسقين. وأما قوله: (إن الإنكار من معارضات النفوس المحجوبة) فلعمر الله إنهم لفي حجاب منيع من هذا الكفر والإلحاد ولكنهم يشرفون على أهله وهم في ضلالتهم يعمهون وفي كفرهم يترددون ولأتباع الرسل يحاربون وإلى خلاف طريقهم يدعون وبغير هداهم يهتدون وعن صراطهم المستقيم ناكبون ولما جاؤوا به يعارضون [٢: ٩ - ١٦] **﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون. الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾**.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل وإن أدبرت فألزموها الفرائض وفي هذه الفترات والغيوم والحجب التي تعرض للسالكين من الحكَم ما لا يعلم تفصيله إلا الله وبها يتبين الصادق من الكاذب فالكاذب ينقلب على عقبيه ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه. والصادق ينتظر الفرج ولا ييأس من روح الله ويلقي نفسه بالباب طريحاً ذليلاً مسكيناً مستكيناً كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه ألبتة ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له لا بسبب من العبد وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب لكن ليس هومنك بل هو الذي منَّ عليك به وجردك منك وأخلاك عنك وهو الذي: [٨: ٢٤] **﴿يحول بين المرء وقلبه﴾** فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام فاعلم أنه يريد أن يرحمك ويملأ إناءك فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مضيع. فسل ربه ومَنْ هو بين أصابعه أن يرده عليك ويجمع شملك به ولقد أحسن القائل:

إذا وضعت القلب في غير موضع بغير إناء فهو قلب مضيع

قال الشافعي رضي الله عنه صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين سمعتهم يقولون الوقت سيف إن قطعته وإلا قطعك. ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل. قلت: يا لهما من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته.

## فصل
## منزلة الصفاء

وقوله: (الصفاء اسم للبراءة من الكدر) البراءة هي الخلاص والكدر امتزاج الطيب بالخبيث وقوله: (وهو في هذا الباب سقوط التلوين) التلوين هو التردد والتذبذب.

فهذا العلم الصافي المتلقَّى من مشكاة الوحي والنبوة يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية. وحقيقتها التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً. وتحكيمه باطناً وظاهراً. والوقوف معه حيث وقف بك. والمسير معه حيث سار بك. فتجعل رسول الله ﷺ لك شيخاً وإماماً وقدوة وحاكماً وتعلق قلبك بقلبه الكريم فتجيبه إذا دعاك وتقف معه إذا استوقفك وتسير إذا سار بك وتقيل إذا قال وتنزل إذا نزل وتغضب لغضبه وترضى لرضاه وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك وبالجملة فتجعل الرسول شيخك وأستاذك ومعلمك ومربيك ومؤدبك وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسِل في العبودية ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك. وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. والله وحده هو المعبود المألوه الذي لا يستحق العبادة سواه. ورسوله المطاع المتبع المهتدى به الذي لا يستحق الطاعة سواه. ومن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته فيطاع تبعاً للأصل وبالجملة فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ واقتدى به في ظاهره وباطنه. فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق فليس حظه من سلوكه إلا التعب وأعماله

[٢٤ : ٣٩] ﴿**كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب**﴾ ولا يتعنى السالك على هذا الطريق فإنه واصل ولو زحف زحفاً فأتباع الرسول ﷺ إذا قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم كما قيل:

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً وتجي في الأول

والمنحرفون عن طريقه إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم قعد بهم عدولهم عن طريقه:

فهم في السُّرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا في السير عنه وقد كلُّوا

وقوله: (ويصحح همة القاصد) أي ويصحح له صفاء هذا العلم همته ومتى صحت الهمة علت وارتفعت فإن سقوطها ودناءتها من علتها وسقمها وإلا فهي كالنار تطلب الصعود والارتفاع ما لم تمنع. وأعلى الهمم همة اتصلت بالحق سبحانه طلباً وقصداً وأوصلت الخلق إليه دعوة ونصحاً وهذه همة الرسل وأتباعهم وصحتها بتمييزها من انقسام طلبها وانقسام مطلوبها وانقسام طريقها بل توحد مطلوبها بالإخلاص وطلبها بالصدق وطريقها بالسلوك خلف الدليل الذي نصبه الله دليلاً لا مَنْ نصبه هو دليلاً لنفسه. ولله الهمم ما أعجب شأنها وأشد تفاوتها فهمة متعلقة بمن فوق العرش. وهمة حائمة حول الأنتان والحُشّ.

وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ: «سلني» فقال: أسألك مرافقتك في الجنة وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه أو يواري جلده وانظر إلى همة رسول الله ﷺ حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه تعالى فأبت له تلك الهمة العالية أن يتعلق منها بشيء مما سوى الله ومحابه وعرض عليه أن يتصرف بالملك فأباه واختار التصرف بالعبودية المحضة فلا إله إلا الله خالق هذه الهمة وخالق نفس تحملها وخالق همم لا تعدو همم أخس الحيوانات.

قوله: (يدرج حظ العبودية في حق الربوبية) المعنى الصحيح الذي

يحمل عليه هذا الكلام أن من تمكن في قلبه شهود الأسماء والصفات وصفاً له عمله وحاله اندرج عمله جميعه وأضعافه وأضعاف أضعافه في حق ربه تعالى ورآه في جنب حقه أقل من خردلة بالنسبة إلى جبال الدنيا فسقط من قلبه اقتضاء حظه من المجازاة عليه لاحتقاره له وقلته عنده وصغره في عينه. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا صالح عن أبي عمران الجَوْني عن أبي الجلد أن الله تعالى أوحى إلى داود (يا داود أنذر عبادي الصادقين فلا يُعْجبُنَّ بأنفسهم ولا يَتّكِلنَّ على أعمالهم فإنه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب وأقيم عليه عدلي إلا عذبته من غير أن أظلمه وبشر عبادي الخطائين أنه لا يتعاظمني ذنب أن أغفره وأتجاوز عنه).

وقال الإمام أحمد: وحدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا ثابت البناني قال: تعبد رجل سبعين سنة وكان يقول في دعائه: رب أجِزْني بعملي فمات فأدخل الجنة فكان فيها سبعين عاماً فلما فرغ وقته قيل له اخرج فقد استوفيت عملك فقلَّب أمره أي شيء كان في الدنيا أوثق في نفسه فلم يجد شيئاً أوثق في نفسه من دعاء الله والرغبة إليه فأقبل يقول في دعائه رب سمعتك وأنا في الدنيا وأنت تقيل العثرات فأقِل اليوم عَثْرتي فترك في الجنة.

وقال أحمد بن حنبل حدثنا هاشم حدثنا صالح عن أبي عمران الجوني عن أبي الجد قال: قال موسى: (إلٰهي كيف أشكرك وأصْغَرُ نعمة وضعتَها عندي من نعمتك لا يجازيها عملي كله) فأوحى الله تعالى إليه: (يا موسى الآن شكرتني) فهذا المعنى الصحيح من اندراج حظ العبودية في حق الربوبية. وله محمل آخر صحيح أيضاً وهو أن ذات العبد وصفاته وأفعاله وقواه وحركاته كلها مفعولة للرب مملوكة له ليس يملك العبد منها شيئاً بل هو محض ملك الله فهو المالك لها المنعم على عبده بإعطائه إياها فالمال ماله والعبد عبده والخدمة مستحقة عليه بحق الربوبية وهي من فضل الله عليه فالفضل كله لله ومن الله وبالله.

## فصل

باب السرور قال الله تعالى: [١٠:٥٨] ﴿**قل بفضل الله وبرحمته**

**فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾** تصدير الباب بهذه الآية في غاية الحسن فإن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم محسن بَرٍّ يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه أولى وأحرى قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم فضل الله الإسلام ورحمته القرآن فجعلوا رحمته أخص من فضله فإن فضله الخاص عام على أهل الإسلام ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض فجعلهم مسلمين بفضله وأنزل إليهم كتابه برحمته قال تعالى: [٢٨ : ٨٦] **﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾** وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله. قلت: يريد بذلك أن ههنا أمرين أحدهما الفضل بنفسه. والثاني استعداد المحل لقبوله كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات فيتم المقصود بالفضل وقبول المحل له والله أعلم.

وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله: [١٠ : ٨٥] **﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾** ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة فأخبر سبحانه أن ما آتى عباده من الموعظة التي هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب وشفاء الصدور المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغي والسفه وهو أشد ألماً لها من أدواء البدن ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا فهناك يحضره كل مؤلم محزن وما آتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين وطمأنينة القلب به وسكون النفس إليه وحياة الروح به والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذة وتدفع عنها كل شر مؤلم فذلك خير من كل ما يجمع النَاسُ من أعراض الدنيا وزينتها أي هذا هو الذي ينبغي أن يُفْرَح به ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به لا ما يجمع أهل الدنيا منها فإنه ليس بموضع للفرح لأنه عرضة للآفات ووشيك الزوال ووخيم العاقبة وهو طيف خيال زار الصب في المنام ثم انقضى المنام وولى الطيف وأعقب مزاره الهجران.

والفرح صفة كمال ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها واليأس من حصولها.

والمقصود أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته والفرح والسرور نعيمه والهم والحزن عذابه والفرح بالشيء فوق الرضى به فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح والفرح لذة وبهجة وسرور فكل فَرِحٍ راضٍ وليس كل راض فرحاً ولهذا كان الفرح ضد الحزن والرضى ضد السخط والحزن يؤلم صاحبه والسخط لا يؤلمه إلا إن كان مع العجز عن الانتقام والله أعلم.

## فصل

السرور اسم لاستبشار جامع وهو أصفى من الفرح لأن الأفراح ربما شابها الأحزان ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدنيا في مواضع وورد السرور في موضعين من القرآن في حال الآخرة.

وأما الاستبشار فهو استفعال من البُشْرىَ. والبشارة هي أول خير صادق سار. والبشرى يراد بها أمران أحدهما بشارة المخبِر. والثاني سرور المخبَر قال الله تعالى: [١٠: ٦٤] ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ فُسِّرت البشرى بهذا وهذا ففي حديث عبادة بن الصامت وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له» وقال ابن عباس بشرى الحياة الدنيا هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله تُزَفُّ كما تزف العروس يبشر برضوان الله.

وقال الحسن: هي الجنة واختاره الزجاج والفراء وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن يجري له على ألسنة الناس وكل ذلك صحيح فالثناء من البشرى والرؤيا الصالحة من البشرى وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى والجنة من أعظم البشرى قال الله تعالى: [٢: ٢٥] ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ وقال

تعالى: [٤١: ٣٠] ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ قيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر في بَشَرة الوجه ولذلك كانت نوعين: بشرى سارة: تؤثر فيه نَضارة وبهجة. وبشرى محزنة: تؤثر فيه بسوراً وعبوساً ولكن إذا أطلقت كانت للسرور وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

قال: (وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى سرور ذوق ذهب بثلاثة أحزان: حزن أورثه خوف الانقطاع. وحزن هاجته ظلمة الجهل. وحزن بعثته وحشة التفرق) الحزن الأول حزن أورثه خوف الانقطاع وهذا حزن المتخلفين عن ركب المحبين ووفد المحبة فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة هذا الركب وهذا الوفد وهم الذين [٩: ٤٧] ﴿كره الله انْبِعاثهم فَثَبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ فثبط عزائمهم وهممهم أن تسير إليه وإلى جنته وأمر قلوبهم أمراً كونياً قَدَرياً أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعي إلى محابه فلو عاينتَ قلوبهم حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد وقد غمرتها الهموم وعقدت عليها سحائب البلاء فأحضرت كل حزن وغم وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها وقد غابت عنها المسرات ونابت عنها الأحزان لعلمت أن الأبرار في هذه الدار في نعيم وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم. وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان فيذيق الصديق طعم الوعد الذي وعد به على لسان الرسول فلا يعقله ظن ولا يقطعه أمل ولا تعوقه أمنية كما تقدم فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالى: [٢٨: ٦١] ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ وقوله تعالى: [٣٥: ٥] ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وقوله تعالى: [٢: ٢٢٣] ﴿وقَدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾ وأمثال هذه الآيات.

قوله: (وحزن هاجته ظلمة الجهل) وهذا الحزن الثاني الذي يذهب سرور الذوق هو حزن ظلمة الجهل والجهل نوعان: جهل علم ومعرفة وهو مراد الشيخ ها هنا. وجهلِ عملٍ وغَيٍّ وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب وكما أن العلم يوجب نوراً وأنساً فضده يوجب ظلمة ويوقع وحشة وقد سمى الله سبحانه وتعالى العلم الذي بعث به رسله نوراً وهدى وحياة وسمى ضده

ظلمة وموتاً وضلالاً قال الله تعالى: [٢: ٢٥٧] ﴿**الله وَلِيُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾ وقال تعالى: [٦: ١٢٢] ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾ وقال تعالى: [٥: ١٥ و١٦] ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾ وقال تعالى: [٤: ١٧٤] ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً**﴾ وقال تعالى: [٧: ١٥٧] ﴿**فالذين آمنوا به وعَزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون**﴾ وقال تعالى: [٤٢: ٥٢] ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾ فجعله روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح ونوراً لما يحصل به من الهدى والرشاد. ومَثَّلَ هذا النور في قلب المؤمن [٢٤: ٣٥] ﴿**كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء**﴾ ومَثَّلَ حال مَنْ فقد هذا النور بمن هو في [٢٤: ٤٠] ﴿**ظلمات في بحر لُجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**﴾ الحزن الثالث حزن بعثته وحشة التفرق وهو تفرق الهم والقلب عن الله عز وجل ولهذا التفرق حزن مُمِضٌّ على فوات جمعية القلب على الله ولذتها ونعيمها فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل لم يكن لها نسبة إلى لذة جمعية قلبه على الله وفرحه به وأنسه بقربه وشوقه إلى لقائه وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك ولله در القائل:

| | |
|---|---|
| أيا صاحبي أما ترى نارهم | فقال تريني ما لا أرى |
| سقاك الغرام ولم يسقني | فأبصرتَ ما لم أكن مبصرا |

فلو لم يكن في التفرق المذكور إلا ألم الوحشة ونكد التشتت وغبار

الشعث لكفى بـه عقـوبـة فكيف وأقـل عقـوبتـه أن يبتلى بصحبـة المنقـطعين ومعاشرتهم وخدمتهم فتصير أوقاته التي هي مادة حياته ولا قيمة لهـا مستغرقـة في قضاء حوائجهم ونيل أغراضهم وهذه عقوبة قلب ذاق حلاوة الإقبـال على الله والجمعية عليه والأنس به ثم آثر على ذلك سواه ورضي بطريقة بني جنسه وما هم عليه ومن له أدنى حياة في قلبه ونور فإنه يستغيث قلبه من وحشة هـذا التفرق كما تستغيث الحامل عند ولادتها ففي القلب شعث لا يَلُمـه إلا الإقبال على الله وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته. وفيه حزن لا يـذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتمـاع عليه والفـرار منه إليه. وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقـة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه. وفيه طلب شديـد لا يقف دون أن يكون هـو وحده مطلوبه. وفيه فاقة لا يسدها إلا محبتـه والإنابـة إليه ودوام ذكـره وصدق الإخلاص له ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقـة منه أبـداً. فالتفـرق يوقع وحشة الحجاب وألمه أشد من ألم العـذاب قال الله تعـالى: [٨٣: ١٥ - ١٦] **﴿كـلا إنهم عن ربهم يومئـذ لمحجوبـون. ثم إنهم لصـالـو الجحيم﴾** فاجتمع عليهم عذاب الحجاب وعذاب الجحيم.

قـوله: (ولم يُشَـرْ إليهم بالأصـابع) يـريد أنهم لخفـائهم عن النـاس لم يعـرفوا بينهم حتى يشيـروا إليهم بالأصـابع وفي الحـديث المعروف عن النبي ﷺ: «لكل عامل شرَّة[1] ولكل شرة فَتْرة فإنْ صـاحبُها سَـدَّد وقارب فـأرجو لـه وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه شيئاً» فسئل راوي الحديث عن معنى أشيـر إليه بالأصابع: فقال: هو المبتدع في دينه الفاجر في دنياه.

وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل فإن الناس إنما يشيرون بالأصابع إلى من يأتيهم بشيء فبعضهم يعرفه وبعضهم لا يعرفه فإذا مَرَّ أشار من يعـرفه إلى من لا يعرفه: هذا فلان. وهذا قد يكون ذماً له وقد يكون مدحاً فمن كان معـروفاً بـاجتهاد وعبـادة وزهد وانقـطاع عن الخلق ثم انحط عن ذلك وعـاد إلى حال أهل الدنيا والشهوات فإذا مر بـالناس أشـاروا إليه وقـال: هذا كـان على طريق

---

(١) الشرة: النشاط والرغبة والاجتهاد.

كذا وكذا ثم فُتِنَ وانقلب فهذا الذي قال في الحديث عنه: فلا تعدوه شيئاً لأنه انقلب على عقبيه ورجع بعد الشرة إلى أسوأ فترة.

وقد يكون الرجل منهمكاً في الدنيا ولذاتها ثم يوقظه الله لآخرته فيترك ما هو فيه ويقبل على شأنه فإذا مر أشار الناس إليه بالأصابع وقالوا: هذا كان مفتوناً ثم تداركه الله فهذا كانت شِرَّته في المعاصي ثم صارت بالطاعات والأول كانت شِرَّته في الطاعات ثم فترت وعادت إلى البدعة والفجور. وبالجملة فالإشارة بالأصابع إلى الرجل علامة خير وشر ومورد هلاكه ونجاته والله سبحانه الموفق.

قوله: (أولئك ذخائر الله حيث كانوا) ذخائر الملك ما يخبأ عنده ويَذْخره لمهماته ولا يبذله لكل أحد. وكذلك ذخيرة الرجل ما يَذْخَره لحوائجه ومهماته. وهؤلاء لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم غير مشار إليهم ولا متميزين برسم دون الناس ولا منتسبين إلى اسم طريق أو مذهب أو شيخ أو زِيٍّ، كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيد بها ولزوم الطرق الاصطلاحية والأوضاع المتداولة الحادثة هذه هي التي قطعت أكثر الخلق عن الله وهم لا يشعرون والعجب أن أهلها هم المعروفون بالطلب والإرادة والسير إلى الله. وهم: إلا الواحد بعد الواحد المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود وقد سئل بعض الأئمة عن السنة فقال: ما لا اسم له سوى السنة. يعني: أن أهل السنة ليس لهم اسم ينسبون إليه سواها.

فمن الناس من يتقيد بلباس لا يلبس غيره أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره أو مشية لا يمشي غيرها أو بزي وهيئة لا يخرج عنهما أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها وإن كانت أعلى منها أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى مصدودون عنه قد قيدتهم العوائد والرسوم والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المتابعة فأضحوا عنها بمعزل ومنزلتهم منها أبعد منزل فترى أحدهم يتعبد بالرياضة والخلوة وتفريغ القلب ويعد العلم قاطعاً له

عن الطريق فإذا ذكر له الموالاة في الله والمعاداة فيه والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر عَدَّ ذلك فضولاً وشـراً وإذا رأوا بينهم من يقوم بـذلك أخـرجوه من بينهم وعدوه غَيْراً عليهم فهؤلاء أبعد الناس عن الله وإن كانوا أكثـر إشارة والله أعلم.

قال بعضهم: التصوف ترك الدعاوي وكتمان المعاني وسئل الحارث بن أسد عن علامات الصادق فقـال: أن لا يبالي أن يخـرج كل قـدر له في قلوب الخلق من أجـل صلاح قلبـه ولا يحب اطلاع النـاس على اليسيـر من عمله. وهذا يحمد في حال ويذم في حال ويحسن في رجل ويقبـح من آخر فيحمـد إذا أظهر ما يجوز إظهاره ولا نقص عليـه فيه ولا ذم من الله ورسـوله ليكتم بـه حـاله وعمله كمـا إذا أظهر الغنى وكتم الفقـر والفـاقـة. وأظهـر الصحـة وكتم المرض وأظهر النعمة وكتم البلية فهذا كله من كنوز الستر وله في القلب تـأثير عجيب يعرفه من ذاقه. وشكى رجل إلى الأحنف بن قيس شكاة فقال: يـا بـن أخي قد ذهب ضوء بصري من عشرين سنة فما أخبرت به أحداً. وأما الحـال التي يُذَمُّ فيها فأن يظهر ما لا يجوز إظهاره ليسيء به الناسُ الـظن فلا يعـظموه كمـا يذكـر عن بعضهم أنه دخـل الحمام ثم خـرج وسَرق ثيـاب رجـل ومشى رويداً حتى أدركوه فأخذوها منه وسبوه فهذا حرام لا يحل تعاطيه. ويقبح أيضاً من المتبـوع المقتدىَ بـه ذلك بـل وما هـو دونه لأنـه يغر النـاس ويوقعهم في التأسي بما يظهره من سوء.

قوله: (ووَرُّوا بأمروهم لغيره) التورية أن يذكـر لفظاً يفهم بـه المخاطب معنى وهو يريد غيره مثـاله أن يقـول أحدهم أنـا غني فيوهم المخـاطب له أنه غني بالشيء ومراده غني بالله عنه كما قيل:

غنيت بـــلا مـــال عن النـــاس كلهم وإن الغنى العـالي عن الشيء لا بـه

وأن يقول ما صح لي مقام التـوبة بعـد ويريـد ما صحت لي التـوبة عن رؤية التوبة ونحو ذلك.

قوله: (وظـرف يهذبهم) التهـذيب هو التـأديب والتصفية فمـا قرن شيء إلى شيء أحسن من ظُرْف إلى صدق وإخـلاص وسِرٍّ مـع الله وجمعية عليـه.

فإذا تمكن العبد في حاله وصار له إقبال على الله وجمعية عليه ملكةً ومقاماً راسخاً أنس بالخلق وأنسوا به وانبسط إليهم وحملهم على ضَلَعهم وبطء سيرهم فعكفت القلوب على محبته للطفه وظرفه فإن الناس ينفرون من الكثيف ولو بلغ في الدين ما بلغ ولله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب ويدفع عن صاحبه من الشر ويسهل له ما توعَّر على غيره فليس الثقلاء بخواص الأولياء وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة ولطافة وظرفاً فترى الصادق فيها من أحلى الناس وألطفهم وأظرفهم قد زالت عنه ثقالة النفس وكدورة الطبع وصار روحانياً سمائياً بعد أن كان حيوانياً أرضياً فتراه أكرم الناس عشرة وألينهم عريكة وألطفهم قلباً وروحاً وهذه خاصة المحبة فإنها تلطف وتظرف وتنظف.

ومن ظرف أهل هذه الطبقة أن لا يظهر أحدهم على جليسه بحال ولا مقام ولا يواجهه إذا لقيه بالحال بل بلين الجانب وخفض الجناح وطلاقة الوجه فيفرش له بساط الأنس ويجلسه عليه فهو أحب إليه من الفُرُش الوثيرة.

## فصل

وأهل هذه الطبقة أثقل شيء عليهم البحث عما جريات الناس وطلب تعرف أحوالهم وأثقل ما على قلوبهم سماعها فهم مشغولون عنها بشأنهم فإذا اشتغلوا بما لا يعنيهم منها فاتَهُم ما هو أعظم عناية لهم وإذا عَدَّ غيرهم الاشتغال بذلك وسماعه من باب الظرف والأدب وسَتْرِ الأحوال كان هذا من خِدَع النفوس وتلبيسها فإنه يَحُطُّ الهمم العالية من أَوْجِها إلى حضيضها وربما يعز عليه أن يحصل همة أخرى يصعد بها إلى موضعه الذي كان فيه فأهل الهمم والفطن الثاقبة لا يفتحون من آذانهم وقلوبهم طريقاً إلى ذلك إلا ما تقاضاه الأمر وكانت مصلحته أرجح وما عداه فبطالة وحط رتبة انتهى.

وأيضاً فإن الطبيعة والنفس لم يموتا ولم يعدما بالكلية ولولا ذلك لما قام سوق الامتحان والتكليف في هذا العالم بل قهراً بسلطان العلم والمعرفة والإيمان والمحبة والمقهور المغلوب لا بد أن يتحرك أحياناً وإن قَلَّت ولكن حركة أسير مقهور بعد أن كانت حركته حركة أمير مسلط فمن تمام إحسان

الرب إلى عبده وتعريفه قدر نعمته أن أراه في الأعيان ما كان حاكماً عليه قاهراً له وقد تقاضى ما كان يتقاضاه منه أولاً فحينئذ يستغيث العبد بربه ووليه ومالك أمره كله يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك.

وأيضاً فإنه يزيل من قلبه آفة الركون إلى نفسه أو عمله أو حاله كما قيل: إن ركنت إلى العلم أنسيناكه. وإن ركنت إلى الحال سلبناك إياه. وإن ركنت إلى المعرفة حجبناها عنك. وإن ركنت إلى قلبك أفسدناه عليك فلا يركن العبد إلى شيء سوى الله ألبتة ومتى وجد من قلبه ركوناً إلى غيره فليعلم أنه قد أحيل على مفلس بل معدم وأنه قد فتح له الباب مكراً فليحذر ولوجه والله المستعان انتهى.

## فصل
## باب الغربة

قال الله تعالى: [١١: ١١٦] **﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾** الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلُحون إذا فسد الناس» وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «النُّزَّاع من القبائل» وفي حديث عبدالله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ ذات يوم ونحن عنده: «طوبى للغرباء» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «ناس صالحون قليل في ناس كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم» وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبدالله عن سليمان بن هرمز عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن أحب شيء إلى الله الغرباء» قيل: ومن الغرباء؟ قال: «الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى بن مريم عليه السلام

يـوم القيامـة» وفي حديث آخـر: «بدأ الإسـلام غريبـاً وسيعود غـريباً كمـا بدأ فطوبى للغرباء» قيل: ومن الغرباء يـا رسول الله؟ قـال: «الذين يحيـون سنتي ويعلمونها الناس» وقال نافع عن مالك دخل عمر بن الخـطاب المسجد فـوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي ﷺ وهو يبكي فقال له عمر: مـا يبكيك يـا أبا عبدالرحمٰن هلك أخوك قال: لا ولكن حديثاً حدثنيه حبيبي ﷺوأنا في هذا المسجد فقال: ما هو قـال: «إن الله يحب الأخفياء الأصفيـاء الأتقياء الأبـرياء الـذين إذا غابـوا لم يفقدوا وإذا حضـروا لم يعرفـوا قلوبهم مصـابيـح الهـدى يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة» فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون ولقلتهم في الناس جداً سموا غربـاء فإن أكثـر الناس على غيـر هذه الصفـات فأهل الإسلام في الناس غـرباء. والمؤمنـون في أهل الإسـلام غربـاء. وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبـدع فهم غرباء. والداعون إليهـا الصابـرون على أذى المخالفين هم أشـد هؤلاء غربـة ولكن هؤلاء هم أهـل الله حقاً فـلا غربـة عليهم وإنمـا غـربتهم بين الأكثـرين الـذين قال الله عـز وجـل فيهم: [٦:١١٦] **﴿وإن تُـطِعْ أكثـر من في الأرض يُضِلوك عن سبيل الله﴾** فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه وغـربتهم هي الغربة الموحشة وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم كما قيل:

فليس غـريبـاً مـن تنـاءت ديـاره ولـكِنَّ مـن تنـأيْـنَ عـنـه غـريـب

ولما خرج موسى عليه السـلام هاربـاً من قوم فـرعون انتهى إلى مـدين على الحال التي ذكر الله تعالى وهو وحيد غريب خـائف جائـع فقال: يـا رب وحيـد مريض غـريب فقيل لـه: (يـا مـوسى الـوحيـد من ليس لـه مثلي أنيس والمـريض من ليس لـه مثلي طبيب والغـريب من ليس بيني وبينـه معـاملة) فالغربة ثلاثة أنواع غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريباً وأنه سيعود غريباً كما بدأ وأن أهله يصيرون غرباء) وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان ووقت دون وقت وبين قوم دون قوم ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقاً فإنهم لم يأووا إلى غير الله ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ ولم يـدعوا إلى غير ما جاء به وهم الذين فارقـوا الناس أحـوج ما كـانوا إليهم فـإذا انطلق

النـاس يوم القيـامة مـع آلهتهم بقوا في مكـانهم فيقال لهم ألا تنـطلقون حيث انطلق الناس فيقولون فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم وإنا ننتظر ربنـا الذي كنا نعبده. فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها بل هو آنَسُ ما يكـون إذا استوحش الناس وأشد ما تكون وحشته إذااستأنسـوا فوليـه الله ورسولـه والذين آمنـوا وإن عاداه أكثـر الناس وجفـوه. ومن هؤلاء الغربـاء من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ: «رُبَّ أشعثَ أغبر ذي طِمْرَين لا يُـؤْبَه لـه لو أقسم على الله لأبره».

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة» قالوا بلى يا رسـول الله قال: «كـل ضعيف أغْبَر ذي طمرين لا يؤبه له لـو أقسم على الله لأبره» وقـال الحسن المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها. ولا ينافس في عزهـا للناس حـال وله حـال الناس منه في راحة وهو من نفسه في تعب. ومن صفات هؤلاء الغرباء الـذين غبطهم النبي ﷺ: التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس وتـرك ما أحـدثوه وإن كان هو المعروف عندهم وتجريد التوحيد وإن أنكـر ذلك أكثـر الناس. وتـرك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده وإلى رسوله بالاتباع لمـا جاء به وحده وهؤلاء هم القـابضون على الجمـر حقاً وأكثـر الناس بـل كلهم لائم لهم فلغـربتهم بين هذا الخلق يعـدونهم أهل شـذوذ وبدعـة ومفارقـة للسـواد الأعظم.

ومعنى قـول النبي ﷺ: «هم النزاع من القبـائل» أن الله سبحـانـه بعث رسـوله وأهـلُ الأرض على أديان مختلفـة فهم بين عُبَّاد أوثـان. ونيران وعُبَّـاد صور وصلبان ويهود وصابئة وفلاسفة وكان الإسلام في أول ظهوره غريباً وكـان من أسلم منهم واستجاب لله ولرسوله غريباً في حَيِّـه وقبيلته وأهـل وعشيرتـه. فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعاً من القبائل بل آحـاداً منهم تغربـوا عن قبـائلهم وعشائـرهم ودخلوا في الإسلام فكـانوا هم الغـربـاء حقـاً حتى ظهـر الإسلام وانتشرت دعوته ودخل الناس فيه أفواجـاً فزالت تلك الغـربة عنهم ثم أخذ في الاغتراب والترحل حتى عاد غريبـاً كما بـدأ بل الإسـلام الحق الذي

كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه هو اليوم أشد غـربة منـه في أول ظهوره وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة فـالإسلام الحقيقي غـريب جداً وأهله غـرباء أشـد الغربـة بين الناس وكيف لا تكـون فِرقـة واحدة قليلة جـدّاً غريبة بيـن اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسـول فإن نفس مـا جاء بـه يضاد أهـواءهم ولذاتهم وما هم عليـه من الشبهات والبـدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم فكيف لا يكون المؤمن السـائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعـوا شُحَّهم وأعجب كل منهم برأيـه وفي سنن أبي داود والترمـذي من حديث أبي ثعلبة الخُشَني قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: [٥: ١٠٥] ﴿**يـا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهديتم**﴾ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتنـاهوا عن المنكـر حتى إذا رأيت شحّاً مـطاعاً وهـوى متبعاً ودنيـا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العـوامّ فإن من وراءكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبض على الجمـر للعامـل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله قلت: يا رسول الله أجـر خمسين منهم قال: أجر خمسين منكم» وهذا الأجـر العظيم إنمـا هو لغـربته بين النـاس والتمسك بـالسنة بين ظلمـات أهوائهم وآرائهم. فـإذا أراد المؤمن الـذي قـد رزقـه الله بصيرة في دينه وفقهـاً في سنة رسـوله وفهمـاً في كتابـه وأراه ما النـاسُ فيه من الأهـواء والبدع والضـلالات وتنكبهم عن الصراط المستقيم الـذي كـان عليـه رسول الله ﷺ وأصحابـه فإذا أراد أن يسلك هـذا الصراط فليـوطن نفسه على قـدح الجهال وأهـل البدع فيـه وطعنهم عليه وإزرائهم بـه وتنفيـر النـاس عنـه وتحذيرهم منه كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامـه ﷺ فأمـا إن دعـاهم إلى ذلك وقـدح فيما هم عليـه فهنالـك تقوم قيـامتهم ويبغـون لـه الغوائل وينصبون له الحبائل ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجله. فهـو غريب في دينه لفساد أديانهم. غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع. غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم. غريب في صلاته لسوء صـلاتهم. غريب في طـريقه لضلال وفساد طرقهم. غريب في نسبته لمخالفة نِسَبهم. غريب في معـاشرتـه

لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم. وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وآخرته لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً فهو عالم بين جهال صاحب سنة بين أهل بدع داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروفُ لديهم منكر والمنكر معروف.

## فصل

النوع الثاني من الغربة غربة مذمومة وهي غربة أهل الباطل وأهل الفجور بين أهل الحق فهي غربة بين حزب الله المفلحين. وإن كثر أهلها فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم أهل وحشة على كثرة مؤنسهم يعرفون في أهل الأرض ويخفون على أهل السماء.

## فصل

النوع الثالث: غربة مشتركة لا تحمد ولا تذم وهي الغربة عن الوطن فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء فإنها ليست لهم بدار مقام ولا هي الدار التي خلقوا لها وقد قال النبي ﷺ لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وهكذا هو في نفس الأمر لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه حق المعرفة ولي من أبيات في هذا المعنى:

وحَيَّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيَّم
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونُسَلِّم
وأيّ اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تَحَكَّم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشَطَّت به أوطانه ليس يَنْعَم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة ... من العمر إلا بعدما يتألم

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريباً وهو على جناح سفر لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور فهو مسافر في صورة قاعد وقد قيل:

وما هذه الأيام إلا مراحل ... يَحُثُّ بها داع إلى الموت قاصد
وأعجب شيء لو تأملتَ أنها ... منازل تطوى والمسافر قاعد

# فصل

## باب التمكن

قال الله تعالى: [٣٠: ٦٠] ﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ وجه استدلاله بالآية في غاية الظهور وهو أن المتمكن لا يبالي بكثرة الشواغل ولا بمخالطة أصحاب الغفلات ولا بمعاشرة أهل البطالات بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه واستخفاهم له ولهذا قال تعالى: [٣٠: ٦٠] ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ فمن وفى الصبر حقه وتيقن أن وعد الله حق لم يستفزه المبطلون ولم يستخفه الذين لا يوقنون ومتى ضعف صبره ويقينه أو كلاهما استفزه هؤلاء واستخفه هؤلاء فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه فكلما ضعف ذلك منه قوي جذبهم له وكلما قوي صبره ويقينه قوي انجذابه منهم وجذبه لهم.

وقد ذكر الشيخ للتمكن ثلاثة أمور: (صحة قصد. وصحة علم، وسعة طريق) فبصحة القصد يصح سيره. وبصحة العلم تنكشف له الطريق. وبسعة الطريق يهون عليه السير. وكل طالب أمرٍ من الأمور فلا بد له من تعين مطلوبه وهو المقصود ومعرفة الطريق الموصل إليه والأخذ في السلوك فمتى فاته واحد من هذه الثلاث لم يصح طلبه ولا سيره فالأمر دائر بين مطلوب يتعين إيثاره على غيره وطلب يقوم بقصد من يقصده وطريق توصل إليه. فإذا تحقق العبد بطلب ربه وحده تعين مطلوبه. فإذا بذل جهده في طلبه صح له طلبه. فإذا تحقق باتباع أوامره واجتناب نواهيه صح له طريقه وصحة القصد والطريق موقوفة على صحة المطلوب وتعينه. فحكم القصد يُتَلَقَّى من حكم المقصود فمتى كان المقصود أهلاً للإيثار كان القصد المتعلق به كذلك فالقصد والطريق تابعان للمقصود.

وتمام العبودية أن يوافق الرسول ﷺ في مقصوده وقصده وطريقه فمقصوده الله وحده وقصده تنفيذ أوامره في نفسه وفي خلقه. وطريقة اتباع ما أوحي إليه فَصَحِبَه الصحابة رضي الله عنهم على ذلك حتى لحقوا به ثم جاء التابعون لهم بإحسان فمضوا على آثارهم ثم تفرقت الطرق بالناس فخيار الناس من وافقه في المقصود والطريق.

واعلم أن كل ما منك حجاب على مطلوبك فإن وقفت معه فأنت دون الحجاب وإن قطعته إلى تجريد المطلوب صرت فوق الحجاب فطلبك وإرادتك وتوكلك وحالك وعملك كله حجاب إن وقفت معه أو ركنت إليه وإن جاوزته إلى الذي أنت به وله وفي يديه وتحت تصرفه ومشيئته وليس لك ذرة واحدة إلا به ومنه ولم تقف مع طلبك في إرادتك فقد صرت فوق حجاب الطلب. ففي الحقيقة أنت حجاب قلبك عن ربك فإذا كشفت الحجاب عن القلب أفضى إلى الرب ووصل إلى الحضرة المقدسة.

وقولنا: (إذا كشفت الحجاب) إخبار عن محل العبودية وإلا فكشفه ليس بيدك ولا أنت الكاشف له. فإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ومن أعظم الضر حجاب القلب عن الرب وهو أعظم عذاباً من الجحيم قال تعالى: [٨٣: ١٥ و١٦] **﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالو الجحيم﴾**.

قوله: (لابساً نور الوجود) المعنى الصحيح من هذه اللفظة أن نور الوجود نور ظفره بإقبال قلبه على الله عز وجل وجمع همه عليه وفنائه بمراده عن مراد نفسه فصار واجداً لما أكثر الخلق فاقد له قد لبس قلبه نور ذلك الوجود حتى فاض على لسانه وجوارحه وحركاته وسكناته فإن نطق علاه النور وإن سكت علاه النور. وأخص من هذا أنه قد فاض على قلبه نور اليقين بالأسماء والصفات فصار لقلبه من معرفتها والإيمان بها وذوق حلاوة ذلك نور خاص غير مجرد نور العبادة والإرادة والسلوك وإياك أن تلتفت إلى غير هذا [١٦: ٩٤] **﴿فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾** وليس مراد الشيخ بالوجود ما يريده المتكلمون والفلاسفة ولا ما يريده الاتحادية الملاحدة وإنما مراده به الوجدان بعد الفقد كما يقال: فلان واجد وفلان فاقد والله أعلم.

## فصل
## باب المكاشفة

قال الله تعالى: [٥٣: ١٠] **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** وجه احتجاجه

بإشارة الآية أن الله سبحانه كشف لعبده ﷺ ما لم يكشفه لغيره وأطلعه على ما لم يطلع عليه غيره فحصل لقلبه الكريم من انكشاف الحقائق التي لا تخطر ببال غيره ما خصه الله به والإيحاء هو الإعلام السريع الخفي ومنه: الوحا الوحا، أي الإسراع الإسراع.

قوله: (ما أوحى) أبهمه لعظمه فإن الإبهام قد يقع للتعظيم ونظيره قوله تعالى: [٢٠: ٧٨] ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ أي أمر عظيم فوق الصفة.

المكاشفة الصحيحة علوم يحدثها الرب سبحانه وتعالى في قلب العبد ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره وقد يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها ويواريها عنه: بالغَيْن الذي يغشى قلبه وهو أرق الحجب أو بالغيم وهو أغلظ منه أو بالران وهو أشدها. فالأول يقع للأنبياء عليهم السلام كما قال النبي ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة» والثاني يكون للمؤمنين. والثالث: لمن غلبت عليه الشقوة قال الله تعالى: [٨٣: ١٤] ﴿كلا بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ قال ابن عباس وغيره هو الذنب بعد الذنب يُغَطِّي القلب حتى يصير كالران عليه والحجب عشرة: حجاب التعطيل ونفي حقائق الأسماء والصفات وهو أغلظها فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ولا يصل إليه ألبتة إلا كما يتهيأ للحجرَ أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القولية كحجاب أهل الأهواء والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العملية كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد والفخر والخيلاء ونحوها.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة وحجابهم أرق من حجاب

إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة مع كثرة عبادتهم وزهاداتهم واجتهاداتهم فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة فأهل الكبائر الظاهرة أدنى إلى السلامة منهم وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى تحول بينه وبين هذا الشأن وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى. فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب ألبتة. وهذه الأربعة العناصر تفسد القول والعمل والقصد والطريق بحسب غلبتها وقلتها فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون فإن حاربهم وخَلَص العملُ إلى قلبه دار فيه وطلب النفوذ من هناك إلى الله فإنه لا يستقر دون الوصول إليه [٥٣:٤٢] ﴿**وأن إلى ربك المنتهى**﴾ فإذا وصل إلى الله سبحانه أثابه عليه مزيداً في إيمانه ويقينه ومعرفته وعقله وَجَمَّلَ به ظاهره وباطنه فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال وصرف عنه به سيء الأخلاق والأعمال وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جنداً يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه فيحارب الدنيا بالزهد فيها وإخراجها من قلبه ولا يضره أن تكون في يده وبيته ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة. ويحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه. ويحارب

الهوى بتحكيم الأمر المطلق والوقوف معه بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص. هذا كله إذا وجد العمل منفذاً من القلب إلى الرب سبحانه وتعالى وإن دار فيه ولم يجد منفذاً وَثَبَتْ عليه النفس فأخذته وصيرته جنداً لها فصالت به وَعَلَتْ وطغت فتراه أزهد ما يكون وأعبد ما يكون وأشده اجتهاداً وهو أبعد ما يكون عن الله وأصحاب الكبائر أقرب قلوباً إلى الله منه وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص. فانظر إلى السجاد العباد الزاهد الذي بين عينيه أثر السجود[1] كيف أورثه طغيان عمله أن أنكر على النبي ﷺ. وأورث أصحابه احتقار المسلمين حتى سلوا عليهم سيوفهم واستباحوا دماءهم. وانظر إلى الشريب السكير الذي كان كثيراً ما يؤتى به إلى النبي ﷺ فيحده على الشراب كيف قامت به قوة إيمانه ويقينه ومحبته لله ورسوله وتواضعه وانكساره لله حتى نهى رسول الله ﷺ عن لعنته. فظهر بهذا أن طغيان المعاصي أسلم عاقبته من طغيان الطاعات. وقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد أن الله سبحانه أوحى إلى موسى ﷺ: (يا موسى أنذر الصديقين فإني لا أضع عدلي على أحد إلا عذبته من غير أن أظلمه. وبشر الخطائين فإنه لا يتعاظمني ذنب أن أغفره).

## فصل
## باب المشاهدة

قال الله تعالى: [٥٠:٣٧] ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾.

قلت جعل الله سبحانه كلاه ذكرى لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة:

أحدها: أن يكون له قلب حي واعٍ فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

---

(١) هو ذو الخويصرة التميمي الخارجي وهو الذي قاد الخوارج يوم النهروان لحرب علي رضي الله عنه.

الثاني: أن يصغي بسمعه فيميله كله نحو المخاطب فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له وهو: الشهيد، أي الحاضر غير الغائب فإن غاب قلبه وسافر في موضع آخر لم ينتفع بالخطاب وهذا كما أن المبصِر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة وحدّق بها نحو المرئي ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك فإن فقد القوة المبصرة أو لم يحدّق نحو المرئي أو حدّق نحوه ولكن قلبه كله في موضع آخر لم يدركه فكثيراً ما يمر بك إنسان أو غيره وقلبك مشغول بغيره فلا تشعر بمروره فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره وكمال الإصغاء.

فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها وقلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها وسرعة انقضائها ويرى أهلها وعشاقها صرعى حولها قد بدعت بهم[1] وعذبتهم بأنواع العذاب وأذاقتهم أمرَّ الشراب أضحكتهم قليلاً وأبكتهم طويلاً سقتهم كؤوس سمها بعد كؤوس خمرها فسكروا بحبها وماتوا بهجرها فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها ترحل قلبه عنها وسافر في طلب الدار الآخرة وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها وأنها هي الحيوان حقاً فأهلها لا يرتحلون منها ولا يظعنون عنها بل هي دار القرار ومحط الرحال ومنتهى السير وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدُكم إصبعه في اليمّ فلينظر بِمَ ترجع» وقال بعض التابعين ما الدنيا في الآخرة إلا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا.

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار وتوقدها واضطرامها وبُعد قَعْرها وشدة حرها وعظيم عذاب أهلها فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سُودَ الوجوه زُرق العيون والسلاسل والأغلال في أعناقهم فلما انتهوا إليها فُتِّحت في وجوههم أبوابها فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفاً [١٨: ٥٣] **﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾**

---

(١) أخلفت ظنونهم.

فـأراهم شاهـد الإيمان وهم إليهـا يُدفعـون وأتى النداء من قبـل رب العالمين [٣٧ : ٢٤] ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولـون**﴾ ثم قيل لهم: [٥٢ : ١٤ ـ ١٦] ﴿**هـذه النـار التي كنتم بهـا تكـذبـون. أفسحـر هـذا أم أنتم لا تبصـرون. اصْلَوْهـا فـاصبروا أوْ لا تصبـروا سواء عليكم إنمـا تجزون مـا كنتم تعملون**﴾ فيراهم شـاهد الإيمـان وهم في الحميم على وجوههم يُسْحَبـون وفي النار كـالحطب يُسْجَرون [٧ : ٤١] ﴿**لهم من جهنم مِهاد ومن فوقهم غَواشٍ**﴾ فبئس اللحـاف وبئس الفراش وإن استغاثوا من شدة العطش [١٨ : ٢٩] ﴿**يغاثوا بماء كالمُهْلِ يشوي الوجوه**﴾ فإذا شـربوه قـطع أمعائهم في أجـوافهم وصَهَر مـا في بطونهم شـرابهم الحميم وطعامهم الـزقوم [٣٥ : ٣٦ و٣٧] ﴿**لا يُقْضَى عليهم فيمـوتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها كذلك نجـزي كل كفـور. وهم يَصْطَرِخـون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نُعَمِّركم ما يتذكر فيـه مَن تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير**﴾ فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الـذنوب والمعـاصي واتباع الشهـوات ولبس ثياب الخـوف والحذر وأخصب قلبه من مطر أجفانه وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه. وعلى حسب قوة هـذا الشاهـد يكون بعـده من المعاصي والمخـالفات فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات والمواد المهلكة وينضجهـا ثم يخرجهـا فيجد القلبُ لذة العافية وسرورها. فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنة وما أعد الله لأهلهـا فيهـا ممـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خـطر على قلب بشـر فضـلاً عما وصفـه الله لعباده على لسـان رسولـه من النعيم المفصـل الكفيـل بأعلى أنواع اللذة من المطاعم والمشارب والملابس والصور والبهجة والسرور فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الـدائم بحذافيـره فيها تـربتها المسـك وحَصْباؤهـا الدُّرُّ وبنـاؤها لَبِن الـذهب والفضة وَقَصب اللؤلؤ وشـرابها أحلى من العسـل وأطيب رائحـة من المسـك وأبـرد من الكـافـور وألـذ من الزنجبيل ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس ولبـاسهم الحريـر من السنـدس والإستبـرق وخـدمهم ولـدان كـاللؤلؤ المنثـور وفاكهتهم دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفُرش مرفوعة وغـذاؤهم لحم طير ممـا يشتهـون وشرابهم عليـه خمرة لا فيهـا غَوْل ولا هـم عنهـا يُنْزَفـون وخضرتهم

فاكهة مما يتخيرون وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون فهم على الأرائك متكئون وفي تلك الرياض يُحْبَرون وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون. فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهد يوم المزيد والنظر إلى وجه الرب جل جلاله وسماع كلامه منه بلا واسطة كما قال النبي ﷺ: «بينا أهلُ الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى [٣٦:٥٨] ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم» فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شمالاً. هذا وفوق ذلك شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد ويغيب به العبد عنها كلها وهو شاهد جلال الرب تعالى وجماله وكماله وعزه وسلطانه وقيوميته وعلوه فوق عرشه وتكلمه بكتبه وكلمات تكوينه وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيوماً قاهراً فوق عباده مستوياً على عرشه منفرداً بتدبير مملكته آمراً ناهياً مرسِلاً رسله ومنزلاً كتبه يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل ويحب ويغضب ويرحم إذا استُرْحِم ويغفر إذا استُغْفِر ويعطي إذا سئل ويجيب إذا دُعي ويقيل إذا استقيل أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء. وأعز من كل شيء وأقدر من كل شيء. وأعلم من كل شيء. وأحكم من كل شيء يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات فلا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين سواء عنده من أسَرَّ القول ومن جهر به فالسر عنده علانية والغيب عنده شهادة يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويرى نياط عروقها ومجاري القوت في أعضائها.

والمقصود أن العيان والكشف والمشاهدة في هذه الدار إنما تقع على الشواهد والأمثلة العلمية وهو المثل الأعلى الذي ذكره سبحانه في ثلاثة مواضع من كتابه في سورة النحل. وسورة الروم. وسورة الشورى. وهو ما يقوم بقلوب عابديه ومحبيه والمنيبين إليه من هذا الشاهد وهو الباعث لهم

على العبادة والمحبة والخشية والإنابة وتفاوتهم فيه لا ينحصر طرفاه فكل منهم له مقام معلوم لا يتعداه وأعظم الناس حظاً في ذلك معترف بأنه لايحصي ثناء عليه سبحانه وأنه فوق ما يثني عليه المثنون وفوق ما يحمده الحامدون كما قيل:

وما بلغ المهدون نحوك مدحة | وإن أطنبوا إن الذي فيك أعظم
لك الحمد كل الحمد لا مبدأ له | ولا منتهى والله بالحمد أعلم

وطهارة القلب ونزاهته من الأوصاف المذمومة والإرادات السفلية وخلوه وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه هو كرسي هذا الشاهد الذي يجلس عليه ومقعده الذي يتمكن فيه. فحرام على قلب ملوث بالخبائث والأخلاق الرديئة والصفات الذميمة متعلق بالمرادات السافلة أن يقوم به هذا الشاهد وأن يكون من أهله.

نزه فؤادك عن سوانا وائْتنا | فجنابنا حِلٌّ لكل مُنَزِّه
والظبر طِلسمْ لكنز لقائنا | مَنْ حَلّ ذا الطلسم فاز بكنزه

إذا طلعت شمس التوحيد وباشرت جوانبها الأرواح ونورها البصائر تجلت بها ظلمات النفس والطبع وتحركت بها الأرواح في طلب من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فسافر القلبُ في بيداء الأمر ونزل منازل العبودية منزلاً منزلاً فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة مقيم على معبود واحد فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه توقظه إذا رقد وتذكره إذا غَفَل وتَحدو به إذا سار وتقيمه إذا قعد. إن قام بقلبه شاهدٌ من الربوبية والقيومية رأى أن الأمر كله لله ليس لأحد معه من الأمر شيء [٣٥: ٢و٣] ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمسك لها وما يُمْسِك فلا مُرْسِل له من بعده وهو العزيز الحكيم. يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالقٍ غيرُ الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنّى تُؤْفكون**﴾ [١٠: ١٠٧] ﴿**وإن يمسَسْك الله بضُرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يُرِدْكَ بخير فلا رَادَّ لِفَضْله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**﴾ [٣٩: ٣٨] ﴿**ولئن سَألتهم من خَلق السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضُرٍّ هل**

هُنَّ كاشفاتُ ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكـات رحمته قـل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾ [٢٣ : ٨٤ ـ ٨٩] ﴿قـل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكـرون. قل من رب السمـوات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون. قل من بيـده ملكوت كُـلِّ شيء وهو يُجير ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنّى تسحرون﴾.

وإن قـام بقلبه شـاهد من الإلٰهيـة رأى في ذلـك الشـاهـد الأمـر والنهي والنبـوات والكتب والشرائـع والمحبـة والـرضى والكـراهـة والبغض والثـواب والعقاب وشاهدَ الأمر نازلاً ممن هو مستـوٍ على عرشـه وأعمالُ العبـاد صاعـدة إليه ومعروضـة عليه يَجْـزِي بالإحسـان منها في هـذه الدار وفي العقبى نَضْـرة وسروراً وَيَقْدِم إلى ما لم يكن عن أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثوراً.

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة رأى الوجود كله قـائماً بهـذه الصفة قـد وَسِـع مَنْ هي صفته كُـلَّ شيء رحمة وعلمـاً وانتهت رحمتـه إلى حيث انتهى علمه فاستوى على عرشه برحمته لتسع كل شيء كما وسع عرشه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهد العِزَّة والكبرياء والعظمة والجبروت فله شـأن آخر. وهكذا جميع شواهد الصفات فما ذكـرناه إنمـا هو أدنى تنبيـه عليها فـالكشف والعيان والمشاهدة لا تتجاوز الشواهد ألبتة.

## فصل
## باب الحياة

قال الله تعالى: [٦ : ١٢٢] ﴿أومَنْ كـان ميتاً فـأحييناه﴾ استشهـاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جداً فإن المراد بهـا من كان ميت القلب بعـدم روح العلم والهدى والإيمان فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غيـر الروح التي أحيـا بها بَدَنه وهي روح معرفته وتوحيـده ومحبته وعبـادته وحـده لا شريـك له إذ لا حياة للروح إلا بذلك وإلا فهي في جملة الأموات ولهـذا وصف الله تعالى مَنْ عَدِم ذلك بالموت فقال: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وقال تعـالى: [٢٧ : ٨٠] ﴿إنـك لا تسمع المـوتى ولا تسمع الصُّمَّ الـدعـاء﴾ وسمى وحيـه روحـاً لمـا

يحصل به من حياة القلوب والأرواح فقال تعالى: [٤٢: ٥٢] ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾ فأخبر أنه روح تحصل به الحياة وأنه نور تحصل به الإضاءة وقال تعالى: [١٦: ٢] ﴿**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**﴾ وقال تعالى: [٤٠: ١٥] ﴿**رفيع الدرجات ذو الرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لِيُنْذِر يوم التلاق**﴾ فالوحي حياة الروح كما أن الروح حياة البدن ولهذا من فقد هذه الروح فقد فَقَد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فحياته حياة البهائم وله المعيشة الضنك وأما في الآخرة فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته فقال تعالى: [١٦: ٩٧] ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضى والرزق الحسن وغير ذلك والصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة كما كان بعض العارفين يقول: إنه لَتَمُرّ بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً. وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح فإنه ملكها ولهذا جعل الله المعيشة الضَّنْك لمن أعرض عن ذكره وهي عكس الحياة الطيبة وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث أعني دار الدنيا ودار البَرْزخ ودار القرار والمعيشة الضنك أيضاً تكون في الدور الثلاث فالأبرار في النعيم هنا وهنالك. والفجار في الجحيم هنا وهنالك قال الله تعالى: [١٦: ٣٠] ﴿**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير**﴾ وقال تعالى: [١١: ٣]﴿**وأنِ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويُؤتِ كل ذي فَضْل فضله**﴾ فذكرُ الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته والإقبالُ عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة.

والمقصود أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل قالوا هو حَيُّ القلب. وحياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب. كما قال عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملو ... ك وأحبارُ سوء ورُهبانها
وباعوا النفوس ولم يربحوا ... ولم يَغْلُ في البيع أثمانها
فقد رَتَعَ القوم في جيفة ... يبين لذي اللب خسرانها

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب فحياة القلب بدوام الذكر والإنابة إلى الله وترك الذنوب والغفلة الجاثمة على القلب والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه الحياة ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت وعلامة موته أنه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. والرجل هو الذي يخاف موت قلبه لا موت بدنه إذا أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم ولا يبالون بموت قلوبهم ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية وذلك من موت القلب والروح. فإن هذه الطبيعية شبيهة بالظل الزائل والنبات السريع الجفاف والمنام الذي يخيل كأنه حقيقة فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالاً.

وقد قيل: (إن الموت موتان. موت إرادي وموت طبيعي فمن أمات نفسه موتاً إرادياً كان موته الطبيعي حياة له) ومعنى هذا أن الموت الإرادي هو قمع الشهوات المردية وإخماد نيرانها المحرقة وتسكين هوائجها المتلفة فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد ومعرفته والاشتغال به ويرى حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم أخسر الخسران. فأما إذا كانت الشهوات وافدة واللذات مُؤثَرة والعوائد غالبة والطبيعة حاكمة فالقلب حينئذ إما أن يكون أسيراً ذليلاً أو مهزوماً مُخْرَجاً عن وطنه ومستقره الذي لا قرار له إلا فيه أو قتيلاً ميتاً وما لجرح به إيلام وأحسن أحواله أن يكون في حرب يدال له فيها مرة ويدال عليه مرة فإذا مات العبد

موته الطبيعي كانت بعـده حياة روحـه بتلك العلوم النافعـة والأعمال الصـالحة والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإماتة نفسه فتكون حياته هـاهنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار. وهذا موضع لا يفهمه إلا ألبّـاء الناس وعقـلاؤهم ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العالية والنفوس الزكية الأبية.

## فصل

من مراتب الحياة حياة الفرح والسرور وقرة العين بالله وهذه الحيـاة إنما تكون بعد الظفر بالمطلوب الذي تَقَرُّ بـه عين طالبـه فلا حيـاة نافعـة له بـدونه وحول هذه الحياة يدندن الناس كلهم وكلهم قد أخطأ طـريقها وسلك طـرقاً لا تفضي إليها بل تقطعه عنها إلا أقل القليل فدار طلب الكـل حول هـذه الحياة وحُرِمَها أكثرهم وسبب حرمانها إيـاها ضعف العقـل والتمييز والبصيـرة وضعف الهمة والإرادة فإن مادتها بصيرة وقادة وهمة نقادة والبصيرة كالبصر تكون عمى وعَوراً وعَمَشاً ورمداً وتامة النور والضياء وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة في الأصل وقد تحدث فيها بـالعوارض الكسبيـة. والمقصود أن هـذه المرتبـة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها ولكن كيف يصل إليها من عقله مَسْبِيٌّ في بلاد الشهوات وأمله موقوف على اجتناء اللذات وسيرته جـارية على أسـوأ العادات ودينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات وهمته واقفة مع السفليات وعقيدتـه غير متلقاة من مشكاة النبوات. فهو في الشهـوات منغمس وفي الشبهات منتكس وعن الناصح معرض وعلى المرشد معترض وعن السراء نائم وقلبه في كل واد هائم فلو أنه تجرد من نفسه ورغب عن مشـاركة أبنـاء جنسه وخـرج من ضيق الجهـل إلى فضاء العلم ومن سجن الهـوى إلى سـاحـة الهـدى ومن نجـاسـة النفس إلى طهارة القدس لـرأى الإلف الذي نشـأ بنشأتـه وزاد بزيـادته وقـوي بقوته وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله وسد[1] قذى في عين بصيرته وشجا في حلق إيمانه ومرضاً مترامياً إلى هلاكه.

قوله في الحديث القدسي: (من ذكرني في نفسه ذكـرته في نفسي ومن

(١) هكذا بالأصول: وهي محرفة عن كلمة: وجد.

ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) وقوله: (من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً) الحديث. فالعبد لا يزال رابحاً على ربه أفضل مما قدَّم له وهذا المتقرب بقلبه وروحه وعمله يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناسُ فيه من أنواع الحياة بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها بل أعظم من ذلك.

## فصل

ومن مراتب الحياة حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه فإن من ورائه فضاء وروحاً وريحاناً وراحة نسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار أو أدنى من ذلك قال الله تعالى في هذه الحياة ﴿**فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم**﴾ [٥٦: ٨٨ و٨٩] ويكفي في طيب هذه الحياة مرافقة الرفيق الأعلى ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة فضلاً عن مخالطته وعشرته إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً في جوار الرب الرحمٰن الرحيم. فالاجتهاد في هذا العمر القصير والمدة القليلة والسعي والكدح وتحمل الأثقال والتعب والمشقة إنما هو لهذه الحياة والعلوم والأعمال وسيلة إليها وهي يقظة وما قبلها من الحياة نوم وهي عين وما قبلها أثر وهي حياة جامعة بين فقد المكروه وحصول المحبوب في مقام الإنس وحضرة القدس حيث لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب حيث الطمأنينة والراحة والبهجة والسرور حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها لأنها في بلد لا عهد لنا به ولا إلف بيننا وبين ساكنه فالنفس لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زماناً طويلاً تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد وتستوحش إذا استشعرت مفارقته وحصول هذا العلم بهذه الحياة إنما وصل إلينا بخبر إلٰهي على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم ﷺ فقامت شواهدها في قلوب أهل الإيمان حتى صارت لهم بمنزلة العيان. فواحسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على ما هما عليه وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى وما ذاك إلا بتوفيق مَنْ أزِمَّة الأمور بيده ومنه ابتداء كل شيء وانتهاؤه إليه أقعدَ

نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلى هذه الدار وجذب قلوب من سَبَقت لهم منه الحسنى وأقامهم في الطريق وسَهَّل عليهم ركوب الأخطار فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين وعُقدت الغَبرة وثار العَجاج فتوارى عنه السائرون والمتخلفون وسينجلي عن قريب فيفوز العاملون ويخسر المبطلون ومن طيب هذه الحياة ولذتها قال النبي ﷺ: «ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرها أن ترجع إلى الدنيا وأن لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد فإنه يتمنّى الرجوع إلى الدنيا لما يرى من كرامة الله له» يعني ليقتل فيه مرة أخرى.

وبالجملة من نظر في الموجودات ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة وكالظل بالنسبة إلى الشخص وسمعها كلها تنادي بما نادى به ربها وخالقها وفاطرها [٣٥ : ٥] ﴿**يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور**﴾ وتنادي بلسان الحال بما نادى به ربّها بصريح المقال [١٨ : ٤٥] ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض فأصبح هَشيماً تذروهُ الرياحُ وكان الله على كل شيء مقتدراً**﴾ وقال تعالى: [١٠ : ٢٤] ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زُخرفها وازَّيَّنتْ وظَنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**﴾ وقال تعالى: [٥٧ : ٢٠] ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غَيثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مُصْفَراً ثم يكون حُطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها فقال: [٥٧ : ٢١] ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجَنَّةٍ عرضها كعرض السماء والأرض أُعِدَّتْ للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾.

## فصل

وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء وأنهم عند ربهم يرزقون وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا وأتم وأطيب وإن كانت أجسادهم متلاشية ولحومهم متمزقة وأوصالهم متفرقة وعظامهم نَخِرة فليس العمل على الطَّلَل إنما الشأن في الساكن قال الله تعالى: [٣: ١٦٩] ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ وقال تعالى: [٢: ١٥٤] ﴿**ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون**﴾ وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم فما الظن بحياة الرسل في البرزخ ولقد أحسن القائل:

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة التي هي يقظة من نوم الدنيا أكملها وأتمها وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة وسعيه وحرصه على الظفر بها والله المستعان.

## فصل

ومن مراتب الحياة. الحياة الدائمة الباقية بعد طَيِّ هذا العالم وذهاب الدنيا وأهلها في دار الحيوان وهي الحياة التي شمر إليها المشمرون وسابق إليها المتسابقون ونافس فيها المتنافسون وهي التي أجرينا الكلام إليها ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها وهي التي يقول من فاته الاستعداد لها [٨٩: ٢١ ـ ٢٦] ﴿**إذا دكت الأرض دكاً دكاً. وجاء ربك والملك صفاً صفاً. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي. فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد**﴾ وهي التي قال الله عز وجل فيها: [٢٩: ٦٤] ﴿**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**﴾ والحياة المتقدمة كالنوم. بالنسبة إليها، وكل ما تقدم من وصف السير ومنازله وأحوال السائرين وعبوديتهم الظاهرة والباطنة فوسيلة إلى هذه الحياة وإنما الحياة الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخِل أحدُكم إصبعه

في اليم فلينظر بم ترجع» وكما قيل تنفست الآخرة فكانت الدنيا نفساً من أنفاسها فأصاب أهل السعادة نفس نعيمها فهم على هذا النفس يعملون وأصاب أهلَ الشقاوة نفس عذابها فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياة طيبة فما الظن بحياتهم في البرزخ وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها. فما الظن بحياتهم في دار النعيم المقيم الذي لا يزول وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بُكْرة وعَشِيًّا ويسمعون خطابه. فإن قلت ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التي لا خطر لها وما الذي زَهّدها فيها وما سبب رغبتها في الحياة الفانية. قيل أقوى الأسباب في ذلك ضعف الإيمان فإن الإيمان هو روح الأعمال وهو الباعث عليها والآمر بأحسنها والناهي عن أقبحها وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه وائتمار صاحبه وانتهاؤه قال الله تعالى: [٢: ٩٣] ﴿**قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين**﴾ وبالجملة فإذا قوي الإيمان قوي الشوق إلى هذه الحياة واشتد طلب صاحبه لها.

السبب الثاني: جثوم الغفلة على القلب فإن الغفلة نوم القلب ولهذا تجد كثيراً من الأيقاظ في الحس نياماً في الواقع فتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم فإن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن وكمال هذه الحياة كان لنبينا ﷺ ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منها.

والمقصود أن الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة وهي حجاب عليه فإن كُشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب واشتغال بما لا يفيد. فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاص وذنوب صغار تبعده عن الله، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب كبائر توجب مَقْتَ الرب تعالى له وغضبه ولعنته فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب بِدَع عملية يعذب العامل فيها نفسه ولا تجدي عليه شيئاً فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية تتضمن الكذب على الله ورسوله والتكذيب بالحق الذي جاء به

الرسول فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب يقدح في أصول الإيمان الخمسة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه. فلغلظ حجابه وكثافته وظلمته وسواده لا يرى حقائق الإيمان ويتمكن منه الشيطان يَعِدُه ويُمَنِّيه والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهي وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان فأسره وسجنه إن لم يهلكه.

فهذا فصل مختصر نافع في ذكر الحياة وأنواعها والتشويق إلى أشرفها وأطيبها فمن صادف من قلبه حياة انتفع به وإلا فَخُودٌ تزف إلى ضرير مقعد.

ومن باب القبض:

فالقبض نوعان: قبض في الأحوال وقبض في الحقائق فالقبض في الأحوال أمر يطرق القلب يمنعه عن الانبساط والفرح وهو نوعان أيضاً أحدهما ما يعرف سببه مثل تذكر ذنب أو تفريط أو بعد أو جفوة أو حدوث ما هو نحو ذلك. والثاني ما لا يعرف سببه بل يهجم على القلب هجوماً لا يقدر على التخلص منه وهذا هو القبض المشار إليه على ألسنة القوم وضده: البسط: فالقبض والبسط عندهم حالتان للقلب لا يكاد ينفك عنهما.

وقال أبو القاسم الجنيد في معنى القبض والبسط معنى الخوف والرجاء. فالرجاء يبسط إلى الطاعة والخوف يقبض عن المعصية. فكلهم تكلم في القبض والبسط على هذا المنهج حتى جعلوه أقساماً. قبض تأديب. وقبض تهذيب. وقبض جمع، وقبض تفريق. ولهذا يمتنع صاحبه إذا تمكن منه من الأكل والشرب والكلام وفعل الأوراد والانبساط إلى الأهل وغيرهم. فقبض التأديب يكون عقوبة على غفلة أو خاطر سوء أو فكرة رديئة. وقبض التهذيب يكون إعداد البسط عظيم شأنه يأتي بعده فيكون القبض قبله كالتنبيه عليه والمقدمة له كما كان: الغَتُّ والغَطُّ: مقدمة بين يدي الوحي وإعداداً لوروده وهكذا الشدة مقدمة بين يدي الفرج والبلاء مقدمة بين يدي العافية. والخوف الشديد مقدمة بين يدي الأمن وقد جرت سنة الله سبحانه أن هذه الأمور النافعة المحبوبة إنما يدخل إليها من أبواب أضدادها. وأما قبض الجمع فهو ما يحصل للقلب حال جمعيته على الله من انقباضه عن العالم وما

فيه فلا يبقى فيه فضل ولا سعة لغير من اجتمع قلبه عليه وفي هذه الحال مَنْ أراد من صاحبه ما يعهده منه من المؤانسة والمذاكرة فقد ظلمه. وأما قبض التفرقة فهو القبض الذي يحصل من تفرق قلبه عن الله وتشتته عنه في الشعاب والأودية فأقل عقوبته ما يجده من القبض الذي يتمنى معه الموت.

قال: (وهم على ثلاث فرق فرقة قبضهم إليه قبض التوقي فضن بهم عن أعين العالمين) هذا الحرف في: التوقي: بالقاف من الوقاية وليس من الوفاة أي سرتهم عن أعين الناس وقاية لهم وصيانة عن ملابستهم فَغَيَّبَهم عن أعين الناس فلم يطلعهم عليهم وهؤلاء هم أهل الانقطاع والعزلة عن الناس وقت فساد الزمان ولعلهم الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المرء غنماً يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواقع القطر» وقوله: «ورجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره» وهذه الحال تحمد في بعض الأماكن والأوقات دون بعضها. وإلا فالمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من هؤلاء فالعزلة في وقت تجب فيه ووقت تستحب فيه. ووقت تباح فيه. ووقت تكره فيه. ووقت تحرم فيه. ويجوز أن يكون قبض التوفي بالفاء أجسادهم وقلوبهم من بين العالمين وهم في الدنيا لكن لما لم يخالطوا الناس كانوا بمنزلة من قد تُوُفِّي وفارق الدنيا قال: (وفرقة قبضهم بسترهم في لباس التلبيس وأسبل عليهم أكِلَّة[1] الرسوم فأخفاهم عن عيون العالم) هذه الفرقة مع الناس مخالطون والناس يرون ظواهرهم وقد ستر الله حقائقهم وأحوالهم عن رؤية الخلق لها فحالهم ملتبس على الناس لا يعرفونه فإذا رأوا منهم ما يرون من أبناء الدنيا من الأكل والشرب واللباس والنكاح وطلاقة الوجه وحسن العشرة قالوا: هؤلاء من أبناء الدنيا وإذا رأوا ذلك الجدّ والهمم والصبر والصدق وحلاوة المعرفة والإيمان والذكر وشاهدوا منهم أموراً ليست من أمور أبناء الدنيا قالوا: هؤلاء من أبناء الآخرة فالتبس حالهم عليهم وهم مستورون عن الناس بأسبابهم وصنائعهم ولباسهم لم يجعلوا لطلبهم وإرادتهم إشارة تشير إليهم (اعرفوني) فهؤلاء يكونون مع الناس والمحجون لا

(١) بتشديد اللام جمع كلة وهي الستارة التي توضع على السرير أو الفراش كالخيمة وتسمى الآن ناموسية.

يعـرفونهم ولا يـرفعون بهم رؤوساً وهم من سادات أوليـاء الله صانهم الله عن معرفة الناس كرامة لهم لئلا يفتتنـوا بهم وإهانـة للجهال بهم فـلا ينتفعون بهم وهذه الفرقة بينها وبين الأولى من الفضـل ما لا يعلمـه إلا الله فهم بين الناس بأبدانهم وبين الرفيق الأعلى بقلوبهم فإذا فـارقوا هـذا العالم انتقلت أرواحهم إلى تلك الحضرة فإن روح كـل عبد تنتقـل بعد مفـارقة البـدن إلى حضرة من كان يألفهم ويحبهم فإن (المرء مع من أحبه).

قـولـه: «(وأسبـل عليهم أكِلَّة الـرسـوم) أي أجـرى عليهم أحكـام الخلق يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشـربون ويسكنـون حيث يسكنون ويمشـون معهم في الأسـواق ويعـانـون معهم الأسبـاب وهم في واد والنـاس في واد فمشاركتهم إياهم في ذلك هي التي سترتهم عن معرفتهم وعن إدراك حقائقهم فهم تحت ستور المشاركة.

| | |
|---|---|
| ووراء هــاتيـك الستـور محـجب | بـالحسن كـل العـز تحت لـوائـه |
| لـو أبصـرت عينـاك بعض جمـالـه | لبـذلت منك الـروح في إرضـائـه |
| مـا طـابت الـدنيا بغيـر حـديثـه | كـلا ولا الأخـرى بـدون لقـائـه |
| يـا خـاسـراً هـانت عليـه نفسـه | إذ بـاعهـا بـالغبن مـن أعـدائـه |
| لـو كنت تعلم قَـدْر مـا قـد بعتـه | لفسخت ذاك البيـع قبـل وفـائـه |
| أو كنت كـفُـواً للرشـاد ولـلهـدى | أبصـرت لكن لست من أكـفـائـه |

قوله: (وفرقة قبضهم منهم إليه فصافاهم مصافـاة سر فضن بهم عليهم) هـذه الفرقـة إنما كـانت أعلى من الفرقتين المتقـدمتين لأن الحق سبحانـه قد سترهم عن نفوسهم لكمـال ما أطلعهم عليـه وشغلهم به عنهم فهم في أعلى الأحـوال والمقامـات ولا التفات لهم إليهـا فهؤلاء قلوبهم معه سبحـانه لا مـع سـواه فلم يكونـوا من السوى ولا السـوى منهم بـل مـع السـوى بـالمحـاورة والامتحـان لا بالمسـاكنة والألفـة قلوبهم عامـرة بالأسـرار وأرواحهم تَحِنُّ إليه حنين الطيور إلى الأوكار قد سترهم وليهم وحبيبهم عنهم وأخذهم إليـه منهم. قوله: فصافاهم مصافـاة سر أي جعل مواجيدهم في أسرارهم وقلوبهم للطف إدراكهم فلم تظهر عليهم في ظواهرهم لقوة الاستعداد.

قـولـه: (فضن بهم عليهم) أي أخـذهم عن رسـومهم فـأفنـاهم عنهم وأبقاهم به. وقد علمت من هذا أن القبض المشار إليه في هذا الباب ليس هو القبض الذي يشير إليه القوم في البدايات والسلوك والله أعلم.

## فصل
## باب البسط

قوله: (وإنما بسطوا في ميـدان البسط) أي بسطهم الحق سبحـانه على لسان رسوله؛ لا ما يظنه الملحد: أنه السمـاع الشهي وملاحـظة المنظر البهي ورؤية الصور المستحسنات وسماع الآلات المـطربات نعم هـذا ميدان بسـطه الشيطان يقتطع به النفوس عن الميـدان الذي نصبـه الرحمٰن فميـدان الرحمٰن الذي بسطه هو الذي نصبه لأنبيائه وأوليائه وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ مـع أصحـابه وأهله ومـع الغريب والقـريب وهي سعة الصـدر ودوام البشـر وحسن الخلق والسـلام على من لقيه والـوقوف مـع من استوقفـه والمزاح بـالحق مـع الصغير والكبير أحياناً وإجـابة الـدعوة ولين الجـانب حتى يظن كـل واحد من أصحابه أنه أحبهم إليه وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجباً أو مستحباً أو مباحـاً يعين عليهما.

قوله: (فطائفة بسطت رحمة للخلق يباسطونهم ويلابسونهم فيستضيئـون بنورهم والحقائق مجموعة والسـرائر مصـونة) جعـل الله انبساطهم مـع الخلق رحمة لهم كما قال تعالى: [٣: ١٥٩] **﴿فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانْفَضُّوا من حـولك﴾** فـالرب سبحـانه بسط هؤلاء مـع خلقه ليقتـدي بهم السالـك. ويهتدي بهم الحيـران. ويُشفىَ بهم العليل ويستضـاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطبع والهوى فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا وينتفون بكلماتهم إذا نطقوا فإن حركاتهم وسكونهم لما كـانت بالله ولله على أمـر الله جذبت قلوب الصـادقين إليهم وهذا النـور الذي أضاء على الناس منهم وهو نور العلم والمعرفة.

والعلمـاء ثلاثـة: عالم استنـار بنوره واستنـار به النـاس فهذا من خلفـاء الرسل وورثة الأنبياء. وعالم استنار بنوره ولم يستنر به غيره فهـذا إن لم يفرط

كان نفعه قاصراً على نفسه فبينه وبين الأول ما بينهما. وعالم لم يستتر بنوره ولا استنار به غيره فهذا علمه وبال عليه وبسطته للناس فتنة لهم وبسطة الأول رحمة لهم.

قوله: (والحقائق مجموعة والسرائر مصونة) أي انبسطوا والحقائق التي في سرائرهم مجموعة في بواطنهم فالانبساط لم يشتت قلوبهم ولم يفرق هممهم ولم يَحُلَّ عَقْد عزائمهم.

قوله: (وسرائرهم مصونة) مستورة لم يكشفوها لمن انبسطوا إلي وإن كان البسط يقتضي الإلف وإطلاع كل من المتباسطين على سر صاحبه فإياك ثم إياك أن تطلع من باسطتَه على سرك مع الله ولكن اجذبه وشَوِّقه واحفظ وديعة الله عندك لا تعرضها للاسترجاع الخ.

## فصل

ومن أسباب السكر حب الصور وغيرها سواء كانت مباحة أو محرمة فإن الحب إذا استحكم وقوي أسكر صاحبه وهذا مشهور في أشعارهم وكلامهم كما قال الشاعر:

سُكران سكر هَوىً وسكر مُدامة ... ومتى إفاقة مَنْ به سُكران

وقال آخر من أبيات:

تسقيك من عينها خمراً ومن يدها ... خمراً فما لك من سكرين من بُدِّ

لي سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وفي المسند عن النبي ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم» أي يعمي عن رؤية مساوىء المحبوب ويُصِمُّ عن سماع العذل واللوم فيه وإذا تمكن واستمكن أعمى قلبه وأصمه بالكلية وهذا أبلغ من السكر فإذا انضم إلى سكر المحبة فرحةُ الوصالة قوي السكر وتضاعف فيخرج صاحبه عن حكم العقل وهو لا يشعر وأكثر ما نرى من عربدة العاشق وتخليطه هو من هذا السكر ولكن لما ألف الناس ذلك واشتركوا فيه لم ينكروه وإنما ينكره من كان خارجاً عنه فإذا أفاقوا بين الأموات علموا أنهم حينئذ كانوا في سكرتهم يعمهون.

## فصل

ومن أقوى أسباب السكر الموجبة له سماع الأصوات المطربة لا سيما إن كانت من صورة مستحسنة وصادفت محلاً قابلاً فلا تسأل عن سكر السامع وهذا السكر يحدث عندها من جهتين: إحداهما أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل. الثانية تحرك النفس إلى نحو محبوبها وجهته كائناً ما كان فيحصل بتلك الحركة والشوق والطلب مع التَخيُّلِ للمحبوب وإحضاره في النفس وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكر لذة عظيمة تقهر العقل فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان فتسكر الروح سكراً عجيباً أقوى من سكر الشراب.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أن الله سبحانه وتعالى يقول يوم القيامة لداود: (مجدني بذلك الصوت الذي كنت تمجدني به في الدنيا فيقول يا ربي كيف وقد أذهبته المعصية فيقول الله تعالى أنا أرده عليك فيقوم عند ساق العرش فيمجده فإذا سمع أهل الجنة صوته استفرغ نعيم أهل الجنة) وأعظم من ذلك إذا سمعوا كلام الرب جل جلاله وخطابه لهم منه إليهم بلا واسطة وقد ذكر عبدالله بن أحمد في كتاب السنة أثراً في ذلك (كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمٰن جل جلاله) فإذا انضاف إلى ذلك رؤيتهم وجهه الكريم الذي تغنيهم لذةرؤيته عن الجنة ونعيمها فأمر لا تدركه العبارة ولا قليلاً من كثير فهذا صوت لا يلج كل أذن وصَيِّب لا تحيا به كل أرض وعين لا يشرب منها كل وارد وسماع لا يطرب عليه كل سامع ومائدة لا يجلس عليها طفيلي.

قوله: (والغرق في بحر السرور والصبر هائم) أي يكون المحب غريقاً في بحر السرور ولا يفارقه السرور حتى كأنه بحر قد غرق فيه فكما أن الغريق لا يفارقه الماء كذلك المحب لا يفارقه السرور ومن ذاق مقام المحبة عرف صحة ما يقول الشيخ فإن نعيم المحبة في الدنيا رقيقة ولطيفة من نعيم الجنة في الآخرة بل هو جنة الدنيا فما طابت الدنيا إلا بمعرفة الله ومحبته ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته فنعيم المحب دائم وإن مزج بالآلام أحياناً فلو عرف

المشغـولون بغيـر الحق سبحانـه ما فيـه أهل محبتـه وذكره ومعـرفته من النعيم لتقطعت قلوبهم حسرات ولعلمـوا أنّ الذي حصلوه لا نسبـة له إلى مـا ضيعوه وحرموه.

قوله: (والصبر هائم) أي يكون غريقاً في سروره بالمحبة وصبـره مفقود والهيمان هو التشتت والحيرة.

قـوله: (ومـا سوى ذلـك فكله يناقض البصـائر كسكـر الحـرص وسكـر الجهل وسكر الشهوة) أي هذه الأنواع من السكر أنواع مذمومة تناقض البصائر فسكر الحرص ينشأ من شدة الـرغبة في الـدنيا وعـدم الزهـد فيها والحـريص عليها سكران في صورة صاح. وكذلك سكر الجهل فإن الجهل جهـلان جهل العـالم وجهل العمـل فإذا تحكم الجهـلان فلا تسـأل عن سكـر صـاحبهمـا. وكذلك سكر الشهوة فإن لها سكراً أشد من سكر الخمر وكذلك سكـر الغضب وسكر الفرح. وكذلك سكر السلطان والرئـاسة فـإن للرئاسـة سكراً وعـربدة لا تخفى. وكذلك الشباب له سكرة قوية وهي شعبة من الجنون وكذلـك الخوف له سكرة تحول بين الخائف وبين حكم العقل وآخر ذلـك سكرة المـوت التي تـأتي بـالحق [١٠ : ٢٠] ﴿**هنـالـك تبلو كـل نفس مـا أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾ انتهى.

وهـذا الوجـود من العبد لـربه يتنـوع بحسب أحوال العبـد ومقامـه فـإن التائب الصادق في توبته إذا تاب إليه وجده غفوراً رحيماً. والمتوكل إذا صدق في التوكل عليه وجده حسيباً كافياً. والداعي إذا صـدق في الرغبـة إليه وجـده قريباً مجيباً. والمحب إذا صدق في محبتـه وجده ودوداً حبيبـاً. والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به وجده كاشفاً للكرب مخلصـاً منه. والمضـطر إذا صدق في الاضـطرار إليه وجـده رحيماً مغيثـاً. والخائف إذا صـدق في اللجـاء إليـه وجده مؤمناً من الخوف. والراجي إذا صدق في الرجاء وجده عند ظنه به.

## فصل
## باب الانفصال

قال الله تعالى: [٣ : ٢٨] ﴿**ويحذركم الله نفسه**﴾ وجه الإشارة بالآية أنه

سبحانه المقرب المبعد فليحذر القريب من الأبعاد والمتصل من الانفصال فإن الحق جلا جلاله غيور لا يرضى ممن عرفه ووجد حلاوة معرفته واتصل قلبه بمحبته والأنس به وتعلقت روحه بإرادة وجهه الأعلى أن يكون له التفات إلى غيره ألبتة. ومن غيرته سبحانه حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن والله سبحانه يغار أشد الغيرة على عبده أن يلتفت إلى سواه فإذا أذاقه حلاوة محبته ولذة الشوق إليه وأُنس معرفته ثم ساكن غيره باعده من قربه وقطعه من وصله وأوحش سره وشتت قلبه ونغص عيشه وألبس رداء الذل والصغار والهوان فنادى عليه حاله إن لم يصرح به قاله هذا جزاء من تعوض عن وليه وإلٰهه وفاطره ومن لا حياة له إلا به بغيره وآثر غيره عليه فاتخذ سواه له حبيباً ورضي بغيره أنيساً واتخذ سواه ولياً قال الله تعالى: [١٨ : ٥] **﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾** فإذا ضرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب وسُلط عليه من يسومه سوء العذاب ومُلىء من الهموم والغموم والأحزان وصار محلاً للجيف والأقذار والأنتان وبُدّل بالإنس وحشة وبالعز ذلاً وبالقناعة حرصاً وبالقرب بعداً وطرداً وبالجمع شتاتاً وتفرقة كان هذا بعض جزائه فحينئذ تطرقه الطوارق والمؤلمات وتعتريه وفود الأحزان والهموم بعد وفود المسرات. إنما كان الشرك عنده ذنباً لا يغفر لتعلق قلب المشرك به وبغيره فكيف بمن تعلق قلبه كله بغيره وأعرض عنه بكليته إذا أردت أن تعرف ما حل بك من بلاء الانفصال وذل الحجاب فانظر لمن استعبد قلبك واستخدم جوارحك. وبمن شغل سرك وأين يبيت قلبك إذا أخذت مضجعك وإلى أين يطير إذا استيقظت من منامك فذلك هو معبودك وإلٰهك فإذا سمعت النداء يوم القيامة لينطلق كل واحد مع من كان يعبده انطلقت معه كائناً من كان.

والفرق بين العلم والمعرفة عند أهل هذا الشأن أن المعرفة عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله وبالطريق الموصل إلى الله وبآفاتها وقواطعها. وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة فالعارف من

عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ثم صدق الله في معاملته ثم أخلص له في قصوده ونياته ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاقه ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته ثم جرد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله ولم يَشُبها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة إذا سمي به غيره على الدعوى والاستعارة. وقال أحمد بن عاصم: من كان بالله أعرف كان له أخوف ويدل على هذا قوله تعالى: [٣٥:٢٨] ﴿**إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماء**﴾ وقول النبي ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية».

وقال آخر: من عرف الله تعالى صفا له العيش فطابت له الحياة وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله. ومن علامات العارف أنه لا يطالب ولا يخاصم ولا يعاتب ولا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له على أحد حقاً ومن علاماته أنه لا يأسف على فائت ولا يفرح بآت لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال. وقال يحيى بن معاذ يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين بكاء على نفسه وثناء على ربه وهذا من أحسن الكلام فإنه يدل على معرفته بنفسه وعيوبه وآفاته وعلى معرفته بربه وكمال وجلاله فهو شديد الإزراء على نفسه لهج بالثناء على ربه.

ومن علامات العارف أن يعتزل الخلق بينه وبين الله حتى كأنهم أموات لا يملكون له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ويعتزل نفسه بينه وبين الخلق حتى يكون بينهم بلا نفس. وقيل: العارف من أنس بالله فأوحشه من الخلق وافتقر إلى الله فأغناه عنهم وذل لله فأعزه فيهم وتواضع لله فرفعه بينهم واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

وسئل الجنيد عن العارف فقال: لون الماء لون إنائه وهذه كلمة رمز بها إلى حقيقة العبودية وهو أن يتلون بتلون أقسام العبودية فبينا تراه مصلياً إذ رأيته

ذاكراً أو قارئـاً أو معلماً أو متعلمـاً أو مجاهـداً أو حاجـاً أو مساعـداً للضيف أو مغيثاً للملهوف. فيضـرب في كل غنيمـة من الغنائم بسهم فهـو مع المتسببين متسبب ومـع المتعلمين متعلم ومـع الغـزاة غـازٍ ومـع المصلين مصـلٍ ومـع المتصدقين متصدق فهو يتنقل في منازل العبودية من عبوديـة إلى عبوديـة وهو مقيم على معبود واحد لا ينتقل إلى غيره.

وقال أبو سعيـد: المعرفـة تأتي من عين الـوجود وبـذل المجهود وهـذا كلام حسن يشير إلى أن المعرفة ثمرة بذل المجهود في الأعمال وتحقق الوجد في الأحـوال فهي ثمـرة عمـل الجـوارح وحـال القلب لا ينـال بمجـرد العلم والبحث فمن ليس له عمل ولا حال فلا معرفة له.

وقـال بعض السلف: نوم العـارف يقظة وأنفـاسه تسبيـح ونـوم العـارف أفضل من صلاة الغافل: وإنما كان نوم العارف يقظة لأن قلبه حي فعيناه تنامـان وروحه ساجدة تحت العرش بين يدي ربها وفـاطرهـا جسده في الفـرش وقلبه حول العرش. وإنما كان نومه أفضل من صلاة الغافل لأن بـدن الغافـل واقف في الصلاة وقلبه يسبح في حشوش الدنيا والأماني ولذلك كانت يقظته نوم لأن قلبه موات. وقيل: مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين. ومن الرياء إلى الإخـلاص. ومن الغفلة إلى الذكـر. ومن الرغبـة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة. ومن الكبر إلى التواضع. ومن سـوء الطويـة إلى النصيحة. انتهى.

إنه لا يستقر للعبـد قـدم في المعـرفـة بـل ولا في الإيمـان حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه فالإيمـان بالصفات وتعرّفها هو أساس الإسـلام وقاعـدة الإيمان وثمـرة شجرة الإحسـان فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمـان وثمرة شجـرة الإحسان فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان وقد جعل الله سبحانه منكر صفـاته مسيء الظن به وتوعده بما لم يتوعـد به غيـره من أهل الشـرك والكفر والكبـائر فقـال تعـالى: [٤١: ٢٢ و٢٣] **﴿وما كنتم تستتـرون أن يشهـد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً ممـا تعملون. وذلكم**

ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ فأخبر سبحانه أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به وأنه هو الذي أهلكهم وقد قال في الظانين به ظن السوء [٤٨ : ٦] ﴿عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾ ولم يجىء مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه وجحدُ صفاته وإنكار حقائق أسمائه من أعظم ظن السوء به انتهى.

اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلقَ بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العُدَّة والتأهب للقدوم على الله عز وجل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضي به ربه منه فيفعله ويتقرب به إليه وما يسخطه منه فيجتنبه وهذا عنوان صدق إرادته فإن كل من أيقن بلقاء الله وأنه سائله عن كلمتين يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعملون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لا بد أن يتنبه لطلب معرفة معبوده والطريق الموصلة إليه فإذا تمكن في ذلك فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات فلا شيء أشوق إليه من ذلك فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته وتسد عليه الأبواب التي تفرق هَمَّه وتشتت قلبه فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب ونيل الشهوات بحيث أنه إذا دخل في الصلاة ودَّ أن لا يخرج منها ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله فلا يشبع منه وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبي إذا أعطي ما هو شديد المحبة له. ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله وكمال نعوته وصفاته وحكمته ومعاني خطابه بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى يغيب فيه ويحس بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه. ثم يفتح له باب الحياء من الله وهو أول شواهد المعرفة وهو نور يقع في القلب يُريه ذلك النور أنه واقف بين يدي ربه عز وجل فيستحي منه في خلواته وجلواته. ويرزق عند ذلك دوام المراقبة للرقيب ودوام التطلع إلى حضرة

العلي الأعلى حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سماواته مستوياً على عرشه ناظراً إلى خلقه سامعاً لأصواتهم مشاهداً لبواطنهم فإذا استولى عليهم هذا الشاهد غطى عليه كثيراً من الهموم بالدنيا وما فيها فهو في وجود والناس في وجود آخر هو في وجود بين يدي ربه ووليه ناظراً إليه بقلبه والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا فهو يراهم وهم لا يرونه ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم. ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده فيشهده مالكَ الضر والنفع والخلق والرزق والإحياء والإماتة فيتخذه وحده وكيلاً ويرضى به رباً ومدبراً وكافياً وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه وصفات كماله ونعوت جلاله فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء.

والمقصود أن هذا العبد لا يزال الله يرقيه طبقاً بعد طبق ومنزلاً بعد منزل إلى أن يوصله إليه ويمكن له بين يديه أو يموت في الطريق فيقع أجره على الله فالسعيد كل السعيد والموفق كل الموفق من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالى يميناً ولا شمالاً ولا اتخذ سواه رباً ولا وكيلاً ولا حبيباً ولا مدبراً ولا حكماً ولا ناصراً ولا رازقاً.

وجميع ما تقدم من مراتب الوصول إنما هي شواهد وأمثلة إذا تجلت له الحقائق في الغيب بحسب استعداده ولطفه ورقته من حيث لا يراها ظهر من تجليها شاهد في قلبه وذلك الشاهد دال عليها ليس هو عينها فإن نور الجلال في القلب ليس هو نور ذي الجلال في الخارج فإن ذلك لا تقوم له السماوات والأرض ولو ظهر للوجود لتدكدك لكنه شاهد دال على ذلك كما أن المثل الأعلى شاهد دال على الذات. والحق وراء ذلك كله منزه عن حلول واتحاد وممازجة لخلقه الخ.

## فصل
## باب البقاء

قال الله عز وجل: [٢٠ : ٧٣] ﴿والله خير وأبقى﴾ البقاء في الآية هو بقاء الرب ودوام وجوده. وإنما ذكره مؤمنو السحرة في هذا المكان لأن عدو الله فرعون توعدهم على الإيمان بإتلاف حياتهم وإفناء ذواتهم فقالوا له: وإن فعلت ذلك فالذي آمنا به وانتقلنا من عبوديتك إلى عبوديته. ومن طلبِ رضاك والمنزلةِ عندك إلى طلب رضاه والمنزلة عنده. خير منك وأدوم. وعذابك ونعيمك ينقطع ويفرغ وعذابه هو ونعيمه وكرامته لا تنقطع ولا تبيد فكيف نؤثر المنقطع الفاني الأدنى على الباقي المستمر الأعلى. الخ.

## فصل
## باب التحقيق

قال الله تعالى: [٢ : ٢٦٠] ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ وجه تعلقه بإشارة الآية أن إبراهيم ﷺ طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى إلى رؤية تحقيقه عياناً فطلب بعد حصول العلم الذهني تحقيق الوجود الخارجي فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب ولما كان بين العلم والعيان منزلة أخرى قال النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ وإبراهيم لم يَشُكَّ ﷺ ورسول الله ﷺ لم يشك ولكن أوقع اسم الشك على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج. وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني قبل مشاهدة معلومه ظناً. قال تعالى: [٢ : ٤٦] ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ وقال تعالى: [٢ : ٢٤٩] ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو الله﴾ وهذا الظن علم جازم كما قال تعالى: [٢ : ٢٢٣] ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ لكن بين الخبر والعيان فرق وفي المسند مرفوعاً «ليس الخبر كالعيان» ولهذا لما أخبر الله موسى عليه السلام أنه قد فتن قومه وأن السامري أضلهم لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك.

والمقصــود أن القـرآن بــل وسـائــر كتب الله تضمنت تعليق الكـوائن بالأسباب والأماكن والأحـايين وتعليق المعـارف بالـوسائط والقضـايا بـالحجج والأحكام بالعلل والانتقام بالجنايات والمثوبات بالطاعات فإن كان هذا تلبيسـاً عاد الوحي والشـرع والكتب الإلهية تلبيسـاً. نعم التلبيس على من ظن أن ذلك التعليق على وجه الاستقلال بقـطع النظر عن مسبب الأسبـاب وناصب الحكم والعلل فـإن كان مراده أنه لبس الأمر على هؤلاء فلم يهتـدوا إلى الصـواب. فأبعد الله من ينتصر لهم ويذب عنهم فإنهم أضل من الأنعـام وإن كان المـراد من أثبت الأسبـاب والحكم والعلل وعلق بهـا مـا علقـه الله بهـا من الحكم والشرع وأنزلها بالمحـل الذي أنـزلها الله بـه ووضعها حيث وضعهـا فقد لبس عليـه. فنحن ندين الله بـذلك وإن سُمي تلبيسـاً كما نـدين بإثبـات القدر وإن سُمي جبـراً. ونديـن بـإثبات الصفـات وحقـائق الأسمـاء وإن سُمي تجسيمـاً. ونـدين بإثبـات علو الله على عرشـه فوق سمـاواتـه وإن سُمي تحيـزاً أو جهة. وندين بإثبـات وجهه الأعلى ويـديه المبسـوطتين وإن سُمي تركيبـاً وندين بـأنه مكلم متكلم حقيقة كلاماً يسمعه من خاطبه وأنه يُرَى بالأبصار عياناً حقيقة يوم لقائه وإن سُمي ذلك تشبيهاً. وندين بحب أصحاب رسـول الله ﷺ وإن سُمي نصباً.

ويـا لله العجب أليست الكوائن كلهـا متعلقة بـالأسبـاب. أوليس الـرب تعالى كلَّ وقت يسوق المقادير إلى المواقيت التي وَقَّتها لها ويظهرهـا بأسبـابها التي سبَّبها لها ويخصها بمحالهـا من الأعيان والأمكنـة والأزمنة التي عينهـا لها أوليس قـد قدر الله المقـادير وسبب الأسبـاب التي تظهـر بها ووقت المـواقيت التي تنتهي إليها ونصب العلل التي توجد لأجلها وجعل للأسباب أسباباً أخـر تعارضها وتدافعها فهذه تقتضي آثارها وهذه تمنعهـا اقتضاؤهـا وتطلب ضـد ما تـطلبه تلك. أوليس قـد رتب الخلق والأمر على ذلـك وجعله محل الامتحـان والابتلاء والعبودية. أوليس عمارة الدارين أعني الجنة والنار بالأسبـاب والعلل والحكم ولا حاجة بنا أن نقول وهو الذي خلق الأسباب ونصب العلل فإن ذكر هذا من باب بيان الواضحات التي لا يجهلها إلا أجهل خلق الله تعالى وأقلهم نصيباً من الإيمان والمعرفة. أوليس القرآن من أوله إلى آخره قد علقت أخباره

وقصصه عن الأنبياء وأممهم وأوامره ونواهيه وزواجره وثوابه وعقابه. بـالأسباب والحكم والعلل وعلقت فيه المعارف بالوسائط والقضايـا والحجج والعقـوبات والمثوبات بالجنايات والطاعات. أوليس ذلك مقتضى الرسالـة وموجب الملك الحق والحكمـة البالغـة. نعم مرجـع ذلك كله إلى المشيئـة الإلهية المقـرونة بالحكمة والرحمة والعدل والمصلحة والإحسان ووضع الأشياء في مواضعهـا. وتنـزيلها في منـازلها وهـو سبحانـه الذي جعـل لها تلك المـواضـع والمنـازل والصفات والمقادير.

والمقصود أن العبد يقوي إخلاصه لله وصدقه ومعاملته حتى لا يجب أن يطلع أحد من الخلق على حـاله مـع الله ومقامـه معه فهـو يخفي أحوالـه غيرة عليها من أن يشوبهـا شائبـة الأغيار ويخفي أنفـاسه خـوفاً عليهـا من المداخلة وكان بعضهم إذا غلبه البكاء وعجز عن دفعـه قال لا إله إلا الله ما أمـرَّ الزكـام فالصادق إذا غلب عليه الوجد والحال وهاج من قلبـه لواعـج الشوق أخلد إلى السكون ما أمكنه فإن غلب أظهر ما يستر به حاله مـع الله فالصـادقون يعملون في كتمان المعاني واجتناب الـدعاوي فظواهـرهم ظواهـر الناس وقلوبهم مـع الحق تعالى لا تلفت عنه يَمْنة ولا يَسْرة فهم في واد والناس في واد.

قـوله: (وهـذه الطائفـة رحمة من الله على أهـل التفرقـة والأسبـاب في ملابستهم) وإنما كانوا رحمـة من الله عليهم من وجهين أحدهمـا أنهم ذاكرون الله بين الغـافلين وفي وسـطهم يـرحمهم الله بهم فـإنهم القــوم لا يشقى بهم جليسهم الثاني أنهم لا يتركونهم في غفلاتهم بل يقومون فيهم بالنصيحـة لهم والأمر لهم بالمعـروف والنهي عن المنكر والـدعوة لهم إلى الله فيـرحمون بهم وينـالون بهم سعـادة الدنيـا والآخـرة فهم يتصـرفـون مـع الخلق بحكم العلم والشرع وأحواله ومقاماتهم بينهم وبين الله خاصة.

## فصل

قد عرفت أن هذا الباب مبنـاه على محو الأسبـاب وعدم الالتفـات إليها والـوقوف معهـا) ونحن نقول: إن الـدين هو إثبـات الأسباب والـوقـوف معهـا والنظر إليها والالتفات إليها وأنه لا دين إلا بذلك كما لا حقيقة إلا به فالحقيقة

والشـريعة مبنـاهما على إثبـاتها لا على محـوها ولا ننكـر الوقـوف معهـا فـإن الوقوف معها فرض على كل مسلم لا يتم إسلامه وإيمانه إلا بذلك والله تعالى أمـرنا بـالوقـوف معهـا بمعنى أنـا نثبت الحكم إذا وجـدت وننفيـه إذا عـدمت ونستدل بها على حكمه الكوني فوقوفنا معها بهذا الاعتبار هـو مقتضى الحقيقة والشريعة وهل يمكن حيواناً أن يعيش في هذه الدنيا إلا بـوقوفـه مع الأسبـاب فينتجع مساقط غيثها ومواقع قطرها ويرعى في خصبهـا دون جدبهـا ويسالمهـا ولا يحاربها فكيف وتنفسه في الهواء بها وتحركه بها وسمعه وبصره بها وغذاؤه بها ودواؤه بها وهداه بها وسعادته وفلاحه بها وضلاله وشقاؤه بـالإعراض عنهـا وإلغائها فأسعد الناس في الدارين أقومهم بالأسبـاب الموصلة إلى مصـالحهما وأشقاهم في الدارين أشدهم تعطيلاً لأسبابهمـا فالأسبـاب محل الأمـر والنهي والثواب والعقاب والنجاح والخسران. وبالأسباب عُرف الله وبها عُبـد الله وبها أُطيع الله وبها تقـرب إليه المتقـربون وبهـا نال أوليـاؤه رضاه وجـواره في جنته وبها نصر حزبه ودينه وأقاموا دعوته وبها أرسل رسله وشرع شرائعه وبها انقسم الناس إلى سعيد وشقي ومهتـد وغوي فـالوقـوف معها والالتفـات إليها والنـظر إليها هو الواجب شرعاً كما هـو الواقـع قدراً ولا تكن ممن غلظ حجـابه وكثف طبعـه فيقول: لا نقف معهـا وقوف من يعتقـد أنها مستقلة بـالأحداث والتـأثير وأنها أرباب من دون الله فإن وجدت أحداً يزعم ذلك ويظن أنها أرباب وآلهـة مع الله مستقلة بالإيجاد أو أنها عون لله يحتاج في فعله إليها أو أنها شـركاء لـه فشأنك به فمزق أديمه وتقرب إلى الله بعداوته ما استطعت وإلا فما هذا النفي لما أثبته الله والإلغاء لما اعتبره والإهدار لمـا حققه والحط والـوضع لمـا نصبه والمحـو لما كتبـه والعزل لمـا ولاه فإن زعمت أنـك تعزلهـا عن رتبـة الإلٰهيـة فسبحان الله من ولاها هذه الرتبة حتى تجعل سعيك في عزلها عنها. ويـالله ما أجهل كثيراً من أهـل الكلام والتصـوف حيث لـم يكن عندهم تحقيق التـوحيد إلا بإلغائها ومحوها وإهدارها بالكلية وأنه لم يجعـل الله في المخلوقات قـوى ولا طبائع ولا غرائز لها تأثير موجبـة ما ولا في النـار حرارة ولا إحـراق ولا في الدواء قوة مذهبة للداء ولا في الخبز قوة مشبعة ولا في الماء قوة مروية ولا في العين قـوة باصـرة ولا في الأنف قوة شـامـة ولا في الـسـم قـوة قـاتلة ولا في

الحديد قوة قاطعة وإن الله لم يفعل شيئاً بشيء ولا فعل شيئاً لأجل شيء. فهذا غاية توحيدهم الذي يحومون حوله ويبالغون في تقريره. فلعمر الله لقد أضحكوا عليهم العقلاء وأشمتوا بهم الأعداء ونهجوا لأعداء الرسل طريق إساءة الظن بهم وجنوا على الإسلام والقرآن أعظم جناية وقالوا نحن أنصار الله ورسوله الموكلون بكسر أعداء الإسلام وأعداء الرسل ولعمر الله لقد كسروا الدين وسلطوا عليه المبطلين وقد قيل إياك ومصاحبة الجاهل فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. فقف مع الأسباب حيث أمرت بالوقوف معها وفارقها حيث أمرت بمفارقتها كما فارقها الخليل وهو في تلك السفرة من المنجنيق حيث عرض له جبريل أقوى الأسباب فقال: ألك حاجة فقال: أما إليك فلا. ودر معها حيث دارت ناظراً إلى من أزمتها بيديه والتفت إليها التفات العبد المأمور إلى تنفيذ ما أمر به والتحديق نحوه وارْعَها حق رعايتها ولا تغب عنها ولا تفن عنها بل انظر إليها وهي في رتبتها التي أنزلها الله إياها واعلم أن غيبتك بمسببها عنها نقص في عبوديتك بل الكمال أن تشهد المعبود وتشهد قيامك بعبوديته وتشهد أن قيامك به لا بك ومنه لا منك وبحوله وقوته ولا بحولك وقوتك ومتى خرجت عن ذلك وقعت في انحرافين لا بد لك من أحدهما إما أن تغيب بها عن المقصود لذاته لضعف نظرك وغفلتك وقصور علمك ومعرفتك. وإما أن تغيب بالمقصود عنها بحيث لا تلتفت إليها والكمال أن يسلمك الله من الانحرافين فتبقى عبداً ملاحظاً للعبودية ناظراً إلى المعبود والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فاعلم الآن أن التوبة نهاية كل عارف وغاية كل سالك وكما أنها بداية فهي نهاية والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية بل هي في النهاية في محل الضرورة فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله في آخر الأمر عند النهاية وكيف كان رسول الله ﷺ في آخر حياته أشد ما كان استغفاراً وأكثره قال الله تعالى: [٩:١١٧] **﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ فريق منهم ثم تاب الله عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾** وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك وهي آخر الغزوات التي غزاها ﷺ بنفسه فجعل الله سبحانه التوبة عليهم

شكراناً لما تقدم من تلك الأعمال وذلك الجهاد وقال تعالى في آخر ما أنزل على رسوله: **﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾** وفي الصحيح أنه ﷺ ما صلى صلاة بعدما نزلت عليه هذه السورة إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه ولهذا فهم منها علماء الصحابة كعمر بن الخطاب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم أنه أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله إياه فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله وآخر أمره على ما كان عليه ﷺ مقاماً وحالاً وآخر ما سُمع من كلامه عند قدومه على ربه: «اللهم اغفر لي وألحقني بالرفيق الأعلى» وكان ﷺ يختم كل عمل صالح بالاستغفار كالصوم والصلاة والحج والجهاد فإنه كان إذا فرغ منه وأشرف على المدينة قال: «آيبون تائبون لربنا حامدون» وشرع أن يُختم المجلس بالاستغفار وإن كان مجلس خير وطاعة. وشرع أن يَخْتم العبد عمل يومه بالاستغفار فيقول عند النوم: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» وأن ينام على سيد الاستغفار. والعارف بالله وأسمائه وصفاته وحقوقه يعلم أن العبد أحوج ما يكون إلى التوبة في نهايته.

**انتهى ما تيسر اختياره من كتاب مدارج السالكين أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعله مشمراً للبركة والنفع إنه جواد كريم.**

**١٠/٨/١٤١١ هجرية**

# فهرس الموضوعات